





الاتجاه الإسلامي

في أدب علي الطنطاوي

وفا علي وفا

العبيكان
obeikan

الاتجاه

الإسلامي

في أدب

علي الطنطاوي



رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية



الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي

وفا علي وفا



ح مكتبة العبيكان، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

علي، وفا علي وفا

الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي./ وفا علي وفا.- الرياض، ١٤٣١هـ.

٣٨٤ ص؛ ١٤ × ١٢سم

ردمك: ٢-٩٦٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

١- المقالات العربية - السعودية

أ- العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٣١/١٢٥٣

رقم الإيداع: ١٤٣١/١٢٥٣

ردمك: ٢-٩٦٨-٥٤-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤/٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨/٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الشيخ علي الطنطاوي واحد من أبرز رجالات الأمة الإسلامية الذين نهضوا بعبء الدفاع عن الإسلام في وقت تكالبت فيه على مواطن الأمة الإسلامية وقيمها ومبادئها قوى الاستعمار الغربي الصليبي، مستخدمين كل وسائل القهر والتغريب من عسكرية، وثقافية، واقتصادية، وفكرية، وتربوية، مستعينين في ذلك بجماعات ضخمة ممن ارتدوا ثياب البحث والعلم، وتخفّوا تحت عنوان (الاستشراق)، يدعمهم أحدث ما توصلت إليه النهضة العلمية والصناعية الأوروبية من تقنيات.. لينفثوا سمومهم في أبناء الأمة، كي يصبحوا لقمة سائغة في فم هؤلاء الغزاة.

وكان من أخطر ميادين تلك الحرب الاستعمارية الشرسة ميدان القيم الإسلامية؛ لعلم هؤلاء الغزاة أن تلك القيم هي التي تمد الفرد المسلم بقوة الصمود، وتحصنه من التبدد والفناء، ولعلمهم أن تلك القيم هي حبل الله المتين الذي يؤلف بين أفراد الأمة، فيجعل منهم بنية اجتماعية صلبة، لا تؤثر فيها الأهواء، ولا تخترقها المغريات، ولا تسمح لعدو- أيا كان- بالوجود بينها، مهما بلغت قوته.

فكان على الشيخ الطنطاوي وأمثاله من علماء الأمة الغيورين الأحرار في شتى المواطن الإسلامية أن يسعوا لمقاومة هذا الغزو الجارف، بتبصير المسلمين بما يضمره هؤلاء لهم ولدينهم من شرور، وأن يعملوا على هتك مخططاتهم في شتى المجالات الفردية والاجتماعية، حتى يعي كل مسلم حقيقة هؤلاء الأشرار، ويتعرف على مقاصدهم الخفية.

نعم.. لقد كانت ـ وما زالت ـ حربا شرسة سلاحها اللسان والقلم، يواجه بها الشيخ هؤلاء الغزاة بما حملوه معهم من عادات وسلوكيات، لا تناقض الإسلام فحسب، بل تعمل على قهره ـ بقيمه ومبادئه ـ ليُفرّغ الإنسان المسلم من قوته التي يتميز بها.

وقد توسل الشيخ إلى ذلك بكل ما حباه الله به من وسائل التبصير والبيان؛ ليواجه هذا العدو الغازي بحضارته المادية، وتقنياته المستحدثة، وأسلحته المتنوعة، وأعوانه الحاقدين؛ فجمع بين الجد والطرافة والمرح، منتقيا لكل مقام ما يناسبه.

ولذلك.. لم يقصر جهاده على موطن دون موطن، فتنقل من مكان إلى مكان في أدب ومثابرة، واستغل كل منبر متاح؛ فكان الخطيب المُفوّه، والمحاضر الواعي، وكاتب القصة الفنان، وكاتب المقالة الجذاب، ومقدم البرامج المُشوّق عن طريق الإذاعة المسموعة والمرئية.

وهو ـ في هذا كله ـ كان المسلم العصري الواعي، الذي يلتزم الإسلام في تفكيره، وفي منطقه، وفي سلوكه، وفي منهجه، وفي

عواطفه، حريصا على أن يقدم من نفسه الإسلام الحي النابض بتسامحه، وتحريره، ووضوحه.

وعلى الرغم من ثراء ما خلفه الشيخ من تراث أدبي متنوع.. أبى الدكتور/ وفا علي وفا إلا أن يضاعف الجهد ويواصله، مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة؛ ليقدم هذا المجاهد المثابر لأبناء الأمة، وليُجلّي ما يستطيع من آثاره الأدبية لتكون بين يدي المسلمين حافزا على مواصلة الجهاد، ونورا هاديا يُعتصم به.

وقد نهض ابننا الدكتور وفا بهذا العمل الفني في صبر، وأناة، وروية، دون كلل أو ملل، مستعرضا، ومحللا، وناقدا، حتى استقامت الدراسة على عودها، ونال بها درجة الامتياز في ميدان البحث عن جدارة.

وفق الله كل باحث جاد، وهدى إلى الانتفاع بقادة الأمة ومفكريها الأحرار، لعل الطريق يستقيم تحت أقدامنا، وتُهتك سُتر الظلام التي أسدلها أشرار الغرب على أبناء الأمة الإسلامية.

والله من وراء القصد، وبه التوفيق، وعليه التوكل، وإليه الإنابة.

الدكتور/ إبراهيم عوضين

الإهداء

إلى الباحثين عـن الأدب الرفيع، والأدباء النوابغ.

وإلـى كل أديـب غيـور علـى إسـلامه ولغته، متمسـك بقيمـه وخلقـه. وإلـى كل ناقـد منصف، يحمل أمانة الكلمة، ويسعى لتوعية الأمة.



وإلى كل داعية مخلص، حريص على أمتـه، مؤمـن برسالتـه، مجاهـد بسلوكـه وكلمتـه. وإلـى كل عالم عامل مـن أجل الإسلام في كل زمان ومكان..

أهدي هذا البحث..!

المقدمة

إن الحمد للّه نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونستهديه. ونعوذ باللّه مـن شرور أنفسنـا، وسيئات أعمالنا. من يهـده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا.

وأشهـد أن لا إلـه إلا اللّه وحده لا شريك له، لـه الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، النبي الأمي الذي علم المتعلمين، وهدى الحائرين إلى طريق اللّه رب العالمين.

وصلـى اللّه وسلم وبـارك على سيدنا محمد، وعلـى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإِحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإننـي أعتقـد أنه قـد آن لنا جميعـا أن نعرف - بعد تلـك التجارب المضنيـة، والتبعية المزرية للغرب في ميادينـه المختلفة - أن الإسلام بمقاييسـه وقيمـه وطاقاته الهائلة، وما قدمه، ومـا يستطيع أن يقدمه، هـو الملاذ الآمـن، والمنهج الكامـل؛ لتحقيق نهضـة إسلامية شاملة، تتهيـأ بها الأمة لاستقبال عهـد جديد، بعيدا عن الإفلاس بالسير في

ركاب الغـرب، إلــى الريــادة المكينة التــي تستعيد بها الأمــة مكانتها، وتسترد ريادتها ومسؤوليتها في هداية العالم، وانتشاله من بحار الظلم والظلمــات التــي تحيق به من كل جانب، والتي تــزداد بزيادة بعدنا عن الإسلام، وتنكرنا لتعاليمه!

علــى أن هذه النهضة الإسلامية لــن تتحقق بالكلام أو الأماني، بل تحتاج فــي قيامها إلى تبني المؤسسات التعليمية والإعلامية، والهيئات القيادية والتوجيهية بعث هذه النهضة التي يجب أن يقود خطاها العلماء والأدباء والمفكرون الإسلاميون.

وإلــى أن يحدث هذا الذي يجب أن نسعــى لتحقيقه لابد من إظهار البدائــل الإسلاميــة القويــة (التطبيقيــة والنظريــة) فــي كل مجالات الحياة؛ لتواجه مستجدات العصر، وتكتسح هذا الغثاء الواهي من النظم والقوانيــن، والآداب، والمناهــج.. والتــي جندت لها العقــول والأقلام، وأنفقت في سبيلها الأموال.. لتحيا مع ضعفها، وتعيش مع أمراضها!.

وفي سبيل إظهار البدائل الإسلامية القوية في المجال الأدبي، أتقدم بهــذا البحث: «الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي» ذالكم الاتجاه الــذي يتصدى رجاله للخطــر الداهم مــن الآداب الوافــدة، والمذاهب الهادمــة من وجوديــة، وواقعيــة، ورمزية.. تعمــل على إشاعــة الفوضى والسلبيــة، ونشــر الرذيلة والمادية فــي سلوك المجتمــع وإبداعه، تحت مسميــات براقة وألقاب خادعــة، تجد من التشجيــع والأنصار، ما يفتح

لها أبـواب الذيوع والانتشار؛ لتنال من ديننا وقيمنـا، وتمتد في فراغنا، وتقتحـم حياتنا؛ لتفسـد أذواقنا وأخلاقنـا، بالكلمة الخبيثـة، والفكرة المدمـرة، والصـورة الماجنة.. وصـولا لأغراض دنيئـة، ومنافع تافهة، تخدم بها أهواء واتجاهات منحرفة.

وأديبنا علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ أحد أولئك الأعلام المصلحين، والأفـذاذ المخلصيـن، الذين تسلحـوا بالإسلام، وسخـروا مواهبهم وحياتهـم في سبيله؛ لإيقاظ أمتهم، والتصـدي لانحرافاتها، ومواجهة حمـلات مسخها وتشويههـا، حتى يمكن القول: إن علـي الطنطاوي قد نجـح ـ برغم هذه الأجواء التي كانت ملبدة بالغيوم، ومظلمة بالاحتلال والفساد ـ في أن يقوم بأمانة الكلمة، وأن يحمل من أعباء الأمة وهمومها وآمالهـا ما أفصح عنـه بشتى وسـائل التعبير والإلقـاء المؤثر الفاعل؛ ليـؤدي رسالته الإسلامية والأدبية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمـة، وليكـون من طليعـة من شاركوا فـي الإصلاح الشامـل بالمنهج الإسلامـي الكامـل، الـذي ترك لنـا فيه معالـم خالدة، وآيـات فريدة مـن الأدب الإسلامـي الرفيع، الذي يدفع الأمة نحـو النهوض واليقظة والارتقـاء، والذي يعيش في وجداننا، ويظل مثـالا لأدبائنا المجاهدين المؤثرين بالكلمة الطيبة، والقدوة الحسنة.

وأدب علي الطنطاوي أدب حي، كلما قلب الإنسان فيه بصره خرج بمعان جديدة ومشاعر مختلفة، وكأنه الحقل المثمر، والروض المزهر،

مــن دخله خــرج محملا بعطره الفــواح وثمره اليانع، وبقــي الحقل كما هو.

دوافع البحث:

لقــد دفعني لاختيــار هذا البحث «الاتجــاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي» عدة أمور من أهمها:

١. الرغبة في تقديم شخصية أدبية إسلامية عظيمة لم تنل ما تستحقه من التقدير والتبريز لعطائها الأدبي الإسلامي، الذي آن لنا أن نضعه في موضعه المناسب ومكانته الرائدة، خاصة بعدما فشلت المذاهب الماديــة، والتيارات الغربية في معالجــة قضايا الأدب والحياة، وبناء القيم والأخلاق، وعجزت عن تلبية احتياجات الروح والجسد.

٢. الوقــوف علــى أهمية الأدب الإسلامي ودوره مــن خلال التعرف على تجارب أحد عظمائه الأفذاذ ، وتلمس أسلوبه، وفكره،وجهده، وطرقه الفنية والتعبيرية التي توسل بها إلى تحقيق غاياته الإسلامية والوصول إلى أهدافه الإصلاحية لرقي المجتمع ونهضته، لعل ذلك يكون خطوة نحو بيــان دور الأدب الإسلامي وفاعليته في إنقاذ المجتمع واحتوائه وجدانيــا وفكريــا وسلوكيــا وفنيا؛ للنهوضــ به، والتجــاوب معه لحل مشكلاته وطرح قضاياه، وتلبية احتياجاته..

ولعله ـ أيضاً ـ يكون منه دليلا عمليا على وجود أدب إسلامي رفيع، يغري الطلائع الجادة بتلمس دربه والتزام منهجه القويم الذي اتهم بالعجز والقصور.

٣ـ أنهـا ستكـون أول رسالـة عن أديبنـا العظيم في قطرنـا المصري، وأن هـذا الموضوع لم أسبق إليـه ـ حسب علمي ـ بالإضافة إلى حاجة المكتبة الإسلامية إلى هذا اللون الذي يوظف فيه الأدب بكل طاقاته.. في خدمة الإسلام بعرض قضاياه وإبراز مزاياه.

٤ ـ احتـواء أدب الطنطـاوي علـى التنـوع، واشتمالـه على كثير مـن الألوان الأدبية: من خطابة، وقصص، وتراجم، ومقالات، التي تشبع رغبة الدارس والمتلقي في التعرف على هذه الألوان وخصائصها الفنية والموضوعية.

٥ـ قلـة الإقبال علـى الدراسات النثريـة موازنة بالدراسـات الشعرية، مـع مـا للنثر من انطـلاق واسع فـي آفاق بعيـدة وميادين مختلفة؛ ليعالـج قضايا كثيرة بوضـوح واستفاضة يعجز الشعر عن معالجتها، بالإضافـة إلى كثرة المتلقين له والمنفعلين به، مما يعظم أثره ويبرز خطـره، ويدعونـا إلى الاهتمام بـه وملاحقته في ميادينـه المختلفة بالدراسة والنقد؛ لنتحرك به نحـو الرقي والتحديث بمنهج إسلامي قويم، يرتقي بالأفكار والأذواق، ويهذب المشاعر والأخلاق.

ولاسيما أن الإسلام بمعاييره ومقاييسه النقدية، وما قدمه من نماذج إبداعيـة معجـزة تجعلنا نتمثلـه المعيـار الأول في النقـد والتقويم، والتواصل والامتداد.

٦ـ أردت بهذا البحث أن يكون إضافة جديدة لما سبقه من أعمال تمثلت في حد علمي في:

- رسالة ماجستير للباحث عبد الله بن جبريل بعنوان «بعض الآراء التربوية للشيخ علي الطنطاوي» من جامعة أم القرى بمكة المكرمة،١٤٢٠هـ.

- رسالة ماجستير للباحث/ أحمد آل مريع بعنوان «ذكريات الطنطاوي دراسة فنية» من جامعة أم القرى، ١٤٢٠هـ.

- رسالة دكتوراه للباحث/عبدالله فاروق بعنوان «علي الطنطاوي مساهمته في تطوير النثر العربي الحديث» جامعة عليكرة بالهند، ١٩٩٥م.

- «أدب الفكاهة عند الشيخ علي الطنطاوي» لأحمد آل مريع، كتيب المجلة العربية العدد ٤١.

- «علي الطنطاوي...» تأليف حفيده مجاهد ديرانية، طبعة دار القلم، دمشق،١٤٢١هـ.

- «هكذا رباني جدي علي الطنطاوي» تأليف حفيدته عابدة العظم.

- «روائع الطنطاوي» تأليف إبراهيم مضواح الألمعي، طبعة دار المنارة، جدة، ١٤٢١هـ.

- «مقدمات الشيخ علي الطنطاوي» جمع وتأليف/ مجد مكي، طبعة دار المنارة. جدة، ١٤١٨هـ.

- مجلة «الأدب الإسلامي» العددان الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

- «الأديب السوري علي الطنطاوي» لأستاذي الدكتور عبد الحميد شعبان الذي نفعني الله بعلمه وفضله، والذي لفتني للشيخ علي الطنطاوي، فعرفته ببيانه الرائع وتعلقت نفسي به؛ لما وجدت في أدبه من روح قوية، وأسلوب مميز، وهدف قويم.

منهج البحث:

أما عن منهج هذا البحث: فقد راعيت فيه منهجا فنيا متكاملا، مترسما فيه منهج أستاذي الدكتور إبراهيم عوضين فيما قدمه من دراسات تطبيقية ونظرية، سمت إلى سماء الأدب، وامتلكت ناصية النقد، وكانت لي كالدليل الواضح والنور الكاشف، الذي أضاء لي الطريق، ومهد لي السبيل إلى مواصلة البحث والسير فيه.

طبيعة البحث:

أما عن طبيعة البحث: فهو محاولة للتعرف على روح الأدب الإسلامي ومظاهره عند الطنطاوي، ودوره في بناء الفكر، وترقية السلوك، وتهذيب المشاعر والأخلاق، بعيدا قدر الإمكان عن جمود المصطلحات وبريق الألفاظ التي تجري في وصف كل أديب.

شكر وتقدير:

وأخيــرا.. فإنني أتقدم بخالـص الشكر لأستاذي الدكتور إبراهيم عوضيــن ذلكم العالم الكبير والناقد الأديب، الذي اهتم بإرساء قواعد النقـد الأدبي الإسلامــي بحس يقظ، وقلب بصير، حتــى كان من أبرز رواد هــذا التوجه في هذا المجال، بما قدمه مــن أعمال أدبية ونقدية، استطاعــت غرس هــذا الاتجاه وتنميته في نفوس طلابه وقرائه، حتى تبعه اليوم جيل مستلهم لرؤيته، مستمر على نهجه وطريقته، معترفا له بالفضل والتقدير. فجزاه الله عني وعما قدم خير الجزاء.

والله أســأل أن يتقبــل مني هذا العمــل، وأن يعفو عــن زلاتي، وأن يأجرني ومن عاونني عليه أفضل الأجر وأعظم الثواب.

وآخــر دعوانا أن الحمــد لله رب العالمين. وصلــى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا.

وفا علي وفا



التمهيد: الطنطاوي والأدب الإسلامي

ويحتوي على مبحثين:

المبحث الأول: البيئة الزمانية والمكانية لعلي الطنطاوي

ويشتمل على:

- الحياة الاجتماعية.
- الحياة السياسية.
- الحياة الثقافية والأدبية، وأثرها فيه.

المبحث الثاني: مفهوم الأدب الإسلامي.

الطنطاوي والأدب الإسلامي

أصبح من الواضح أن الدراسة الأدبية لا تستقيم إلا إذا دارت حول محاور الأدب المختلفة الشاملة: النص، والأديب، والبيئة؛ إذ لكل واحد منهم أثره الواضح في البناء الأدبي أيا كان جنسه[١].

فدراستنا عن «الاتجـاه الإسلامي في أدب على الطنطاوي» تتطلب من الدارس التعرف على شخصية الأديب وبيئته التي نشأ فيها، وأثرها فـي أدبه، مما يدعونا إلـى التعرف على أهم العوامـل التي كان لها أثر فـي تكوين شخصية الأديب وتوجهاتـه؛ لأهميتها في فهم نتاجه الأدبي والحكـم عليـه؛ إذ إن الأدب صـورة من شخصية الأديـب، وإعلان عن هويتـه، وانعكاس لأخلاقـه وطبائعه وثقافته.. وغير ذلـك من العوامل التـي يقع الإنسان تحـت تأثيرها، والتي تنشأ مـن المحيط الاجتماعي والسياسي والثقافي الذي نشأ فيه.

ويبـدو أن الطنطـاوي قد أدرك أهمية ذلـك، فكشف لدارسه عن نفســه في كتابه «ذكريات علي الطنطاوي»، وزوده بالكثير، وأبان له عن

(١) هنـاك رؤى أخرى تقصر الدراسة الأدبية على النص وحـده، سار عليها أصحاب «مذهب الفن للفن» على اختلاف شعبهم.

نـواح عديدة من حياته ونشأته في صـدق وصراحة؛ لكي يتمكن دارسه مـن أن ينطلق مـن ثوابت يستضـيء بها في تقويم ما يريـده من تراثه الضخم، دون أن يتخبط في أوهام التخمينات والظنون التي قد تصيب، وقد تخطئ! فتبتعد بالبحث عن موضوعيته.

وقـد ألمـح الطنطاوي إلى هذه الغاية فقـال: «... وما أدري لماذا ينتظر النـاس حتى يموت الرجل ليندبوه ويرثـوه، ويثنوا عليه، وينحلوه مزايـا ليسـت له، وفضائل مـا كان له حظ امتلاكهـا. وإن كان كاتبا أو شاعرا فسروا أدبه تفسيرا لم يكن يخطر على باله، ونسبوا إليه أفكارا ما خرجت قط من رأسه، بل ما دخلت إليه».

ولنتجنـب الوهم والخطأ في دراسة الطنطاوي؛ فقد أمدنا - رحمه الله - بفيض ضخـم من المعلومـات فـي «ذكرياته» التي بلغـت ثمانية أجـزاء، والتي تعد سجلا أدبيا وتاريخيـا أطلعنا من خلاله على الكثير مـن أحـداث عصره وعلاقتـه بها؛ فنقـل إلينا جل مـا دار في محيطه الواسـع بعدسته المصورة وبيانه العـذب، نقلا صادقا، مؤيدا ذلك بما نقلـه من رسائل وقـرارات وأجزاء مقالات بنصها. وفـي هذا المبحث سأحـاول - إن شاء الله تعالى - أن أقدم صورة للأديب بقلمه في محيطه الاجتماعي والسياسي والثقافي.

علي الطنطاوي

اسمه:

هو «علي بن مصطفى بن أحمد بن علي بن مصطفى الطنطاوي»[١].

لقبه:

«الطنطاوي» هذا اللقب نسبة إلى (طنطا) وهي إحدى المدن المصرية، حيث قدم جد أبيه لأمه منها إلى دمشق في سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٨م. وكان اسمه محمد مصطفى الطنطاوي، والذي لزم الجامع الأزهر خمس سنوات قرأ فيه على علمائه وأخذ عنهم، ثم كانت له مشاركات في التعليم والتأليف بدمشق، فترك كتبا صغيرة أكثرها في الفلك، والرياضيات...[٢].

كنيته:

كنى الطنطاوي عن نفسه في مرحلة من مراحل شبابه «بأبي

(١) ذكريات علي الطنطاوي. علي الطنطاوي ١/ ١٣٤.

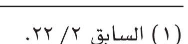
(٢) السابق، ج١/ ١٣٤- ١٣٦.

الهيثـم» ووقـع بها بواكير مقالاته في مجلتي فتـى العرب، والناقد. وقد جمع بعض هذه المقالات وأودعها كتابه «الهيثميات»[١].

مولده:

ولد علي الطنطاوي في دمشق في حي العقيبة، وبها نشأ وترعرع.

وكان مولـده في فجـر يوم الجمعـة الثالث والعشريـن من جمادى الأولى في سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٨م[٢].



(١) السابق ٢/ ٢٢.

(٢) السابق ٤/ ٧٣.

المبحث الأول

البيئة الزمانية والمكانية لعلي الطنطاوي

مما لاشك فيه أن للبيئة أثرًا كبيرًا في تشكيل وجدان الأديب وتوجهاته، حتى قيل: «الأديب ابن بيئته»؛ لأن الإنسان كائن ذو حس وشعور، يتأثر بالمحيط الذي يعيش فيه وينفعل به، ويحاول التأثير فيه.

وقد ذكر الطنطاوي ذلك الأثر كثيرًا، ممثلاً له بقوله: «فإذا أنزل الله الأمطار وجمع الله لها الظروف، التي جعلها سبب الإنبات كان منها هذا النبات، وكان منه هذا الزهر البارع والثمر اليانع، أو كان منه الشوك الجارح والسم الناقع.

وكذلك كل ما تسمعه، لاسيما إن سمعته في الصغر، أنه بذرة شر إذا جاءها الظرف المناسب، وضعتك على طريق الجنة أو على سبيل النار، فانتبهوا يا أيها القراء لما تنظرون فيه من كتب ومجلات، وما تسمعونه من إذاعات ومحاضرات، وما تشاهدونه من مسلسلات ومسرحيات، ولا تظنوا أن أثر ذلك يذهب مع إكمال الكتاب، أو انتهاء المحاضرة، أو إسدال الستار على المسرحية، بل إن بعضه يبقى مابقيت الحياة»[١].

(١) ذكريات علي الطنطاوي. ١/ ٧٤. ط١. دار المنارة. جدة ١٩٨٩م.

ومن هنا يمكن أن ننظر إلى دور البيئة وأثرها في حياة الطنطاوي وأدبه.

(أ) الحياة الاجتماعية:

يرسم الطنطاوي من خلال ما كتبه صورة لمجتمعه، تصور ما كان عليه المجتمع وما صار إليه، فيذكر أن المجتمع الذي نشأ فيه كان مجتمعا نقيا طاهرا، يحافظ الناس فيه على القيم ويتمسكون بالدين، حتى كان أهل دمشق في مثل طهارة الأطفال، فلا المادية تسيطر عليهم، ولا الشبه تزعزع ما بهم. تمكنت العقيدة من قلوبهم، فكانت الأخوة تجمعهم، والعفاف زينتهم، والحياء يسودهم[١].

وقد كان من مظاهر هذه الحياة اجتماع الأسرة الكبيرة في بيت واحد، وأكلهم من قدر واحدة، لكل أسرة كبير يجلونه ويوقرونه، حتى إذا اجتمعوا عنده قعدوا متأدبين خاشعة أصواتهم، لا يخالفون له أمرا، ولا يجرؤون عليه بطلب، ولا يبدؤونه بحديث، مع تسامح ومحبة وارتباط قوي وتعاون على البر والتقوى[٢].

وقد انعكس هذا التسامح وهذا الرضا على حياة الناس، فكان الخير كثيرا، وكان كل شيء رخيصا، لم يعرف الناس الترف، ولم يحفلوا بكماليات الحياة[٣].

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص ١٦٧، ط٤ ـ دار المنارة ـ جدة ١٩٩٨م.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١٤٤.

(٣) دمشق. علي الطنطاوي ص١٢٣، ط٢،دار المنارة ـ جدة ١٩٨٧م.

كان كل فـرد يؤدي دوره ويقوم بواجبه بلا تقصير ابتغاء وجه الله، فكان في كل حي جامع حافل بالعلماء، عامر بالدروس، يجتمع فيه الناس كل صـلاة... وكانت هذه الجوامع كمجالس المديريات والمحافظات، والجامـع الأموي هو مجلس الأمة، فهو مجتمع أهل البلد، وهو المدرسة الكبـرى، وفيه تكون المذاكرة في كل أمر، ومنه يصدر كل قرار، وكانت الحلقات دائمة فيه لا تنقطع، حلقات الفقه، والحديث، والوعظ.

فـكان للدين أثره في القلوب، ولعلمائـه المخلصين هيمنة وتقدير في النفوس. ولم لا!؟ وقد كانوا مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم[١].

وتبـدو لوعـة أديبنا وتحسره علـى ضياع ما كان يـراه في مجتمعه مـن مظاهر الصفـاء واليسر، والإخـاء وصيانة الأعراض، والتمسك بالأخـلاق والآداب، قبـل أن يدنس المجتمع بمظاهـر المدنية المادية، فيكثر لذلك من تكرار كلمة (كان، وكنا)، التي تشعر بالأسف على هذا الماضي الجميل، وشدة الحنين إليه.

يقول ـ رحمه الله: «... لقد كان الحي كأنه أسرة واحدة، فكان أهله شركاء في الفرش والآنيـة...، وكان الرجل يعد نساء الحي كلهن أهله، ويحفظهن ويغـار عليهن كغيرته على أهله، وكانـت كل امرأة تنظر إلى نسـاء الحي نظرها إلى أهلها، تقـدر كل كبيرة تقديرها لأمها، وتعطف على كل صغيرة عطفها على بنتها.

كانت تسليتنا قليلة، ولكنها نبيلة.

---

(١) دمشـق صـور مـن جمالها..وعبر مـن نضالها، علـي الطنطـاوي، ١٢٤، ط٣. دار المنارة ـ جدة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

وكانت حياتهم همومها يسيرة، ومشاغلها قليلة، فلا بطالة ولا عنوسة، فكانت البنت تتزوج في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، والشاب يتزوج في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، فلا يبلغ الثالثة والعشرين حتى يكون قد استقل بعمله أو صار شريكا لأبيه، وصار له مورد وصار له أولاد، ولم يعد كلا على أبيه، بل هو الذي يساعده...»[١].

«وكان الناس لا يهتمون بسياسة ولا رياسة، ولا يتصلون بالحكومة إلا إن عرض عارض أو ألمت ملمة»[٢].

فقد كانت الحياة الاجتماعية في مجملها كما يقول الطنطاوي: «ضيقة محدودة، ولكنها سعيدة مجدودة (أي محظوظة)»[٣].

ومن ثم فقد أشاد - رحمه الله - بهذه الحياة التي عاشت في وجدانه، والتي ظل حريصا على عودتها ولو من خلال ذكرياته وكتاباته، ولطالما حن إلى عهد الجدود الذين كان يراهم أبعد عن حضارة أوروبا، ولكنهم كانوا أرضى لله منا وأقرب إليه، وكانوا أقوم أخلاقا، وأطهر قلوبا، وأصفى سرائر، وأصدق معاملة، وكانوا أسعد منا في الحياة[٤].

ثم يورد الطنطاوي خبرا يوضح فيه بداية التحول لهذا المجتمع الذي كان مغلقا في أغلبه، لا يدري بما يدور حوله من أحداث، ولا يهتم

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣٤/١.

(٢) دمشق. علي الطنطاوي ص ١٢٦.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٣٤/١.

(٤) من حديث النفس. علي الطنطاوي ص٧١، ط ٣، دار المنارة، جدة ١٩٩٨م.

بمـا عليه العالم من تحركات، فقد ظل مجتمعا هادئا ساذجا قانعا بما له من الحياة، حتى صدمته المدنية الغربية بمظاهرها المادية، فكانت أشبه ما يكون له بالسحر الذي أفقده اتزانه.

يقـول الطنطـاوي: «وأنـا أذكـر أن أول سيـارة وصلـت إلينا سنة ١٩١٦م، وخـرج النـاس ينظرون إليها، فلما رأوهـا لا يسحبها حصان، قال قائل من العوام: إن الجن تسيرها، فتدافع ضعاف القلوب هاربين، وهربنا نحن الصغار معهم!. أما الطيارة فقد جاءتنا قبل سنة ١٩١٥م، سمعـت بذلك ولم أره؛ لأنـي كنت صغيرا، وكانت قصـة عجبا، تحدث الناس بها طويلا مع أن الطيران إنما ابتدأ سنة ١٩٠٣م»[١].

تلـك الحياة الراضية الهانئة التي تكلـم عنها الطنطاوي، سرعان مـا تحولت إلى تعاسة وشقاء مـع بداية الغزو الاستعماري الأوروبي؛ إذ صاحـب الغزو العسكري لتلك الـدول غزو أعمق أثرا وأكبر خطرا، وهو الغـزو الفكري الـذي أفرز انتشـار ضلالات وشبـه، وانحرافات فكرية وسلوكية وأخلاقيـة أرادها المستعمر، واتخذهـا سلاحا موجها، سعى لتفعيـل دوره في المجتمع المسلم بشتى الطرق، بهدف تطويعه وتحويله لمستعمرة يستغل مواردها ويضمن بقاءه فيها.

وهذا التحول السيئ في مناحي الحياة، والذي بدت مظاهره سريعاً في المجتمع من تحلل وانحراف.. عدد الطنطاوي في كثير من مقالاته بعض مظاهره: من أدب مكشوف، وصحف مأجورة، وقوانين موضوعة،

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/٣٥.

وخدع مصنوعة بإحكام،... مبينا أن هذا الكلام كله كان نتيجة للغزو الاستعماري، الذي قال عنه بعد أن عدد كثيرا من مظاهره: «... هذا كله ثمر الغرسة الخبيثة التي غرسها فينا المستعمر، وإنه لن يكون الجلاء حقا، حتى تجلو قوانين المستعمر عن محاكمنا، وشبهه عن رؤوسنا، وعاداته عن بيوتنا، كما جلت جنوده عن أرضنا»[١].

ومن ذلك نلمح أن الحياة الاجتماعية التي عاش فيها الطنطاوي قد تطورت وتغيرت سريعا من السكون والقناعة إلى الصراع والطمع، ومن العفة والغيرة إلى التكشف والتهاون.

لذلك كان الطنطاوي ممن يبغض هذه الحياة الجديدة المسماة (بالمدنية)، ليس عن بغض لعلومها ومنجزاتها، وإنما لما جلبته معها من تسلط مزر، وما تخفيه تحت ثوبها البراق من سم ناقع يبثه أتباعها في عروق المجتمع وشرايينه، من فكر خبيث، وتقاليد قبيحة، لو لم تجد من يداويها لغيّرت وجه المجتمع، وبدلت جلدته الإسلامية والعربية كلية.

ومن الواضح أن هذه الحياة الاجتماعية بمشاهدها وملامحها قد انطبعت في نفس الطنطاوي، وتركت أثرها في فكره، وانفعل بها وجدانه، ونما معها اتجاهه، فبدت ملامحها في أدبه، وبدا موقفه الثائر من تشويهها وتحويلها عما كانت عليه من صفاء وطهارة، وقناعة وإيمان، وبدا جهده الساعي نحو بنائها بناء إسلاميا معاصرا، متصلا بأصوله ومنطلقا من ثوابته.

---

(١) صور وخواطر، علي الطنطاوي ١/ ٣٥.

(ب) الحياة السياسية:

من المهم التعرف على الحياة السياسية، وأحداثها في محيط الطنطاوي، وموقفه منها، لما لها من انعكاس عليه وعلى أدبه.

ولقد صور الطنطاوي النظام السياسي الذي عاش في ظله صورة كلية مجملة، فقال: «ذلك أننا شهدنا في سنتين اثنتين مولد انقلابين، وموت حكومتين، أدركنا عهد الترك ورأينا ذهاب الترك، وعشنا في حكم (فيصل)[١] وأبصرنا انهيار حكومة فيصل، فكانوا كلما جدت حكومة ونحن في الصف الخامس أعادونا إلى الصف الرابع، فلم نستقر في الصف الخامس إلا سنة ١٩٢١م، على عهد الفرنسيين، وقد كنا فيه سنة ١٩١٨م على أيام العثمانيين»[٢]. وفي هذا دلالة على ما كانت عليه الحياة السياسية حينذاك من اضطراب وقلق، وما كان عليه النظام السياسي من ضعف وهزال.

وحياة الطنطاوي نظرا لذلك - كما وصفها - كانت حياة صاخبة مليئة بالأحداث والمتغيرات والثورات والانقلابات، التي كان من شأنها أن أحدثت تغييرا عميقا في فكر المجتمع وقيمه بوجه عام؛ حيث أدرك الطنطاوي عهد الترك، وعهد الشريف، وعهد الفرنسيين، وعهد الاستقلال، وعهد الوحدة، ولكل عهد من تلك العهود مآس وأهوال

---

(١) فيصل الأول بن علي الحسني الهاشمي، أبو غازي ١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ، ملك العراق. من أشهر ساسة العرب في العصر الحديث (معجم الأعلام. بسام عبد الوهاب الجابي ص٥٩٨).

(٢) دمشق... ص١٤٠.

تبدلت فيها الأحوال، وتغيّر المجتمع في هذه السنين الخمسين أضعاف ما تبدل في القرون الخمسة الماضية»[١].

إذ صاحب كل عهد مـن تلك العهود أفكار وأخطار، ودعوات فكرية ومذهبية أحدثـت تيارات مختلفة تصارعت فيمـا بينها. هذه التيارات كان منهـا ما يهدف إلى إيقاظ طوائـف الشعب، وبث الحركة والنشاط فيها، ومحاربة مظاهر الفساد، كل بمقدوره، وفي محيطه، فتولدت عن ذلك صور خالدة من البطولات والزعامات السورية، كان من بينها علي الطنطاوي ـ رحمه الله.

علـى أن أبقـى هـذه الصراعات أثـرا وأعمقها خطـرا، الاستعمار الفرنسي ومـا جلبه من بلايا مادية وفكرية، والذي بدأ خطواته اللعينة حين «رغب الجانب العربي في عقد معاهدة مع إنجلترا انتقاما لقوميته التـي عبث بهـا العثمانيون... وقد انتـاب العثمانيين حمـى الطورانية، فسـاروا في هـذا الشوط إلى نهايته. نعم ثار العـرب ثورة مكتومة أمام هـذا التتريـك، ولم يقبلـوا أبـدا أن ينصاعوا لـه، فكانـت الجمعيات العربيـة، والأحزاب والخطب والدعوة إلى الثورة خير دليل على كراهية العـرب لسياسـة التتريك هذه. وقـد قابلت تركيا هـذا الاتجاه العربي القومي المضاد بشيء غير قليل من القسوة والعنف.

فـكان لابد للعرب من حل، وهم يبحثـون عن الاستقلال عن الدولة العثمانية، بعدما زاد (الاتحاديون) في إيذائهم وفرض التركية عليهم،

---

(١) صور وخواطر، ص٢٦٠.

ومحاربة العربية. وقد آلم العرب ـ خاصة ـ تلك السياسة العتيقة التي اتبعها الاتحاديون ضدهم...، آلمهم امتهان قوميتهم وآدميتهم، حين عبث بهم جميعا أحمد جمال باشا، فأخذ ينفي العرب رجالا ونساء، ويبعث بهم خارج بلادهم... وكان للدماء الزكية البريئة التي سفكها هذا الرجل رنة من الحزن والأسى أصابت كل عربي، كما كان لجميع الشخصيات البارزة التي نعدها بحق طلائع النهضة العربية أثرها ـ كذلك ـ في الرغبة في إعلان الثورة على الأتراك في كل مكان.

تراءى للعرب إذن وجوب الثورة على العثمانيين، فكان لابد لثورتهم هذه من زعيم يقودها ويدير أمرها، وقد وجدوا هذه الزعامة في البيت الهاشمي في الحجاز، وكان لابد من السلاح وقد وجد العرب هذه المساعدات من الحلفاء، لكنهم رغبوا ألا يكون ثمنها على حساب الوطن والاستقلال، ومن ثم عولوا على عقد معاهدة يضمنون بها وصول المدد والعون لإنجاز ثورتهم، ويضمنون عن طريقها الانتقام والتشفي من ظالميهم، وقد وجدوا استجابة من الإنجليز خاصة، استجابة ظاهرها رحمة وباطنها شقاء وعذاب، فكان حمل العرب السلاح ضد الترك ثورة لقوميتهم المهيضة.

فقامت على ذلك معاهدة الشريف حسين/مكماهون، مع الحلفاء إنجلترا وفرنسا، وأعلنت الثورة العربية في ٥ يونيه سنة ١٩١٦م، وكانت تلك الثورة التي قام بها الشريف حسين انتفاضة عربية خالصة تفانى القائمون بها في تأدية واجبهم على خير وجه، فاستطاعوا طرد الأتراك من شبه الجزيرة العربية، وساهموا إلى حد كبير في تخليص سوريا

من العثمانيين، حيث اشترك معهم الحلفاء من الإنجليز والفرنسيين، وانفرد الإنجليز بطرد العثمانيين من العراق...

ومن أبرز نتائج هذه الثورة العربية، أنها وحدت بين العرب بدوهم وحضرهم، فقد تناسى الجميع أحقادهم واندفعوا مع الشريف وأبنائه لاسترداد حريتهم المسلوبة، كما كانت خسارة الترك على يد العرب أعظم مما كان يتصور؛ إذ بلغ مجموع القوات التركية التي شملتها الثورة العربية بالقتل والأسر والعزل، حوالي ٣٥٠٠٠، وكان ذلك إبان احتلال العقبة، وقد زاد هذا العدد كثيرا بعد ذلك. كما لقي العرب في الشام - خاصة- من جراء الثورة العربية الكثير من العنت والإرهاق، حتى ذهب ضحيتها في سوريا ولبنان أكثر من ثلاثمائة ألف نسمة! هذا بالإضافة إلى مئات المشردين! ومن قتلوا على يد السفاح التركي أحمد جمال باشا...

وقد استقبل عرب سوريا جيش الثورة العربية وجيش اللنبي القائد الإنجليزي - خير استقبال، مؤملين الخير على يد الإنجليز، الذين وعدوهم بالاستقلال والوحدة، ولم يدروا أن إنجلترا وفرنسا قد تآمرتا على حريتهم ووحدتهم في اتفاقية (سايكس/ بيكو) في مايو سنة ١٩١٦م في أثناء مفاوضتها مع العرب، ولقد قامت هذه الاتفاقية على تحقيق أطماع فرنسا القديمة في سوريا ولبنان، وأطماع إنجلترا في فلسطين والعراق.

لذلك لم يلبث «اللنبي» أن عمل على تنفيذ معاهدة (سايكس/ بيكو) من الناحية العملية، فقسم سورية إلى مناطق احتلال ثلاث،

جعل القسم الشرقي من سورية - سورية الداخلية منطقة احتلال الجيوش العربية، وأما المنطقة الغربية - الساحلية- فقصره على الفرنسيين، بينما احتل هو بجيوشه الإنجليزية فلسطين، فكان هذا التقسيم العسكري خير دليل على نية الحلفاء المبيتة ضد العرب[١].

وهكذا لم تنج سوريا من أنياب الذئب العثماني (الاتحاديين)، حتى وقعت في براثن الثعلب الفرنسي الذي غرها ومناها بالاستقلال، فلم تهنأ به حتى دفنته لها في ميسلون سنة ١٩٢٠م.

وظل الصراع مستمرة حلقاته بين سوريا وفرنسا، ومتلونة أساليبه، حتى تم لها الجلاء سنة ١٩٤٦م.

لكن ما خلفه الاستعمار كان أفظع وأخطر، ويحتاج إلى أسلحة أقوى وأمنع.

يقول الطنطاوي: «لقد ظهرت فينا أفكار غريبة عنا، ما كنا نعرفها ونحن صغار، أفكار جاء بها الاستعمار وصنائع الاستعمار من الذين تربوا في تلك الديار»[٢].

ومن هنا ظهر أثر هذه التقلبات المستمرة، والصراعات الضارية على نفس الطنطاوي، وانعكست على أدبه بالرفض والغضب لما يكره تارة، وبالتأييد والرضا لما يحب تارة أخرى.

---

(١) الأحداث العربية في تاريخها الحديث. د/ طه شرف صـ١٤٦ وما بعدها، ط شركة توزيع الجمهورية، موسوعة التاريخ الإسلامي. د/ أحمد شلبي ٥/ ٥١٧- ٥١٩، ط٣- مكتبة النهضة المصرية.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٦/ ٩.

(ج) الحياة الثقافية:

تبدو صورة الحياة الثقافية من خلال لونين من النشاط هما:

النشاط التعليمي، والنشاط الأدبي.

أما بالنسبة للجانب التعليمي عند منشأ الطنطاوي، فقد كان يسير في دمشق على طريقتين:

١ـ طريقة المشايخ الملتزمة بالأسلوب الأزهري القديم.

٢ـ طريقة المدارس النظامية.

أما طريقة المشايخ، فقد كان لها دور كبير في تثقيف العامة وطلبة العلم، وكانت لها حلقات ومجالس دائمة لا تنقطع، حلقات الفقه، والحديث، والوعظ..

وكان هؤلاء العلماء مرجع الناس في أمور دينهم وأمور دنياهم، يسألونهم ويقبلون منهم ويصدرون عن رأيهم، كانت كلمتهم مسموعة، وكان رأيهم نافذا»[١].

وهؤلاء ـ برغم جهدهم هذا في خدمة العلم وتثقيف الناس ـ اتصفوا بالجمود، فكانوا لا يعنون بالتجديد ولا بالاجتهاد واستنباط الأحكام، فهم عاكفون على كتبهم في حلقاتهم يكررون ـ غالبا ـ قراءة الكتب التي قرؤوها على مشايخهم، فجاؤوا يعيدون إقراءها تلامذتهم، فما كانوا يزيدون عليها، أو يزنون ما جَدَّ في عصرهم بميزانها[٢].

---

(١) دمشق.. ص١٣٤.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ٢/ ٣٥، ٣٦.

وأما المدارس النظامية في الشام، فقد كانت أصنافا ثلاثة:

المدارس الأهلية، والمدارس الأميرية الحكومية، والمدارس النصرانية.

أما المدارس النصرانية فقد فتحت لأهلها، ولم يكن لأبناء المسلمين مكان فيها، ولكنها امتلأت بعد ذلك على مر السنين بأبناء المسلمين بحجة تعلم اللغة الأجنبية.

وهذه الحجة الواهية التي لا تثبت للنظر والتمحيص، قد جرت على المسلمين شرا كبيرا.

أما المدارس الأهلية فكانت هي الأقوم سبيلا والأكثر عددا...، وكانت تحرص على تلقين الطلاب العلوم الإسلامية، وتعويدهم على أداء الواجبات، والبعد عن المحرمات، ولكنها كانت تسلك في التربية وفي أساليب التدريس أسوأ السبل[١].

فكانت هناك طريقتان في التعليم تختلف كل واحدة منهما عن الأخرى في المناهج والأسلوب، ولكل منهما مزايا وعيوب، وقد كان علي الطنطاوي من أول من جمع بين الطريقتين في تعليمه، فنال مزايا الطريقتين!.

لذلك يقول: «مشيت في دراستي من أول يوم في الطريقتين معا... طريقة المشايخ، وهي على الأسلوب الأزهري القديم، وطريقة المدارس

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٥/ ٢٥٦.

النظاميـة التي سلكتها من أدنى الابتدائيـة إلى أعلى الجامعة، وأخذت من الاثنتين خير ما وجدته فيهما، ولكن الذي كان أجدى علي وأنفع لي منهما، أو هو في النفع مثلهما هو المطالعة»[١].

أمـا الجانب الأدبي في دمشق: فقد كان مصابا بالركود والخمول، فهو أشبه ما يكون بالمعدوم. والحياة الأدبية في الشام كانت أحوج شيء إلى المداواة والعلاج؛ إذ كان في الشام حياة أدبية لها وجود، ولها آثار يستطيـع الناقد أن يصفهـا وأن يتحدث عنها، وإن كان الشك في وجود هـذه الحياة موجودا، حيث لا يستطيع الناقد أن يجزم بوجودها؛ لأنه لا يـرى علامة من علامات الحياة في أدباء الشام وأدبها، كما لا يستطيع أن يجزم بنفيها؛ لأن في دمشق أدباء كبارا معروفين؛ ولأن دمشق ـ كما يعلم الناس جميعا ـ عاصمة من عواصم البيان العربي»[٢].

ويـرى الطنطاوي أن أهم أسباب الركـود الأدبي في دمشق ضعف همـة الأدبـاء، بالإضافة إلى أسبـاب أخرى منها: عـدم وجود مجلات أدبيـة سوى مجلة صغيـرة اسمها (الطليعة) ومع ذلـك كان منحاها لا يرضـاه كثيـر من الناس مع عـدم عناية الجرائد اليوميـة بالأدب، فلا تجد لـه صفحات مخصصـة ولا دائمة، مع قلة وجـود الناشرين؛ لقلة إقبال القراء على شراء الكتب والمؤلفات، بالإضافة إلى عجز كثير من المدرسين عـن أداء مهمة التثقيف الأدبي المطلوب، الذي يساعد على

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١٦٢.

(٢) فكر ومباحث ـ علي الطنطاوي، ص١٦٥، ط٣، دار المنارة ـ جدة ١٩٩٠م.

اكتشاف المواهب الأدبية، وشحذ هممها نحو التأليف والإبداع[١].

وأضاف الطنطاوي إلى تلك الأسباب أسبابا أخرى لا تقل أهمية عنها فقال: «وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي وانقطاع سبيل التأليف: هو فقدان التشجيع، وذلك الاحتكار العلمي الذي قتل كثيرا من النفوس المستعدة للعلم، وخنق كثيرا من العبقريات المتهيئة للظهور. فقد كان العلم في الشام مقصورا يومئذ على بيوت معروفة لا يتعداها، ولا يجوز أن يتعداها...»[٢].

ثم أيد هذا القول بأمثلة مما سمعه ورآه.

ويبدو مما سبق أن الطنطاوي كان يريد نشاطا أدبيا واسع النطاق ومتعدد الألوان والأجناس، فالآثار الأدبية آنذاك تنحصر - كما قال - في فئتين من فنون الأدب هما: القصة التاريخية، والدراسة التحليلية. أما سائر فنون الأدب كالقصة التمثيلية، والأقصوصة، والصور الوصفية، والمذاكرات الأدبية، والتأملات الفلسفية والشعرية، والدواوين القيمة، والخطب البليغة، وغيرها من فنون الأدب لا يكاد يوجد لأدباء دمشق فيها أثر يذكر..[٣].

على أن هذه الصورة للحياة الأدبية في دمشق لم تدم قتامتها تلك، فقد كانت هناك أعمال أدبية ووثبات شعرية وفكرية نمت وترعرعت في ظل النهضة الحديثة.

---

(١) فكر ومباحث - ص١٦٦ وما بعدها.

(٢) السابق ١٢٨.

(٣) فكر ومباحث - ص١٦٦.

فـإذا كان عهـد الأتـراك الاتحادييـن عهدا مظلما؛ حيـث حاولوا جاهديـن تتريك اللغة العربيـة والقضاء على كل نهضـة، فإنه لما زال حكمهم وقامت الثورة سنة ١٩١٦م انقشعت غمامة التخلف والركود، كما يوضحها قوله: «... ملأ الأفق نور الفجر، ونشرت رسائل وكتب، وألقيت خطـب ومحاضرات، وكان النـادي العربي... وعرفتـا لأول مرة أن في الدنيا أدبا عربيا، وشعرا عربيا، وخطباء يخطبون في غير المساجد... ومـرت أيام ودفن الاستقـلال الوليد في وادي ميسلـون، ولكن النهضة بقيـت عائشة، ولبثـت تسير قدما حتى أثمرت «مجلـة الرابطة الأدبية» التي صدر العدد الأول منها في أيلول١٩٢١م»[١].

كمـا قامت علـى إثر ذلك ـ أيضًـا ـ نهضة المشايـخ سنة ١٣٤٣هـ، التي كانت تهدف إلى إخراج الأولاد من المدارس الحكومية، ولا يتحقق ذلـك إلا بفتـح مدارس تغني عنهـا، فلذلك «أنشئـت الجمعية الغراء»، وقـد كانت أول الأمر بإشراف الشيخين اللذين قاما بهذه النهضة معا، وهما: الشيخ علي الدقر، والشيخ هاشم الخطيب[٢].

فأنشـأا عددًا مـن المدارس الأهلية، وقامـا بوضع المناهج وجلب المدرسيـن لها، وأثمرت هـذه المدارس خيرًا كثيـرًا، وخرّجت علماء، وأحيا الله بها أرض حوران والبلقاء والأردن.

---

(١) من حديث النفس ـ علي الطنطاوي ص١٣٧، ط٣، دار المنارة ـ جدة ١٩٩٨م.

(٢) علـي الدقر: عالم دمشقي بلغ منزلة عظيمة فـي قلوب الناس والعلماء (رجال من التاريخ ـ علي الطنطـاوي ١/١٤٠)، هاشم بن أحمد عبد الواحد بـن هاشم الأسدي، أبو طاهر الحلبي الخطيب ولي خطابة حلب (معجم الأعلام ص٩٠٨).

وإن كان بها من المثالب ما جعلها قاصرة على كثير من المظهر وراء قليل من الجوهر، معنية بأمور من فروع الفروع، لا بتدعيم الأسس وتثبيت الأصول، كما أمر الشرع وصنع الرسول ﷺ[(١)].

ولا ينسى في هذا الصدد دور «المجمع العلمي» وأثره في النهضة الثقافية، فهو أقدم المجامع العربية، أسسه الأستاذ (محمد كرد علي)[(٢)] سنة ١٩٢٠م، وبدل اسمه أيام الوحدة مع مصر فسمي مجمع اللغة العربية[(٣)].

وقد كان هذا المجمع مصدر إشعاع ثقافي ينهل منه رواده من الخاصة وطلبة العلم...، وكان منبره مصدرا من مصادر الثقافة، ومدرسة من مدارس العلم.

وكان من أثر الحركة العلمية والثقافية لهذا المجمع - بجانب الأبحاث والمناقشات والخطب والمحاضرات - أن ساهم فريق من أعضائه في تعريب المصطلحات الطبية الأجنبية، وبذلك يكون قد أسدى المجمع العلمي إلى العربية خيرا كثيرا لم يستطع أحد إلى الآن على كثرة المؤسسات وعظم النفقات أن يقوم بمثله[(٤)].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/١٨٥ وما بعدها.

(٢) محمد كرد علي: رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة، وأحد كبار الكتاب (معجم الأعلام ص٧٣١).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ١٦.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي ٢/٦٣،٦٤.

ويؤخذ من هذا أنه كانت هناك حركة أدبية ونشاط ثقافي في سوريا، لكنه كان دون المستوى المنشود إذا قورن بالنشاط الأدبي والثقافي في مصر آنذاك، مما جعل الطنطاوي يصفه بالبطء والركود، وإن كان كثير من أدباء الشام وناشريها قد أسهموا مساهمة فاعلة في إذكاء الحركة الثقافية والأدبية في مصر وتنشيطها.

وما عرف منهم إلا قليل ممن عاشوا فيها، أو كتبوا في صحفها أمثال محمد كرد علي، والمغربي، (ورفيق العظم)[١]. (ورشيد رضا)[٢] و(شكيب أرسلان)[٣]، (ومحب الدين الخطيب)[٤] ثم خير الدين الزركلي، و(عادل زعيتر)[٥]، و(إسعاف النشاشيبي)[٦]، وصاحب جريدة الشورى (محمد علي الطاهر)[٧].

---

(١) رفيق بك بن محمود بن خليل العظم، عالم باحث، من رجال النهضة السورية ١٢٨٤-١٣٤٣هـ- ١٨٦٧- ١٩٢٥م (معجم الأعلام ٢٧٢).

(٢) محمد رشيد بن علي رضا، بغدادي الأصل، حسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، من الكتاب العلماء، ١٢٨٢- ١٣٥٤هـ ١٨٦٥- ١٩٣٥م (معجم الأعلام ٧٠٧).

(٣) شكيب بن محمود بن يونس أرسلان من سلالة التنوخيين، ملوك الحيرة، عالم بالأدب والسياسة، نعت بأمير البيان،١٢٨٦ - ١٣٦٦هـ- ١٨٦٩ - ١٩٤٦م (معجم الأعلام ٣٣٧).

(٤) محب الدين بن أبي الفتح محمد بن عبد القادر بن صالح الخطيب، من كبار الكتاب الإسلاميين ١٣٠٣- ١٣٨٩هـ- ١٨٨٦ - ١٩٦٩م (معجم الأعلام٦٥٢) وهو خال الشيخ علي الطنطاوي.

(٥) عادل بن عمر بن حسن زعيتر، حقوقي من أكابر المترجمين عن الفرنسية ١٣١٢-١٣٧٧هـ- ١٨٩٥ - ١٩٥٧م (معجم الأعلام ٣٧٥).

(٦) محمد إسعاف النشاشيبي، أبو الفضل، أديب باحث من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٠٢ - ١٣٦٧هـ- ١٨٨٥ - ١٩٤٨م (معجم الأعلام ٦٧٨).

(٧) محمد بن علي الطاهر، صحفي فلسطيني ١٣١٢ - ١٣٩٤هـ- ١٨٩٤ - ١٩٧٤م (معجم الأعلام ٧٦٤).

كما كانت أكثر الصحف يملكها ناس من نصارى الشام، كالأهرام، والمقطـم، والمقتطـف، والهلال، حتـى أنشأ الشيخ (علـي يوسف)[١] جريدة «المؤيد» (ومصطفى كامل)[٢] جريدة «اللواء».

وكانـت أكثـر دور النشـر لشاميـين تمصروا، كدار الهـلال، ودار الخانجـي، والبابـي الحلبـي، اللتين نشرتـا من المخطوطـات ما يملأ مكتبـة كاملة، ثم الشيخ (منير الدمشقـي)[٣] وحسام الدين القدسي، وقبلهما دار المنار، والمطبعة السلفية لمحب الدين الخطيب[٤]...

ولعـل ما أغرى هـؤلاء وغيرهم بالنزوح إلى مصر؛ دورها في تبني المواهـب، «فهي كالميدان المنور من أحب أن يرى مكانه ذهب إليها أو نشر أثره فيها»[٥].

أما بالنسبة للإبداع الشعري فقد نبغ في دمشق في العصر الحديث كوكبة من الشعراء المجيدين كان لهم أثر في دفع الشعب السوري نحو التحـرر والجهاد، ورفـع معنوياته وبث الحماسة في قلبـه بإحياء تراثه الإسلامي، وتذكيره بتاريخه وبطولاته وسير عظائمه.

---

(١) علي بن أحمد بن يوسف، كاتب من أكابر رجال الصحافة في الديار المصرية صاحب «المؤيد» ١٢٨٠ ـ ١٣٣١هـ ـ ١٨٦٣ ـ ١٩١٣م (معجم الأعلام ٨٦٩).

(٢) مصطفى كامل (باشا) بن علي محمد، نابغة مصر في عصره، وأحد مؤسسي النهضة الوطنية ١٢٩١ ـ ١٣٦٢هـ ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م (معجم الأعلام ٨٤٣).

(٣) منيـر أبـو محمد بن عبده آغـا النقلي الدمشقي، صاحـب دار الطباعة المنيريـة، ت ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م (معجم الأعلام ٨٦٩).

(٤) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٩.

(٥) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٩، ٣٠.

ومـن هذا يؤكد أحد الباحثين[١] على دور هؤلاء الشعراء، وأثرهم في مجتمعهم السـوري آنذاك، وتلبيتهم لحاجته انطلاقـا من اتجاه إسلامي شامل وأصيل بقوله: «... وهكذا كان الاتجاه الإسلامي في سورية بملامحه الأدبية ومناهجه الثقافية ومواكبته لقضايا التحرر في البلاد رائدا للكثير من الشعراء في سورية...حيث لبّى كثير من الشعراء المحدثين في سوريا نـداء الإسلام، فعكسـوا منه لوحات قـد تنوعت تنوع الحيـاة، فاستلهموا السيـرة النبوية والتاريخ الإسلامي، متناولين وقائع السيرة وما ضمت من شمائـل النبي ﷺ والتجـارب الإيمانية التي رادها، ومن ثـم مستعرضين بطولات عظماء الإسلام وومضات من الحضارة الإسلامية.

ومـع ذلك لم يغفلـوا قضايا العصـر، فلقد كانـت لقضايا الحياة المعاصـرة في ضوء الإسـلام النصيب الأوفى من التنـاول الفني عند شعرائنا، فتغنوا بمعاني الوحدة في آفاقها الإسلامية داعين إلى ترجمة هذه الآفاق والمعاني إلى واقع ناهض حي[٢].

وبعد: فهذه لمحات من الحياة الثقافية والأدبية في دمشق، عكست غلبـة التوجه الإسلامي على هذا النشـاط المتمثل في نهضة المشايخ، ومحاضرات المجمع العلمي، ودروس المسجد الأموي، ودروس المشايخ والعلمـاء، وبعض الصحـف والمجـلات، إلـى جانب بعض المؤلفات والدواوين القليلة، والتي عملت بدورها على تنمية اتجاه علي الطنطاوي الإسلامي وثرائه وعمقه.

---

(١) محمد عادل الهاشمي في كتابه (أثر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا).

(٢) أثـر الإسلام في الشعر الحديث في سوريا. محمـد عادل الهاشمي ص٤٣،٤٤، ط١ دار المنار، الأردن ١٩٨٦م.

الطنطاوي ومجتمعه الصغير

الطنطاوي في بيته:

نشأ الطنطاوي في جو علمي من أسرة علمية، فوالده الشيخ مصطفى الطنطاوي كان في الطبقة الأولى من فقهاء الشام، وكان يغشى بيته العلماء فيتحدثون ويتدارسون، فقاده هذا الجو، وما لمسه فيه من إجلال وتقدير لأبيه من تلامذته وزملائه إلى حب العلم ومطالعة الكتب التي كانت متوافرة في مكتبة أبيه الذي كان مولعا باقتنائها(١).

الطنطاوي في دراسته وتلقيه:

كان أول تلقي الطنطاوي للدراسة النظامية بدخول المدرسة الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالبا في المدرسة التجارية التي كان أبوه مديرا لها إلى سنة ١٩١٨م... ثم كانت الثانوية بمكتب عنبر «والذي نال منه البكالوريا (الثانوية العامة) سنة ١٩٢٨م...، وبعد ذلك جاء إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، ولكنه لم يتم السنة الأولى... حتى عاد إلى دمشق في السنة اللاحقة ١٩٢٩م،

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/٥، ١٦٠/٢٧٠، صور وخواطر، ص١٤٦.

فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣م[١]... ومع هذه الدراسة النظامية التي أتاحت له الاطلاع على العلوم الحديثة، كان يقرأ على المشايخ ويتلقى منهم على الطريقة الأزهرية القديمة، حتى إنه عدّ من كبار العلماء الذين أخذ عنهم - في كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» ما يزيد عن أربعين عالما في شتى المعارف العربية والشرعية، ولو أسعفته الذاكرة لعد منهم ما يزيد على المائة...[٢].

هوايته:

كانت هواية الطنطاوي الأولى المطالعة التي أكسبته ثقافة واسعة، حيث كان يقضي معظم أوقاته بين الكتب في القراءة والاطلاع حتى قال عن ذلك: «فأنا اليوم وأنا بالأمس كما كنت في الصغر أمضي يومي أكثره في الدار أقرأ، وربما مر علي يوم أقرأ فيه ثلاثمائة صفحة»[٣].

من تأثر بهم الطنطاوي:

لقد ترددت في مقالات الطنطاوي أسماء كثيرة لرجال - تركوا فيه أثرا - عرفانا بفضلهم، وتقديرا لجهدهم، من أبرزهم ثلاثة كانوا من مدرسيه في مكتب عنبر، وهم: «(الشيخ عبد الرحمن سلام)[٤]،

---

(١) علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء. مجاهد ديرانية ص ١١،١٢ط١ دار القلم، دمشق ٢٠٠١م.

(٢) تعريف عام بدين الإسلام. علي الطنطاوي هامش ص٥،٦ ط٣ دار البشير. طنطا.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٦٢.

(٤) عبد الرحمن سلام بن جرجس الصفدي، أديب عالم باللغة، شاعر، من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ١٢٨٨ - ١٣٦٠هـ ١٨٧١ - ١٩٤١م. (معجم الأعلام ٣٩٥،٣٩٦.)

و(الشيخ عبدالقادر المبارك)[١] و(الأستاذ سليم الجندي)[٢][٣].

وكان من أبرز الذين اتصل بهم في الحياة العملية، ووجدنا لهم فيه أثرا بينا خاله الأستاذ محب الدين الخطيب «من خلال عمله معه في مجلتي الفتح، والزهراء»، و(الأستاذ أحمد حسن الزيات)[٤] من خلال عمله معه في مجلة الرسالة[٥]، و(الأستاذ معروف الأرناؤوط)[٦] الذي عمل معه في جريدة فتى العرب[٧]، وكذا (الأستاذ عارف النكدي)[٨] الذي عمل في جريدة الأيام[٩]، والشيخ صلاح الدين الزعيم الذي كان يعمل مراقبا للطلاب في الكلية الشرعية في بيروت التي كان الطنطاوي مدرسا بها سنة ١٩٣٧م[١٠].

---

(١) عبد القادر بن محمد بن محمد المبارك الجزائري الدمشقي، أديب، غزير العلم بمفردات اللغة، جزائري الأصل، مولده ووفاته في دمشق ١٣٠٤ ـ ١٣٦٤هـ ـ ١٨٨٧ـ ١٩٤٥م (معجم الأعلام ٤٢٧).

(٢) محمد سليم بن محمد تقي الدين ابن مفتي المعرة، محمد سليم الجندي العباسي، شاعر، مدرس، عالم بالأدب، له اشتغال بالتاريخ، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٢٩٨ ـ ١٣٧٥هـ ١٨٨١ ـ ١٩٥٥م (معجم الأعلام ٧٤١).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٥٤، من حديث النفس، علي الطنطاوي ١٣٨.

(٤) أحمد حسن الزيات، صاحب الرسالة، من كبار الكتاب ١٣٠٢ ـ١٣٨٨هـ ـ ١٨٨٥ ـ ١٩٦٨م. (معجم الأعلام ٣٦).

(٥) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٥٣.

(٦) معروف بن أحمد الأرناؤوط، كاتب صحفي، من أعضاء المجمع العلمي بدمشق ١٣١٠ ـ ١٣٦٧هـ ١٨٩٣ ـ ١٩٤٨م. (معجم الأعلام، ٨٥٢).

(٧) ذكريات علي الطنطاوي ٢/ ١٢، ٧٧.

(٨) عارف بن أمين سعيد النكدي، من رجال القضاء والإدارة ١٣٠٤ ـ ١٣٩٥هـ ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٥٧م. (معجم الأعلام ٣٧٥).

(٩) ذكريات علي الطنطاوي، ٢/ ١٢.

(١٠) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٥١.

أعماله:

عاش الطنطاوي مدللا في ظل أبيه، فلما ضاق بهم الحال بعد وفاة والده بدأ رحلته مع العمل والسعي والكسب، وكان عمره وقتئذ ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض بأعباء أسرة فيها أم وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم. فعمل محاسبا ثم اشتغل بالتجارة، ثم عمل مدرسا، ثم التحق بالقضاء فعمل قاضيا منذ سنة ١٩٤١م، وظل ينتقل بين محاكم دمشق حتى صار قاضيها الممتاز، والمدة التي قضاها الطنطاوي قاضيا عمليا من سنة ١٩٤١م حتى قدم إلى المملكة العربية السعودية معلما في الكليات والمعاهد سنة ١٩٦٣م، أي نحوا من ثلاث وعشرين سنة، ولكنه استمر قاضيا رسميا حتى صدر قرار بتسريحه مع عدد من القضاة الذين لا يسايرون العهد الاشتراكي في الشام؛ وذلك سنة ١٩٦٦م، وكان في أثناء ذلك كله يعمل بالخطابة والكتابة في الصحف والمجلات والتأليف وتقديم البرامج المرئية والمسموعة[١].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٨٧، علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء ص١٦،٢٢.

صفات الطنطاوي:

للطنطاوي صفات كثيرة من أبرزها:

الانطواء وحب العزلة:

صفة سيطرت عليه وظلت ملازمة له، فهو منذ صغره تعود على الوحدة، فلم يلعب يوماً مع الأولاد، ولا زار أحداً من أقرانه، وإنما كان يعيش وحده يأنس بالكتاب ويتسلى بالقراءة...[١] فحفظ ذلك عليه وقته، وبارك في عمله وجهده، حتى ترك لنا هذه الأعمال الكبيرة والآثار العظيمة، التي دلت على أنه مع وحدته، كان مهتما بأمته، واعيا لهدفه، محققا لرسالته.

سهل العريكة يبغض التعصب:

كان الطنطاوي - كما وصفه الكثيرون - سهل العريكة، لا يتعصب لرأيه إن رأى الحق في جانب غيره، حتى لقد أعلن عن هذا في كثير من مقالاته، فكان بعد أي اقتراح أو فتوى تكون له فيها رؤية خاصة، يقول: «وشيء آخر رأي لي يبدو لكم إذا سمعتموه أول مرة غريبا، ففكروا فيه ولا تردوه بادي الرأي، ثم إذا رأيتموه بعد الفكر باطلا، ورددتم عليَّ بالدليل شكرت لكم ورجعت عن رأيي، وثقوا أن أهون شيء عليَّ أن أرجع عن الخطأ إذا تبين لي»[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ٣٧.

(٢) من نفحات الحرم. علي الطنطاوي ص٥١، ط٣، دار المنارة، جدة ١٩٩٧م.

كما كان يكره التشدد والتعصب، فكان لذلك ينهج منهج الوسطية، وكان يرشد الشباب إلى الكتب التي تهدف إلى ذلك[١].

ولأن علي الطنطاوي كان أديبا اجتماعيا وقاضيا شرعيا ردحا من الزمـن، فقد وعى وأدرك ومارس الإسلام على أنه دين سماحة ويسر، وليس دين غضب أو تضييق على الناس[٢].

الفكاهة والمرح:

ممـا عرف به الطنطـاوي الفكاهة والمرح، ويلمـس ذلك واضحا فـي بعض مؤلفاتـه، فكثيرا مـا كان يسـوق الطرفة التي تثيـر البهجة وترسـم الابتسامة على الوجه، وكذا كان في مجالسه وأحاديثه المرئية والمسموعة، فقد كان يتخلل أحاديثه كثير من الطرائف والحكايات من التاريخ والمجتمع والفن والقضاء والأسفار والأدب...

«كان يقص الحكاية الطريفة فيضحك لها ببراءة الأطفال، وكان يسرد الحكايـة الحزينة فيبكي لها بكاء الخاشعين..، كان ـ رحمه الله ـ حاضر النكتة، سريع البديهة، قوي البنيان»[٣].

---

(١) «جريـدة الشعـب» الشيخ علـي الطنطاوي أديب الفقهـاء وفقيه الأدباء، د/يوسـف القرضاوي، ص١٣، عدد٢/يوليو ١٩٩٩م.

(٢) المجلـة العربيـة «الطنطاوي في المكان الـذي لا يشغله غيره» علي العميـر، ص٩٣، عدد ٢٦٧، السنة٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

(٣) مجلـة هاجـر «السابقون إلى الدار الآخرة» أنور عبد المجيـد الجبرتي، ص١٧، عدد ٥٠، السنة العاشرة، ١٥ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

أحب الناس فيه طلاقة وجهه، والابتسامة التي لا تغيب عن محياه الجميل، وفكره العطوف الرحيم، البعيد عن التجهم والتعقيد[١].

الثقة بالنفس:

كان الطنطاوي أبي النفس، يعتز بها ويثق فيها، ويقدر شأنها وطموحها، فكان لذلك يكثر من الحديث عنها بيانا لحقها، وتقديرا لجهدها وسعيها الذي يستحق التقدير والإشادة، لا فخرا ولا منّاً، حتى صرح بهذا في قوله: «.. وكيف أني كنت من عشر سنين أقود طلاب دمشق كلهم، وأغامر بهم في ميادين السياسة، وأني لو شئت لكنت نائبا من زمن طويل! إن الناس لم ينسوا ذلك، فكيف أنساه أنا!؟ إنهم يعلمون أن في قميصي خطيباً ما يقوم له أحد في باب الارتجال والإثارة، وإيقاظ الهمم وصب الحمم، ولكن من الناس من يعقل الحسد ألسنتهم عن شهادة الحق - أستغفر الله - فما أحب الفخر ولكني اضطررت فقلت! وهل أسكت إذا سكت الناس عن بيان حقي!؟»[٢].

لقد ثبت الطنطاوي على مبادئه وفكره، فلم تغيره المحن، ولم تغره المنح، حتى قال: «إن أول كتاب صغير لي كان سنة ١٣٤٨هـ ما قلته فيه هو الذي قلته في آخر كتاب أعيد طبعه لي سنة ١٤٠٦هـ وإن تبدل مني شيء فهو الأسلوب»[٣].

---

(١) المجلة العربية «الطنطاوي في المكان الذي لا يشغله غيره» علي العمير، ص٩٣، عدد ٢٦٧، السنة٢٤، ربيع الآخر ١٤٢٠هـ/أغسطس ١٩٩٩م.

(٢) من حديث النفس، علي الطنطاوي ص٩١.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ١/١٤٠.

الطموح والنشاط:

إذا اتفق للنفس الطموحة النشاط الواسع والسعي الدائم تحقق لها ما تريد جريا مع الأسباب على الأغلب.

وقد كان الطنطاوي طموحا نشيطا، فتحقق له ما أراد. يحدثنا عن طموحه فيقول: «طلبت المجد الأدبي، وسعيت له سعيه، وأذهبت له في المطالعة حدة بصري، وملأت له ساعات عمري.

وكنت أرجو أن أكون خطيبا يهز المنابر، وكاتبا يمشي بأثره البريد، وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب، فلما نلته أو نلت بعضه زهدت فيه...»[١].

الجرأة والشجاعة:

من أبرز صفات الطنطاوي الجرأة في الحق، والشجاعة في مواجهة الباطل حتى سبب ذلك له كثيرا من المتاعب.

فكان في شبابه يقود المظاهرات، ويعلم الطلاب أناشيد البطولة لمقاومة الفرنسيين، ويعلمهم الإضراب عن الصفوف، والخروج إلى الشوارع، ورمي الحجارة على الجنود المتمركزين وراء الرشاشات وداخل المصفحات على مفارق الطرق[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢١١.

(٢) مجلة «فجر الإسلام» من مقالة مات رجل العصر علي الطنطاوي. زهير الشاويش ص٢٢، عدد ٢١.

وكان صريحــا يقول الحق كما يعتقده، لا يخاف لومة لائم، ولا نقمة ظالم. ومواقفه في ذلك كثيرة[١].

الصدق والصراحة:

مــن أبــرز صفــات الطنطاوي الصــدق والصراحــة؛ لأن من كان جريئــاً شجاعــاً لا يكذب، وقد كان الكذب وإخــلاف الوعد أبغض شيء عنــد الطنطاوي؛ لذلك كان يقول: «وأنــا رجل متوحد منفرد لا أستطيع أن أوغل في مخالطة الناس؛ لأني لا أكذب ولا أحتمل كذبا من أحد، ولا أخلف الوعد، ولا أصبر على إخلاف المواعيد»[٢].

ويؤكـد أحد أحفاده ذلك بقوله عنه: «وقد عرفته منذ وعيت قرابة أربعين عاما لا أكاد أذكره أبدا نكث وعدا، أو أخلف موعدا»[٣].

وممــا اتصف به الطنطاوي صدقه مع نفسه، والتزامه بفكره. أقر بمروءته ونخوته وفضله كل من عرفه، كما كان الطنطاوي سلفيا بطبعه وعمله، محاربا للبدع والتعصب والخرافة[٤].

---

(١) جريـدة الشعـب «الشيخ علـي الطنطاوي أديب الفقهـاء وفقيه الأدباء»، د/يوسـف القرضاوي، ص١٣، عدد٢/يوليو ١٩٩٩م.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٦٨/٢.

(٣) علي الطنطاوي فقيه الأدباء... مجاهد ديرانية، ص٣٤.

(٤) مجلـة «فجـر الإسلام» مـن مقالة مات رجل العصـر علي الطنطاوي، زهيـر الشاويش، ص٣٢ عدد ٢١.

وقـد بلغ بـه الوضوح والصراحة مع نفسه مـا حكاه في كتابه «من حديث النفس» الذي كشف فيه عن خواطره بجرأة وصراحة بالغة[١].

الرحمة ورقة القلب:

لقـد كان الطنطـاوي ـ رحمه الله تعالى ـ مع حـدة مزاجه، وسرعة غضبـه عطوفا حنونا، رقيق القلب؛ لذلـك كان يسلك في تربية أطفاله وتوجيههـم طرقـا عجيبة، أسهمـت في بنائهـم فكريا وسلوكيـا، بناء إسلاميـا قويمـا على نحو ما ذكرتـه إحدى حفيداته فـي كتابها الرائع (هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي).

والتي تقول: «ما رأيت والدا يحب بناته حب جدي لبناته، أو يرعاهن كما رعاهن، وما قابلت عاطفة أبوية كتلك التي يكنها لهن»[٢].

هـذا الحـب الشديـد لبناتـه دفعـه إلى توجيـه أحفاده إلـى البر بأمهاتهـن، وإقناعهـم بوجوب طاعتهـن وخاصة عندمـا يغضبون من توجيهاتهن المستمرة وتنبيهاتهن الكثيرة تقول:

«... كان جدي يتعاطف بشدة معنا، فيسمعنا ويجتهد في فهمنا، ثم يؤكد أنه لو كان مكاننا لشعر نفس الشعور ولعانى نفس الألم؛ لأنه لا يرى إلا رغباتـه، ولا يشعر إلا بآلامه، فماذا لو نظرنا إلى القضية كما تراها أمهاتنـا؟ إذا لتغير الأمر!. وماذا لو علمنـا حق أمهاتنا علينا!؟ وكان لا

---

(١) عابدة المؤيد العظم، ط دار المنارة ـ جدة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي. عابدة المؤيد العظم، ص٦١.

يمـل هذا الكلام، ولا يسأم مـن إعادته على مسامعنـا وتذكيرنا به في كل حين وبكل أسلوب. فتارة يروي لنا الأحاديث الشريفة، وأخرى يقص علينـا بأسلوبه الشيق بعضـ قصص الصحابة مـع أمهاتهم، ويحذرنا غضـب اللّه - إن عصينا - في الدنيا قبـل الآخرة، ويرغبنا في ثواب اللّه - إن أطعنـا - والأجـر في الدنيا قبل الآخرة، فالبـر يوفق الإنسان في كل عمل يقوم به، ويجعل دعاءه مستجابا وولده - من بعده - بارا...»[١].

ولـم يكن الطنطاوي ممن يكتفي بالقـول دون الفعل، بل كان قدوة حيـة صادقـة لبناته وأحفاده تزيد مـن اقتناعهم بـه وامتثالهم لقوله، تقـول حفيدته: «... وكانـت لنا أسوة في جدي الذي ما ذكر أمه مرة إلا فاضت عيناه، حتى بعد مرور خمسين سنة على وفاتها، فكنت أخشى أن أفقد أمي كما فقدها هو، فأقضي عمري متحسرة نادمة على إغضابها، وذلـك حملني علـى أن أسعى لأكون بـارة بها البر الـذي يرضيها عني ويرضي عني اللّه»[٢].

وهذا درس تربوي آخر من دروس الطنطاوي تقصه علينا حفيدته، فتقـول: «في أحـد الاجتماعـات العائلية وفـي بيت كنا نتخـذه لقضاء الصيفية.. كان يجتمع الأولاد.. الصبيان والبنات. وكان جدي يتخذ كل أسبـاب الترفيه المباح، ولكنه لا ينسى خـلال ذلك توجيهنا من خلال مـا يطرأ من أحوال.. وفـي إحدى المرات أحضـر ألواحا من الشكولاه

---

(١) هكذا ربانا جدي علي الطنطاوي. عابدة المؤيد العظم، ص٦٢،٦٣.

(٢) السابق، ص٦٤.

الكبيــرة، وكان يأتي بها من لبنان، ثم قطعها وجاء يوزعها علينا بنفسه وأول مــن بدأ به أنا، فاسترعى انتباهي اختلاف الأحجام وبشكل كبير، فقطــع كبيرة، وأخــرى متوسطة، وغيرها صغيرة جــدا! وهو من عادته العدل، فلماذا لم يعدل؟ وأنا أحب الشكولاه، وإذا تركت القطعة الكبيرة سيأخذها فلان، وأنا لا أريده أن يأخذها.. ثم يقضي الوقت وهو يعيرنا بأنــه قد استأثر بها.. كما أنني أحبهــا وأريدها وما دام هو قطعها بهذا الشــكل فإن عليه الــوزر.. وعندما لمحته ينظر إلى جهــة أخرى يبحث عمن يذهب إليه بعدي، اغتنمت الفرصة، وأخذت أكبر قطعة..

لكــن لــم تكن لتفوته تلــك الفعلة فقــد فعلها قصــدا.. فمضى وهو ينظــر إلي نظرة ذات مغزى، وهو يقول لي: لقد استأثرت لنفسك بأكبر قطعــة.. وقد كانت هذه الكلمــات تكفيني لكي لا أقضم منها أي قضمة، بــل لقد استحييــت وخجلت من تلــك الفعلة، بل لقد عافــت نفسي تلك الأكلــة، وجريت إلى الشرفة أتــوارى عن النـاس وعن جدي بالذات، وأنا أتساءل: مــاذا سيقول عني الآن..!؟ أنانية أفضل الذات! ولكني لم أكن كذلك، فلماذا فعلت ذلك أمامه؟ ليتنـي أخذت أصغر قطعة لكنت أكلتها بلــذة، وجرت دموعــي بكثرة. ثم فجــأة فتح الباب ودخــل جدي قائلا: كنــت أعلم بأننــي سأجدك هنا، وكنــت أعلم بأنك لــن تأكلي القطعة، فأنــا أعرفك تمام المعرفة، أنت حساسة وخجولة، وكانت تكفيك نظرة لتفهمــي، وربما لــو كان أحد غيرك لأكل القطعة تــاركا الكلمات جانبا، فلــذة القطعة الكبيــرة أحسن، وقد يقول في نفســه: سوف ينسى جدي هــذا الموقف بعــد دقائق، أو حتى أيام، وما الضيــر في ذلك!؟ أما أنت

فكما عرفتك مرهفة الإحساس تفهمين المراد من نظرة.. وكنت أشيح بوجهي عنه في استحياء، لكنه اقترب قائلا: كلميني فلقد علمتك والجميع بأن نكون صريحين..

- نعم يا جدي أنا مخطئة باختياري أكبر قطعة، ولكنك أخطأت أيضاً!؟

- ويجيب: كيف؟

- لقد أخطأت بتقطيعك الشكولاه بهذه الطريقة، وكان عليك أن تقطعها بشكل متساو..

- نعم أنت محقة يا ابنتي، ولكنني أردت أن أعلمكم درسا عندما قطعتها بهذه الطريقة..

- وأتساءل: كيف؟

- فيقول: انظري من النافذة هنا على اليمين أترين هذا القصر؟

- أجيب باستغراب: نعم، أراه!

- فيكمل: هل عندك مثله؟

- أجيب: لا!

- ثم يدور إلى الناحية الأخرى قائلا: أترين تلك الدور الصغيرة المعمرة من الطين؟

- وباستغراب أسأل: ماذا تقصد يا جدي؟!

- أقصـد بأن الله لا يعطينا في الحياة كل شيء بقسمة متساوية، وهذا امتحـان منـه.. امتحان للغني هـل ينفق على الفقـراء؟ وهل يحمد الله؟ وامتحان للفقير هل يصبر على الفقر ويحمد الله؟!..

هـل النـاس متسـاوون فـي الصحـة؟ بعضهـم أعمـى، وبعضهم مشلـول، وبعضهم لا يرزقـون الأطفال و.. و..، لا يتسـاوون في الشكل، بعضهـم جميل، وبعضهم قبيح،.. وكثير كثير من هذه الأمور، كالذكاء، والامتحـان بالبلاء وغيرها..فالحياة ليس فيهـا قسمة متساوية، وربما يمر الزمان وتتزوجين أنت وأخواتك، فتعيش واحدة في قصر مثل هذا، وتعيش الأخرى فـي بيت صغير مع رجـل فقير، ولكن علينـا ألا ننسى الآخريـن! صدقا أنـت لم تكوني يومـا أنانية، وإلا لكنـت الآن قد أكلت القطعـة ونسيت القصة وذهبت تلعبين، ولما كنت كلمتك تلك الكلمات، ولكن لأنني عرفت فيك الطيبة.

ويقول: كلا، إنها نصيبك، وعليك أن تأكليها كلها وأنت تضحكين، ولا أريد أن يعرف أحد بهذه القصة!!.

وفـي المساء عندما حضـرت كؤوس العصير كانت يدي تمتد إلى أقلها.. عندها نظر إلي جدي وضحكنا معا ضحكة هادئة.. وكان درسا لن أنساه، فمن يومها وأنا آخذ من الأشياء أقلها»[1].

(١) مجلـة «الأدب الإسلامي» مؤلفات جدي ولكـن بقلمي- أروى المؤيد العظم، ص ٥٦،٥٧. العددان ٣٤-٣٥.

وهكـذا كان الطنطاوي ـ رحمه اللّٰه تعالى ـ فـي بيته عطوفا رقيقا، يربـط أطفاله بالديـن، ويوجههـم إلى السلـوك القويم بطـرق عملية ووعظيـة تترسخ في الذهـن، وتترك في النفس أثرا لا يزول، إيمانا منه بأن إصلاح المجتمع الكبير يبدأ بإصلاح البيت الصغير.

وهذه الصفات هي التي جعلت ـ بعد فضل اللّٰه ـ من علي الطنطاوي إنسانـا محبوبا، وداعية مؤثرا، وكاتبا ناجحا، ومحاضرا بارعا، وناقدا مصلحـا منصفا. وهي غاية ما تحتاجه الأمـة فيمن يتصدى لنصحها وإصلاحها بالقلم واللسان، والأخلاق والسلوك.

آثاره ومؤلفاته:

ترك الطنطاوي لنا فيضا ضخما من المؤلفات والآثار، التي طالما كان يفخر بها وحق له ذلك.

وأكثر كتبه مقالات فيها من كل لون ينشده القارئ، معارف تاريخية ودينية وأدبية ووصفية...

فقـد كتب ـ رحمه اللّٰه تعالى ـ في كثيـر من فنون الأدب مع الإجادة والإبداع؛ مما جعله يتبوأ مكانته بين كبار الأدباء في العصر الحديث.

وقد رتبت كتبه حسب تاريخ تأليفها، فكانت على النحو الآتي:

في عام (١٣٤٨هـ) ألف كتابين هما:

١ـ رسائل الإصلاح.

٢ـ بشار بن برد، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٤٩هـ) ألف كتابين هما:

٣ـ رسائل سيف الإسلام.

٤ـ الهيثميات، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٥٣هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٥ـ عمر بن الخطاب (جزآن).

في عام (١٣٥٤هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٦ـ في التحليل الأدبي، نفد ولم يعد طبعه.

في عام (١٣٥٥هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٧ـ كتاب المحفوظات، نفد ولم يعد طبعه.

في عام (١٣٥٨هـ) ألف كتابين هما:

٨ ـ في بلاد العرب.

٩ ـ من التاريخ الإسلامي، نفدا ولم يعد طبعهما.

في عام (١٣٧٨هـ) ألف عدة كتب هي:

١٠ـ مقالات في كلمات.

١١ـ في سبيل الإصلاح.

١٢ـ دمشق...

في عام (١٣٨٠هـ) ألف عدة كتب هي:

١٣ـ بغداد.. ذكريات ومشاهدات.

١٤ـ مع الناس.

١٥ ـ فكر ومباحث.

١٦ـ صور من الشرق في إندونيسيا.

١٧ـ الجامع الأموي.

١٨ـ فصول إسلامية.

١٩ـ هتاف المجد.

٢٠ـ سلسلة حكايات من التاريخ.

في عام (١٣٩٨هـ) علق وراجع كتاب صيد الخاطر.

في عام (١٣٩٩هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٢٢ـ سلسلة أعلام التاريخ.

في عام (١٤٠٠هـ) ألف:

٢٣ـ من نفحات الحرم.

٢٤ـ قصص من الحياة.

في عام (١٤٠١هـ) ألف كتابا واحدا هو:

٢٥ ـ من حديث النفس.

في عام (١٤٠٢هـ) ألف كتابا واحدا:

٢٦ـ صور وخواطر.

في عام (١٤٠٣هـ) ألف كتابين:

٢٧ـ أخبار عمر.

٢٨ـ قصص من التاريخ.

في عام (١٤٠٥هـ) بدأ ينشر ذكرياته:

٢٩ـ ذكريات علي الطنطاوي. في ثمانية أجزاء.

في عام (١٤٠٦هـ) صدر له:

٣٠ـ رجال من التاريخ.

٣١ـ أبو بكر الصديق.

٣٢ـ فتاوى الطنطاوي.

في عام (١٤٠٩هـ) صدر له:

٣٣ـ تعريف عام بدين الإسلام. وهو آخر مؤلفاته وأعظمها أثراً ونفعاً في الناس، وقد طبع أكثر من طبعة، وترجم إلى لغات عالمية عديدة[1].

على أن أكثر هذه المؤلفات كانت عبارة عن مقالات سبق نشرها في مجلات وصحف قام هو بجمعها، فضم منها الأشباه والنظائر، وألف من كل زمرة منها كتابا على نحو ما صنع كبار الأدباء.

(١) مجلة المنهل، قراءة في آثار الشيخ علي الطنطاوي. ص٩٨،٩٩، أحمد بن مسفر بن معجب العتيبي، عدد ٦١، مجلد ٦ رجب١٤٢٠ هـ/ أكتوبر، ديسمبر ١٩٩٩م.

وتجدر الإشارة إلى أن كثيرا من مقالات الطنطاوي مازالت متناثرة بين أوراق الصحف والمجلات في حاجة إلى جمع وتنسيق ونشر، يقوم ببعضه حاليا بعض أحفاده[١]. فجزاهم الله خيراً.

ولـكل هذا الجهد الطيب كثيرا ما أشـاد الطنطاوي بكثرة مؤلفاته وغزارة إنتاجه.

يقـول: اقترح علـي أحد المحبين أن أنشـر المجموعة الكاملة لكل ما كتبـت، فقلت: هيهات! لقد كتبت في جرائد ومجلات ما عندي منها نسخة واحدة.

وقـد طبع لي الآن ما يقارب الأربعين كتابا وأحسب أن الذي ضاع يمـلأ أربعيـن كتابا! أما أحاديثـي في الإذاعة والرائـي فإنها لو جمعت لجاءت في خمسين كتابا! ولكني لا أملك صورا منها، وأكثرها ما كتبتها أصلا. وأسأل الله أن يكتب لي بعض الثواب عليها[٢].

وفاته:

عاشـ الطنطاوي حيـاة طويلة استمرت تسعيـن عاماً كانت حافلة بالجهـد والعطـاء حتى فاضت روحه ـ رحمـه اللّٰه تعالى ـ بعد عشاء يوم الجمعـة الثامن عشر من حزيران ـ يونيه ـ عـام ١٩٩٩م، ودفن في مكة في اليوم اللاحق بعدما صلي عليه في الحرم المكي الشريف[٣].

---

(١) مجاهد ديرانية، راجع هامش ص٣٣ من كتاب ـ علي الطنطاوي فقيه الأدباء..

(٢) ذكريات علي الطنطاوي ٣/ ٢٤٠.

(٣) علي الطنطاوي فقيه الأدباء...مجاهد ديرانية ص٢٩.

المبحث الثاني

مفهوم الأدب الإسلامي

مفهوم الأدب الإسلامي:

قبـل التعرف على مفهوم الأدب الإسلامـي، وعلاقة الأدب بالدين يجدر أن نتعرف على الأدب والدين.

فالأدب له تعريفات عديدة تعرضت لها كتب الأدب والنقد.

وذلـك لأن المفاهيم الأدبية فيها ما يجري في إطار الذوق والرؤية التـي قد تختلـف من أديب لآخر، ومنها ما يخضـع للفكر أو ينبثق عنه، بخلاف المفاهيم العلمية التي قد تنضبط بالحس والتجربة.

ولعـل أقرب تعريف للأدب وأشمله ما قيـل: إنه التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية.

فكلمة «تعبير» تصور طبيعة العمل ونوعه، و«تجربة شعورية» توضح مادة العمل وموضوعه، و«صورة موحية» تبين شرطه وغايته[١].

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب، ص٩، ط٧، دار الشروق ١٩٩٣م.

والديــن منــه ما هو صــادر عن الله الواحــد الخالــق، ومنه ما هو صــادر عن كيان أو كيانــات مخلوقة، فالثاني منه ديــن الوثنيين، ودين الماركسييــن، وديــن الإباحيين، إلى غيــر ذلك مما يصــدره من يريد الهيمنة على النــاس، ويخضعهم لأهوائه سواء كان شاملا أم محدودا. أمــا الدين الصادر عــن الله الواحد الخالق، فله تعريفــات كثيرة منها ما قيل: إنــه وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الدنيا والفرح في الآخرة.

فيطلــق علــى ملة كل نبي بعثــه الله تعالى إلى النــاس، وهو يضاف إلــى الله لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منــه، وإلى الأمة لتدينها به وانقيادها له[1].

وهــذه الملة تتضمن: «عقيــدة شاملة لتنظيم الحيــاة وتفسيرها، وتلبية متوازنة لحاجات النفــس البشرية، ومشعلا يضيء الطريق أمام الناس، ويبلغ بهم غايات السعادة والاستقرار، ووسيلة لتقويم العلاقات العامة والخاصة»[2].

وكل ديــن سماوي خالص مــن تدخل البشر يسمــى: (الإسلام)، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[3].

---

(١) العقيــدة الدينيــة وأهميتها في حيــاة الإنسان، د/ محمود حمدي زقــزوق، صـ ١٧، هدية «مجلة الأزهر» لشهر رجب ١٤١٥هـ.

(٢) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص ١١، ط ٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣م.

(٣) سورة آل عمران من الآية:١٩.

ولإطلاقه ـ تعالى ـ على جميع ديانات أنبيائه السابقين اسم (الإسلام)، أو لوصفه هؤلاء الأنبياء بصفة الإسلام في مثل قوله تعالى في وصف طائفة من أنبيائه عليهم السلام: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١].

وعلى هذا تكون كلمة الدين السماوي مرادفة لكلمة (الإسلام)، فإذا أطلقت كلمة (دين) كان بينها وبين دين الإسلام (عموم وخصوص) توافق من وجه، وتعارض من وجه آخر. ومن هنا يكون علينا لتحديد المفاهيم أن نقرر أن بين «مصطلح الأدب الديني» و«مصطلح الأدب الإسلامي» اتصالا من وجه وانفصالا من وجه، والذي سوف نسير عليه في هذه الدراسة هو أن مصطلح الأدب الديني يعادل الأدب الإسلامي.

علاقة الأدب بالدين:

إن علاقة الدين ـ على إطلاقه ـ بالأدب علاقة تلازم فطري لا يتصور معها انفصال أحدهما عن الآخر، ولا قيام أحدهما دون الآخر حتى في البيئات التي حاول أدباؤها ودارسوها التفلت من رابطة الدين، وصور لهم الوهم كذلك أنهم قد نجحوا في محاولتهم، فإن هؤلاء لم يلبثوا أن تبينوا ـ أو تبين للناقد المنصف ـ أن ذلك كان وهما، وأنهم تفلتوا من عقيدة ليسلموا أنفسهم إلى عقيدة أخرى...[٢].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٣٢.

(٢) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر. د/إبراهيم عوضين، ص٨٢، ط ١ مطبعة السعادة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

فالأديب حتما يصدر في إبداعه عن معتقد امتزج بنفسه مهما كان نوعه سواء شعر بذلك أم لم يشعر. ويبدو ذلك المعتقد جزءا أصيلا من مصادر أدبه مهما حاول إخفاءه.

نشأة الخصومة بين الأدب والدين في أوروبا:

أما من يتوهمون أن بين الأدب والدين خصومة، فقد سرى إليهم هذا الوهم عندما أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى العاشر الميلادي، وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا... لما وقع في الكنيسة من انحراف شائن، وذلك عندما احترفت الكهانة، واحتكرت المعرفة، وتسلطت بالقهر والإرهاب على العلماء والمبدعين، فشردتهم واضطهدتهم وقتلتهم، وأقامت لهم محاكم التفتيش، وصادرت حرية الرأي، وتبنت معارف ما أنزل الله بها من سلطان... كما نشأ عن النقد الكنسي في أوروبا وما أضفاه عليه رجال الكنيسة من زيف وتضليل في محاربة الأدباء الجادين- اصطناع الخصومة بين الأدب والدين، والذي يحاولون أن يقنعونا بها.

هذا النقد الفكري الاعتقادي في أوروبا إنما كان نقدا سخر فيه الناقدون بعض جوانب الدين ليقيسوا العمل الأدبي على ضوئها مستغلين في ذلك رؤيتهم الدينية القائمة على التعصب؛ فأدى هذا الموقف من رجال الدين إلى عداء الأدباء والنقاد والمثقفين الأوروبيين، وظلت الخصومة تمتد والصراع يحتدم إلى أن انفصل العلم والأدب عن الدين ورجاله، وانفصلا في رحلة الحياة.

حتى قرّ في أذهان الكثيرين أن الخصومة بين الأدب والدين خصومة فطرية، وأنهما يمثلان اتجاهين متقابلين[١].

لقد كانت تلك هي علاقة الأدب بالدين من المنظور الأوروبي في إيجاز.

أما عن علاقة الأدب بالدين في المنظور الإسلامي فتختلف اختلافا بينا عن تلك النظرة السابقة له، لأجل الاختلاف بين طبيعة الدين الإسلامي والدين بالمفهوم الغربي، والظروف التي أحاطت بكل منهما.

فالدين عندنا شامل لكل جوانب الحياة، والإسلام ليس دينا فقط يحدد صلة الإنسان بالله، بل هو دين وتشريع وقانون دولي وأخلاقي، وهو يحدد صلة الأفراد بعضهم ببعض، وصلة الأفراد بالدولة.

وهذا ـ طبعاً ـ يختلف عن الدين في المنظور الأوروبي الذي يرى أن الدين هو صلة الإنسان بربه فحسب، ومن هنا أوجدوا فاصلا بين الدين.. والعلم والسياسة والأدب وأنشطة الحياة المختلفة... ومن هنا قالوا: الدين لله والوطن للجميع..[٢].

ويمتاز الإسلام عن غيره من الأديان باعتماده على كتاب ذي

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي.د/ إبراهيم عوضين، ص٥٥ وما بعدها.مطبعة الشناوي ١٩٩٣م.
قيم حضارية في القرآن الكريم، توفيق محمد سبع، ١٥/١، ط دار المنار،القاهرة. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، ص٢١، ط ٢ مؤسسة الشرق ١٩٨٥،عمان/ الأردن.

(٢) فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص ١٣، ٢٦٣، ط ٤ دار المنارة، جدة ١٩٩٠ م..

خصائص فنية وسمات بيانية معجزة، يقدم أفكارا وقيما يتوسل في الدعوة إليها بكل وسائل التأثير والإقناع التي من بينها الفن بكل ألوانه وأسبابه، وفي مقدمتها التعبير الفني بالكلمة[١].

كما يمتاز بأنه لا يعرف تعبير (رجل دين) بالمعنى الشائع لدى الأوروبيين ومن نحا منحاهم، فكل متدين رجل دين، وليس لواحد هيمنة من أي لون على الآخرين باسم الدين.

ومما سبق تتضح طبيعة الاختلاف بين الدين الإسلامي والدين المسيحي بمفهومه الغربي والظروف التي تحيط بكل منهما.

وبناء على ذلك فالعلاقة بين الأدب والدين الإسلامي على وجه أقوى وأعمق وأوضح، وذلك يرجع إلى ما سبق، وإلى أن الدين الإسلامي فوق قيامه على العقيدة التي تتطلبها الفطرة، وتتوازن معها، يعتمد على كتاب ذي خصائص فنية وسمات بيانية معجزة.. تعد النموذج الأدبي الرائد للأديب الإسلامي[٢].

أضف إلى ذلك أن الإسلام دعوة عالمية، والدعوة تكون غالبا باللسان والقلم، وقوام اللسان والقلم هو الأدب[٣].

وبذلك يكون الأدب وسيلة إسلامية للدعوة إلى دين الله الخالص،

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين ص٨٢.

(٢) السابق، د/إبراهيم عوضين، ص ٢٧، ٨٣،٨٧.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي ٨/١٢٤.

وإبـراز قيمـه ومقوماتـه في الصـورة التـي تكشف عن مـدى ارتباطه بالفطرة الإنسانية ومدى حاجة الإنسان إليه[١].

«ومـن هنا يمكن القـول: إن الحقيقـة التي لاشك فيهـا أن علاقة الديـن الإسلامـي بالأدب أعمـق من مجـرد التقاء فـي الموضوعات، أو انعكاسـ فـي الأفكار، وإنما همـا نوعان من أنـواع النشاط الإنساني يلتقيان وإن افترقا في نقطة مهمة هي مصدر كل منهما.

فالديـن «الإسـلام» متمثلا فـي القرآن الكريم مصـدره خارجي، وهـو الحقيقة الإلهية المنزهة عن أي صفة أو تدخل بشري. وأما الأدب فمصـدره مـدد داخلي تظهر آثاره فـي صورة أعمال تخلـد، ويبهر بها الآخـرون أحيانا بدرجـات متفاوتة حين تجمع إلى روعـة البيان صدق الفكرة؛ لتكون قوية التأثير والتوجيه.

وفيما وراء هـذه النقطة بين الإسلام والأدب من حيث المصدر لا يـكاد اللقـاء بينهما ينحصر في مجال شـكل أو موضوع، فالذي لا شك فيـه أن إسلاميـة الأدب تكون فـي شكله كما تكون فـي مضمونه، وأنها لا تظهـر في مواقف الأديـب الحيوي وتصوراته الفكريـة ووعيه الكوني وتلون عاطفته ووجدانه فحسب، بل تتخلل نواحي الصياغة والتعبير في أدبه»[٢].

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٨٥.

(٢) نحـو نظرية لـلأدب الإسلامي، د.محمد أحمـد حمدون، ص١٨ وما بعدهـا، ط ١، دار المنهل. جدة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

ولـم لا.. والأدب والديـن الإسلامي يشتركان فـي المادة، والغاية، والمقومـات. فمـادة الفـن «الأدب» هـي: الحيـاة والنفسـ الإنسانية، ومقوماته هي: الصدق والأصالة الفنية والمضامين السليمة.

ومـادة الديـن: هي الحيـاة والنفسـ الإنسانية، ومقومـات الدين الصـادق المنـزل من عنـد الله هي: الصـدق والأصالة والمثـل العليا التـي تتواءم مع واقع الحياة، وتتطور معهـا، وتشبعها بالسعادة والإخاء والعدالة والحرية...

وغاية الفن: الإمتاع والجمال والإفادة والتحريض على بناء مجتمع أفضل.

وغايـة الدين: لا تخرج عـن إسعاد البشرية واستمتاعها بحياتها، وسيطرة المثل الفاضلة.. والتهيؤ لعالم آخر..عالم أفضل، والتنفير من المظالم والانحرافات، والعمل على هدمها[١].

والإسـلام يحـب الجمـال ويرغـب فيه، ولكـن ليس الجمـال على إطلاقـه، وإنمـا ينشد الجمال القائـم على البناء والإبـداع والتهذيب، ويرفضـ الجمـال القائم على الخـداع والتمويـه وإثـارة الغرائز؛ لأنه حينـذاك سيفقد غايتـه ويخرج عن الإطار الإسلامـي القويم، فيصير وسيلة هدم وتدمير، لا وسيلة بناء وتعمير. وهذا ما يرفضه الإسلام من الفن وغيره، ولا يلتقي معه في شيء.

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص ١٣، ١٤.

وبرغم وضوح تلك العلاقة بين الأدب والدين الإسلامي بما لا يدع مجالا للريب، نجد من يرفض هذه العلاقة، ويدعو إلى فصل الدين عن الأدب، بل عن أنشطة الحياة بعامة!.

ولا شك في أن من يقول بهذا يكون في حقيقته خاضعا للرؤية الغربية، التي ظل الغرب يدعو إليها، حريصا على تأكيدها وترسيخها في الأذهان بكل وسيلة، حتى تحقق لهم ما أرادوا؛ فانخدعت بتلك الرؤية بعض الأذهان، وسيطرت على كثير من العقول.

وذلك لأن الغرب الصليبي في رحلته الاستعمارية المسلحة أراد أن يصاحبها استعمار فكري آخر يعضد مواقفه، ويضمن بقاءه فيها، فكانت أهم وسائله الفكرية إلى ذلك الدعوة إلى فصل الدين عن الحياة، إذ علموا أنه لا سيطرة لهم على تلك الدول الإسلامية إلا إذا أبعدوا الدين عن المعركة، ذلك أن الدين هو الذي يشحذ العزائم، ويحمل أتباعه على عجائب التضحية والفداء.

ومن هنا سعوا بتخطيط حثيث لإضعاف هذا الدين في النفوس، والتقليل من شأنه؛ لإقناعنا بتلك الفكرة ونشرها بيننا.

وكان من تلك المخططات الخبيثة أنهم لما رأوا أنه لا وجه للخلاف بين الأدب والإسلام، ولا وجه لإثارة الخصومة بين الأدباء ورجال الدين؛ لأنه ليس هناك رجال دين في ظل الإسلام على غرار رجال الدين المتسلطين في ظل المسيحية... عملوا على ابتكار ما ينشئ الخصومة بين الأدب والإسلام، مستأنسين في ذلك بما هو

مثار من خصومات في البيئة الأوروبية، فنقلوا قضية الأدب والحرية، والأدب والالتزام، وناصروا في البيئة الإسلامية الدعوة إلى ضرورة تحرر الأديب من كل قيد وعدم التزامه بأي شيء..[١].

وكان من أبرز ما واجهه الأدب في العصر الحديث في إطار الفصل بين الأدب والدين الدعوة إلى قرن الدين دائما بالتخلف والجمود والرجعية، وإظهار المتدينين دائما في صور المتخلفين الجامدين الرجعيين، تمهيدا لرفض كل قديم وكل ما يمت بصلة إلى القديم من عقيدة وفكر ولغة ومقاييس أدبية وأخلاقية تحت شعار العصرية والتحديث.

كما عملوا على ربط حاضر الأمة المتخلف بماضيها مصورين أو متصورين أن سبب التخلف عن ركب الحياة العصرية راجع إلى تمسكها بالتدين وما يتصل به[٢].

وعلى الطريقة نفسها رفعوا من قيمة العقل الذي تخلص به الأوروبيون من ظلام القرون الوسطى إلى نور العلم إلى تلك الحضارة ومنجزاتها الحديثة؛ ليخلصوا من ذلك إلى أن مثل هذا العقل جدير بأن يرسم للإنسان سبيله إلى الحياة الهنيئة السعيدة دون حاجة إلى رسل أو أنبياء يربطونهم بعالم الغيب وما يصدر عنه من شرائع وقوانين، بل إن بعضهم رأى أن يهتبل فرصة هذا الزلزال العنيف الذي أصاب

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٦٤.

(٢) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص ٦٥.

الأمـة العربية، ويستغل الموقف في التهوين من شأن المعجزة القرآنية فـي مجال البيان، دعما لمن نهضـوا للتشكيك في القرآن الكريم ذاته، وقصـدا إلى إبعـاد المسلمين عنه، حتى ينفرط عقدهـم تماما بعد أن تقـرر لديهم أن القرآن الكريم هـو المحور الذي يدور حوله المسلمون، وأنه هـو الوثاق الذي يشدهم جميعا بعضهم إلى بعض في بناء محكم، تتكسـر علـى صلابته وإحكامـه كل محـاولات الغزو، وتضيـع هباء كل محاولات التفريق؛ لأنه يجمعهم دائما على كلمة سواء..!

كمـا بدا ـ كذلك ـ في محاربة اللغة العربيـة محاربة شرسة أخذت أشـكالا مختلفة امتدت أكثر مـن مئة عام، تارة بالهجوم عليها والتقليل من شأنها، وأخرى بالهجوم على المتمسكين بها المدافعين عنها بهدف التخلصـ من هـذه اللغة، وصـرف الأمة عن الاجتمـاع عليها؛ لينفرط عقدها من ناحية؛ وليصبح القرآن الكريم غريبا عنهم، فتنفصل الأمة عن دينها وتاريخها من ناحية أخرى.

ولخطـورة تلـك الدعـوات وأمثالهـا ـ التي كان لا يجتـرئ أحد من أصحابها عن الإعلان المباشر عنها ـ كانت تثار متدثرة بشعارات براقة زائفـة تخفي في طياتهـا الأغراضـ الدنيئة والسمـوم الناقعة؛ ليسهل ابتلاعها والإقبال عليها[١].

ولـذا تشرب بعض أبناء هـذه الأمة تلك الدعـوات، واستماتوا في اعتناقهـا والدفـاع عنها، حتى أصبحوا يمثلون خطـورة عظيمة لم تكن

---

(١) مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر، د/إبراهيم عوضين، ص٦٤ـ٦٧.

لسابقيهم، فهم من أبناء هذه الأمة ودعواتهم تتاح لها الفرص... لخلق أتباع لها يرثونها جيلا بعد جيل.

كما كان من أثر ذلك أن انصرفت طائفة أخرى نحو النقل والأخذ عن الغرب في علومه المستحدثة وخاصة في الفنون... فكتبوا القصة الحديثة والشعر الحديث والمسرحية، وقلدوا عددا من المذاهب الأدبية وعددا من أعلام الأدب هناك.

والعجيب في الأمر أن أدباءنا قد اقتفوا آثار كتاب أوروبا في تجاهلهم للعامل الديني الإيجابي، بل جعلوا الدين شيئا والفن شيئا آخر، وفصلوا بينهما فصلا تاما... حتى نشأ لون جديد من الأدب يشبه في سماته سمات الأدب الأوروبي من إغراق في تصوير بشاعة رجال الدين أو سذاجتهم المفرطة، وأنهم أمثلة للشعوذة، وأنموذجا للسلبية المشينة، وأدب يفخر بالتحلل والانطلاق من إسار الدين ومثله وأخلاقياته، ويعده صورة للتخلف والرجعية، وحربا على حرية الخلق والإبداع[١].

ومع أن هذه الدعوات الغربية ظاهرة البطلان حتى في أوروبا نفسها التي عملت على نشر هذا الوهم وحرصت على ذيوعه واعتناقه، حتى في الوقت الذي كانت تتصاعد فيه الدعوة لفصل الدين عن الأدب في أوروبا كان هناك من كبار الأدباء والنقاد من يدعو إلى مزج القيم والدين بالأدب، وإدخال الدين في أنشطة الحياة[٢].

---

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية، نجيب الكيلاني، ص٢٢ـ ٢٧.

(٢) نحو نظرية للأدب الإسلامي، د.محمد أحمد حمدون، ص ٢٢، وما بعدها. من هنا نعلم، محمد الغزالي، ص٥١، ط ٥. دار الكتب الإسلامية.

ولكن هناك طائفة من أدبائنا لا تسمع إلا إلى تلك الأصوات المنحرفة والدعوات الباطلة والمذاهب الفاسدة المتناقضة وتدعو إليها، لذا وقع كثير من الأدباء في أسر تلك المذاهب الغربية، وأصبح يخوض في بحار الاتجاهات الأدبية التي تتلاطم على الساحة، والتي لا ثبات لها، ولا تتناسب مع أدبنا وطبيعته العربية الإسلامية، مما أدى إلى ضياع كثير من المواهب، ووأد نشاطها الإبداعي تحت بناء لا يفيد ومنهج لا ينفع.

بل إن منهم من أصبح يمثل خطرا حقيقيا بما يشيع في أدبه من تحلل وإباحية، أو شيوعية واشتراكية.

لكل ذلك كان لابد من قيام الأدباء الإسلاميين بالدعوة إلى اتجاه أدبي واضح السمات، مميز الخصائص والأهداف، يقوم على ثوابت تحميه من الذوبان والانمحاء، مع تناسبه مع قيمنا وديننا وطبيعة حياتنا، فكانت الدعوة إلى الأدب الإسلامي وقيام رابطته الأدبية العالمية تلبية لهذا الهدف.

المقصود بالأدب الإسلامي:

لعل أقرب تعريف للأدب الإسلامي في تصوري هو: أنه كل تعبير فني بالكلمة يصدر في إطار التصور الإسلامي للفن والحياة.

لذلك فإن من يرى تخصيص الإسلام بما بعث به محمد ﷺ فيقصر الأدب الإسلامي على ما يصدر عن أتباعه فحسب إنما يضيق

مـن نظرته ويحجر علـى رحابته؛ إذ الإسلام الذي بعث به محمد ﷺ لا يختلف في شيء مـن أصوله وقيمه عن الإسلام الصحيح الذي بعث به سابقـوه من الرسل والأنبياء، والإسـلام الصحيح البعيد عن التحريف والأهواء هو الذي يتفق مع الفطرة الإنسانية السليمة، ومن ثم يرى بعض النقـاد أن كل أدب يصدر عن الفطرة الإنسانية، فيتفق مع الإسلام في قيمه وخصائصه ومنهجـه، فهو أدب إسلامي وإن صدر عن أديب غير مسلم!.



مظاهر الاتجاه الإسلامي في أدب علي الطنطاوي

«الدراسة الفنية»

ليتعرف الدارس على مظاهـر التوجه الإسلامي أو غير الإسلامي فـي أدب مـا، عليه أن يقـف أولا على المواطن التـي يستطيع الناقد أن يبحـث عن تلك المظاهر فيهـا، وقد أشار أستاذنـا الدكتور/ إبراهيم عوضين إلى تلك المواطن في قوله:

«النـاظـر المتأني في العمل الأدبي المستكمـل مقوماته الأساسية، يلاحظ أنه يتكون من مجموعة متجانسة ومتناسقة من العناصر الفنية - تنبض بها العبـارات وتشف عنها - هي التي يتحقق بها العمل الأدبي فـي هيئته المتكاملـة والمتمازجة حتى يبدو بناء فنيـا متوازنا جميلا، يخاطـب فـي الإنسان السـوي كل أبعاد الإنسان المكـرم - من ماديات وروحانيـات وعقليات - على قدر متناسب متلائـم، فيستقبله بعاطفته وشعـوره، كما يستقبلـه بقلبه وعقله؛ ليجد القبـول الشامل لديه، الذي يستحـوذ علـى إعجابـه ورضـاه، دون أن يتملـق فيه بعدا علـى حساب بعد»[١].

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص١٨٣.

«وهذه المقومات – أو العناصر – يمكن إجمالها على وجه التقريب في أربعة عناصر هي – الموضوع، والصيغة، والوجدان، والخيال»[١].

«وإنما كان هذا على وجه التقريب: لأن الموضوع يستتبع بالضرورة العناصر الثلاثة الآتية، لأن الموضوع الفني لا يتصور نشوؤه في نفس الأديب مجردا أو معزولا عن بقية العناصر «فلا يمكن أن يستقيم العمل الأدبي في إنسانيته إلا إذا كان مزيجا من تلك العناصر جميعها»[٢].

فالبحث عن التوجه الديني في أدب الطنطاوي يستلزم التعرف على توجهه الإسلامي في موضوعاته وأفكاره وأسلوبه ووجدانه، وخياله، في فنونه الأدبية المختلفة حتى تتضح الصورة، وتتبين الحقيقة، وذلك – إن شاء الله – سيكون من خلال الفصول الآتية:

* الفصل الأول: مظاهر الاتجاه الإسلامي في موضوعات الطنطاوي وأفكاره.

* الفصل الثاني: مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي.

* الفصل الثالث: مظاهر الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي.

* الفصل الرابع: مظاهر الاتجاه الإسلامي في خيال الطنطاوي.

---

(١) السابق، ص١٨٤.

(٢) السابق، ص٣١٥.

الفصل الأول

مظاهر الاتجاه الإسلامي
في موضوعات الطنطاوي وأفكاره

المقصــود بمظاهــر الاتجاه الإسلامي فــي موضوعات الطنطاوي وأفكاره:

مفهوم مظاهر:

«ظهر الشيء: بالفتح ظهورا: تبين، وأظهرت الشيء بينته[1].

والظهور: بدو الشيء الخفي[2].

والمظهر: مكان الظهور[3].

والظاهرة: هي كل واقعة يمكن إدراكها بالحواس والتجربة[4].

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٥٢٧.

(٢) السابق، ٤/ ٥٢٧.

(٣) المنجد في اللغة والأعلام، فوزي المعلوف ص٤٨٢.

(٤) معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، ص٤٠٠، مكتبة لبنان.

(الاتجاه) واتجه له رأي أي سنح، وهو افتعل، صارت الواو ياء لكسر ما قبلها، وأبدلت منها التاء وأدغمت.

ووجـه النجـم: ما بدا لك منـه. ووجه إليه: ذهـب. والتجاه: الوجه الذي تقصده[١].

وشيء موجه: إذا جعل على جهة واحدة لا يختلف[٢].

وعلـى هـذا فـإن المقصـود بمظاهر الاتجـاه الإسلامي فـي أدب الطنطاوي:

بيان الـدلالات الموضحة لتوجه الطنطاوي ومسـاره الإسلامي في أدبه، وتلمس بواعثها فيه، وسيكون في هذا الفصل -إن شاء الله- من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في خطبه.

المبحث الثاني: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في قصصه.

المبحث الثالث: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه.

المبحث الرابع: موضوعات الطنطاوي وأفكاره في مقالاته.

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٣/ ٥٥٦.

(٢) السابق، ١٣/ ٥٥٨.

المبحث الأول

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في خطبه

ذكر أستاذنا الدكتور/ إبراهيم عوضين أن «الموضوع الأدبي ثمرة تلاقح قوي بين الإنسان مع ما يصادفه في جوانب الحياة الممتدة من أفكار، ومشاهد، ومواقف وأحداث»[١].

وهذا يعني أن الموضوع الأدبي قد يكون واحداً، ولكن تناوله يختلف من أديب لأديب، حيث يتأثر الأديب في تناول الموضوع بتوجهاته الخاصة التي تلفته في الموضوع إلى ما يتناسب مع تلك التوجهات.

أي إن التوجه الإسلامي لا يقتصر على الموضوع الإسلامي فحسب، ولكنه يلازم الأديب مع كل الموضوعات، فعلى الناقد أن يكشف الأسرار التي تدفع كل أديب في رؤيته إلى موضوعه، ومدى تلاؤم موضوعه مع حالته، ثم مدى تلاؤم حالته مع ما يأخذ به نفسه من قيم، وما يستقر عليه من معتقدات، ثم تلاؤم هذا وذلك مع فطرة الإنسان فيه، ومصدر شذوذ الشاذ منها.. إلى آخر كل تلك النظرات الفاحصة الناقدة التي تنتهي بالكشف عن التلاؤم الفكري والوجداني مع الصياغة»[٢].

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٩٩.

(٢) السابق، ص٣٠٣.

والناظر على ضوء ذلك – في موضوعات علي الطنطاوي الخطابية يلاحظ أن توجهه الإسلامي واضح تمام الوضوح فيما أثر من موضوعات خطبه، فحين جعل السياسة موضوع خطبته كان فيها مستجيبا لنزوعه الإسلامي في نقد الحاكم؛ إذ جعل معاييره النقدية لمن يسوس البلاد هي القيم الإسلامية، فعاب عليهم العبث بحياة الناس بعيداً عن شرع الله، حتى شكا صاحب الدين من انتشار المحرمات، وشكا أصحاب الأموال بوار الأسواق، والنهب المعلن، والنصب الظاهر باسم التأميم، وشكا المعلمون والآباء من هزال المناهج، وقلة العلم، وشكا الموظفون والعمال من الغلاء الذي لم يعد يطاق، ونتج عن سوء الحكم اضطرار الناس إلى نبذ تلك الوحدة التي فرضت بين مصر وسوريا، على الرغم من أن الوحدة إحدى المقاصد الإسلامية، لما نشأ عن تلك الوحدة من إشاعة الاستبداد والظلم والفوضى.

ولم يكتف الشيخ الطنطاوي بتشخيص الداء، ولكن بحيوية المسلم انطلق يبسط وسائل العلاج وقواعد البناء.

وحين جعل دعوة الإسلام موضوعه وجدناه يستجيب لتوجهه الديني، فبين خصوصية هذه الدعوة في شمولها ووضوحها، وعرض لمزاياها وجوهرها وغايتها، وأسباب بقائها وصلاحيتها لكل الأزمان، وذلك تثبيتا للمسلم على دينه في زمن طغيان المادية والمذاهب الغربية.

والشيخ في خطبته الوطنية «مساندة الجزائر» يستجيب ـ كذلك ـ لتوجهه الإسلامي؛ إذ جعل محورها مساندة هذا الشعب في مقاومة

المحتل الفرنسي، ناصرا بذلك المظلوم على الظالم، ومعتمدا على الإقناع العقلي، والاستجاشة العاطفية، فكشف عن طرق من التناقض في الحياة الفرنسية، وصور من القهر الذي تنزله بالجزائريين وغيرهم، مستنهضا الهمم لمقاومة هذا العدو الظالم.

وهو كذلك في اجتماعياته، حيث صرح بوجوب ارتكاز الإصلاح الاجتماعي على الدين، واستعرض بعض العيوب الاجتماعية، موضحا تعارضها مع الإسلام وخطرها على البناء الاجتماعي، على الرغم من تزيبها بزي الحضارة والتقدم.

وقد التزم الشيخ بذلك النهج في خطبته التأبينية، حيث يمدح في المتوفى خلقه وعلمه وتدينه.

- كما تتجلى في خطب الطنطاوي قيم أخلاقية واضحة، تنبع من ثقافة إسلامية واسعة، وإدراك واع لمقاصد الشريعة والعقيدة الإسلامية، أراد الطنطاوي من خلالها نقل الناس من مفاسد العادات وانحرافات الأخلاق والسلوك إلى مكارم الأخلاق وكريم الخصال.

فهو داعية يدرك دوره في تثقيف الناس وتصويب أخطائهم الفكرية والأخلاقية والسلوكية على أساس من الدين القويم ومنهجه المستقيم.

فتظهر القيم الخلقية في خطبته «دعوة الإسلام»[١] من خلال حديثه عن الإسلام كدعوة تحمل مقومات البقاء والجمال والكمال.

(١) فصول إسلامية، ص٩ وما بعدها.

بما لها من مصدر قوي ثابت لا تزلزله نوازل الزمان ولا عبث الإنسان؛ لأنها من رب العالمين الذي قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

وبما لها من منهج أخلاقي قويم، يضمن سلامة المجتمع من انحرافات الفكر ومزالق الهوى، فيسمو به إلى إنسانيته وفطرته بعيدا عن غرائز النفس وتسلط الهوى.

وبما لها من منهج تشريعي متكامل يشمل كل جوانب الحياة، ليكفل لها العدالة والأمن و الاستقرار.

وفي خطبته التي ألقاها في تأييد الانفصال، بدت قيم إسلامية كثيرة أفاض في بيانها، كضرورة تغيير المنكر وإحلال المعروف محله، وضرورة قيام كل فرد بواجبه تجاه الآخرين؛ لتسد الثغور وتستقيم الحياة بتكامل الجهود وتكاتف القوى.

كما تبدو تلك القيم في ثورته على الأوضاع السيئة المخالفة للشرع من استبداد وسفه، وسوء تدبير، وعدم تقدير لعواقب الأمور.

وفي دعوته إلى وحدة المسلمين على أساس الدين الخالص، وفي التحذير من عاقبة العصيان، والتخويف من غضب الرحمن لمن تنكب الطريق وضل السبيل الواضح في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩.

وكـذا فـي خطبتـه «لمسانـدة الجزائـر» اتضحت القيـم الخلقية فيهـا من خلال دعوته إلى البـذل والعطاء في سبيل الله، والتعاون على البـر والتقوى، والتأكيد علـى حقوق الأخوة الإسلاميـة، ووحدة الكيان الإسلامـي الذي يستوجب وحدة الشعـور بين أبناء الأمة جهادا وسلما، سرورا وحزنا.

والدعـوة إلى الولاء للمسلمين، والتبرؤ من أعدائهم أعداء الدين، وحـث النفوسـ علـى الغيـرة الإسلامية علـى الأرض والعرضـ والدم الإسلامـي، الذي ينتهك حرمته الأعداء، الذين يجب تطهير البلاد من أرجاسهم بالبذل والتضحية والتعاون والتوحد.

وهذه كلها قيم إسلامية دعا إليها الإسلام وأكدها.

وتتمثـل القيم الخلقية في خطبته «أسبـوع التسلح» في الدعوة إلى التبـرع والسخاء في سبيـل الله؛ لتتحقق مهمة الأمـن والقوة والإعداد الذي دعانـا الله تعالى إليه بقولـه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[١].

وفي التأكيد على أهمية الأخذ بالأسباب، واتخاذها وسيلة لتحقيق النتائـج دون الاعتمـاد عليهـا، بل يكـون الاعتماد علـى الله وحده؛ لأن الأسباب كلها بيديه، والنتائج وفق إرادته.

---

(١) سورة الأنفال، آية ٦٠.

وفـي كشـف مخططات الأعـداء، وبيان مـا يحـاك للمسلمين في الخفاء؛ ليأخذوا حذرهم ويعدوا ما يجب أن يكون في مواجهتهم.

وأمـا عن خطبته في «التبـرج والاختلاط» فقد دعـا فيها إلى قيم أخلاقيـة تبنـي المجتمع وتضمـن استقامتـه، تتمثل في حمـل العلماء لمسؤوليـة الكلمة وتقديم النصيحة وتغيير المنكـر الذي يفسد الحياة بأوضاره ويعكر صفوها بأوشابه.

ودعـا إلى ضرورة العفة والحياء والتستـر، اللاتي جعلهن اللّه من أسلحـة الأمة ضـد الشيطان والرذيلـة، فبهن تغلق أبـواب الشر وتسد نوافذه وتدرأ مفاسده، امتثالا لأوامر اللّه تعالى وطاعته.

كما دعا إلى قيام الأب بمسؤوليته تجاه أسرته، والحفاظ عليها من خطورة التبرج والاختلاط اللذين حرمهما اللّه تعالى.

وكـذا في تنبيـه النـاس لما تتعرض له الأمة من غـزو مدمر يأتيها مـن كل حدب وصـوب من داخـل الأمة الإسلاميـة على أيـدي أبنائها مـن المستغربين، ومن خارجها على أيـدي أعدائها من المستشرقين، حتـى أصبحت الأمـة الإسلامية في غربة حقيقية عـن تعاليم الإسلام ومناهجـه، فغـدت بذلك لقمـة سائغـة ينتهبها الأعـداء، ودمية في يد هـؤلاء الذين تسلطوا على مواقع التوجيـه والتعليم؛ ليمكنوا لأولئك بما يبثونه من سمـوم الفكر وخبيث الأخلاق والعـادات التي تفسد الفطرة وتوهـن العقيدة، مبينا أنه لا خلاص للأمة مـن أيدي أولئك وهؤلاء إلا بفقه الدين، والدعوة إلى آدابه وأخلاقه ومبادئه والتمسك بها.

«ونـراه وهو يعـدد أسباب هوان الأمة وضعفهـا وهزيمتها، فتعرف فيه الخطيب الآسي الذي يعرف من أين أُتيت الأمة، ويعرف دواءها، بل ويصـف لها الدواء، وهو القيادة المتمسكة بكتاب الله والعودة إلى شرع الله الحنيف، والأخذ بأسباب القوة»[١].

وفـي خطبتـه «أستاذنا الجنـدي» نراه دعا فيها إلـى قيم أخلاقية أكدها الدين، وبرزت من خلال حثه على تقدير العالم والمعلم، والقيام بحقـه من الإجلال والتكريـم، وحفظ عهده ومواصلـة رسالته وجهده؛ بالإخلاص في العمل والحفـاظ على قيم الإسلام وإحيـاء لغته ابتغاء مرضاة الله.

وهذه الأفكار بهذه المعالجـة تعكس استجابة الطنطاوي للإسلام وقيمـه التـي لا تقبـل تزييـف الحقائـق أو انحـراف الرؤيـة، أو تعمية الجماهير.

كما تعكس موضوعاته في خطبـه، امتلاء مشاعره بالحس الديني والفكـر الإسلامي. كما توضح إيمانه العميق بأفكاره، مما أضفى عليها الصـدق والقوة والإقناع، وأبعدها عـن الخلط والاضطراب والسطحية والغموض.

(١) «الأدب الإسلامـي» الشيـخ علي الطنطـاوي الخطيب الأديب، عبد الباسـط أحمد، ص٩٧، ٩٨، العددان (٣٤-٣٥)، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

المبحث الثاني

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في قصصه

الذي يتأمل موضوعات الطنطاوي القصصية وأفكاره فيها يرى أنه اتخذ من القصة أداة ووعاء فنيا لتوصيل أفكاره وتدعيم اتجاهه، خاصة عندما رأى تبني كثير من كتاب القصة اتجاهات هدامة، تصور الرذائل وتثير الغرائز، وتدور في محور الجنس والخرافة التي تضعضع بنيان المجتمع، وتهدم قيمه وأخلاقه؛ ولذلك كان الطنطاوي في قصصه التاريخية يصدر عن تصور إسلامي واضح، فنراه استلهم المنهج القرآني في عرض قصصه التاريخية، التي جاءت متنوعة الشخصيات متعددة المواقف؛ لتؤدي معاني إسلامية ثرية في صور فنية؛ ولتغرس في المتلقين هذه المعاني وتلك القيم الإسلامية بطريقة غير مباشرة من خلال الشخصيات وما تقوم به من مواقف وأحداث ركز فيها على المواقف التي تصور السماحة والعدالة والكرامة الإسلامية في أبهى صورها، والتي أضافت إلى الإسلام نصرا بعد نصر، وفتحا بعد فتح كما في قصة «بيت المقدس» و«هيلانه ولويس» و«قضية سمرقند».

ومنها ما عرض فيها للشخصية الطموحة التي تركب الأخطار وتغامر طلبا للرقي وبحثا عن إثبات النفس واستغلال مواهبها والاستفادة بطاقاتها كما في قصة «هجرة معلم».

ومنهـا ما عرضـ فيها للشخصيـة الإسلامية حين تكـون إيجابية منفعلـة بهمـوم أمتها، منشغلـة بقضايا وطنهـا، فاعلـة، تنتفض فيها الكرامة؛ ليحيي الله بها موتى القلوب، ويكون الإصلاح والتغيير كما في قصة «رجل وامرأة».

ومنها ما تنـاول فيها جرأة العالم وقوته المستمدة من الحق الذي يدعـو إليه، ويتمسك به حتى تنقاد له الدنيـا، ويخضع له أهلها كما في «قصة عالم».

وعلـى هذا النهج نـرى الطنطاوي في موضوعاتـه وأفكاره. بدافع مـن توجهـه الإسلامي. يتمثل في قصصه من أحـداث التاريخ ما يبرز العظمـة ويرسم القدوة ويبني الثقـة... متجنبا في ذلك أحداث الفتن والسقطـات - التـي تكدر صفـاء النفس وتنال من ثقتهـا برجالنا - إلا بمقدار الإرشاد إلى علاجها والتحذير من الوقوع في مثلها.

١. من قصصه التاريخية:

أ. قضية سمرقند: تلك قصة عرضها الطنطاوي، وقد تجلى فيها العدل في أبهى صوره، والطاعة لله ولرسوله ﷺ في أعظم مواقفها.

وقد قدم لنا الطنطاوي هذه القصة؛ ليبرز لنا أثر العدل في إحياء النفوس، ودوره في نشر الإسلام واتساع رقعته؛ وليعرف الجيل الصاعد بروائـع تاريخـه الإسلامي الـذي يجهله، وعظمـة أجـداده المسلمين الذيـن وجهت وتوجه إليهم سهـام النقد والانتقاص من أعداء الإسلام

والمنخدعين بهم، بهدف ضرب القدوة وهدم المثل أمام الشباب بالتشكيك في كل ما هو إسلامي.

وقد اشتملت هذه القصة على قيم إسلامية عديدة تمثلت في وصف واقع أهل الوثنية البغيض؛ ليتضح الفرق بين ظلام أهل الشرك ونور أهل التوحيد.

وكشفت عن بغض أهل الكفر لأهل التوحيد وكيدهم لهم بشتى الوسائل. وحملت القصة دعوة المسلم إلى الرفق وسعة الصدر، ومعاونة الناس والسعي في هدايتهم إلى الخير، والأخذ بأيديهم إلى طريق الله، مع عدم الاستخفاف بأي عمل صالح أو جهد ضئيل في سبيل الله.

وتومئ القصة إلى الحكام وأصحاب المناصب بترسم خطا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تواضعه ورفقه وزهده وإخلاصه، وعدله، حتى يكون لهم في قلوب الناس ما كان له من عز وإجلال وحب.. وما عند الله للمتقين أجل وأعظم بفضله ورحمته.

والقصة: تدعو إلى انصياع المسلم للحق ورضائه به ولو شق ذلك على نفسه، لإيمانه بأن الخير مع الحق أنى كان، وبأن الناس أمام القضاء سواء.

كما تدعو إلى إسراع المسلم في رجوعه عن خطئه، مهما بلغت منزلته وعلت مكانته حين يبدو له وجه الصواب.

ودلالة هذه القصة تتمثل في أن العدل يشفي النفوس ويبدد ظلام القلوب، ومن هنا كان هو السر الحقيقي في قوام الحياة وارتقاء الأمم وصدق الانتماء، ودخول الكثيرين في الإسلام.

ب ـ «تاج كسرى» في هذه القصة رأينا الطنطاوي مستجيبا لنزوعه الإسلامي في إبراز موقف من مواقف عظمة النبي ﷺ وتناول دليل من دلائل نبوته وصدق رسالته.

ومن يتأمل هذه القصة ير أنها حملت قيما كثيرة، وأكدت معاني إسلامية جليلة، فقد أظهرت أثر التحفيز بالجوائز والمكافآت في دفع النفوس لتحقيق الأهداف والوصول إلى أبعد الغايات. وبينت أثر التخويف والعقوبة في ردع النفوس وتبديد أطماعها والقضاء على شهواتها، ولأجل ذلك جعل اللّه الجنة والنار، والثواب والعقاب.

فسراقة حمله على ركوب الأخطار وقطع المفاوز، المكافأة التي رصدتها قريش حتى هان عليه التعب، وسهل عليه من أجلها النصب، فلما ساخت أقدام فرسه في الأرض تملكه الخوف وأزال من نفسه الطمع وخضع لأمر النبي ﷺ ورجع من حيث جاء.

كما أظهرت القصة شدة حب أبي بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ وكمال يقينه بتأييد اللّه ونصره.

وأشارت إلى لجوء المسلم إلى ربه واعتماده عليه خاصة في وقت الشدائد.

ودلالة القصة صدق النبي ﷺ في كل ما جاء به، وأنه لا ينطق عن الهوى، وتهدف إلى زيادة اليقين في اللّه وقوة الإحساس بعظمة النبي ﷺ وأصحابه.

٢ - قصص الطنطاوي الاجتماعية:

تصـدر قصص الطنطـاوي ذات المحور الاجتماعـي في أفكارها وموضوعاتهـا عن تصـور إسلامي واضـح، وتستهدف غايـة إسلامية ساميـة، و تهتم فـي سبيل ذلك بإسلاميـة الوسيلة والمنهـج؛ لذا نراه اتخـذ من «المنهج الواقعي»[١] مرجعا لـه يستمد منه موضوعه، بمعنى أن قصصه إما أن تكون عن واقع تاريخي صادق، أو عن واقع اجتماعي حدث أو يمكن حدوثه في الواقع.

ومع ذلك لم يأخذ الطنطاوي المنهج الواقعي على علاته، بل طوعه للإسـلام؛ حيث لم ينقـل الواقع نقلا جافا دون أن يعمـل عقله وخياله وموهبته الفنية في معالجته معالجة فنية، تبرز فيها الوجهة الإسلامية والقيمـة الأخلاقيـة التي تؤكد بالطريقة العملية الحيـة أن الدين بمثله وقيمـه وواقعه التاريخي هـو الأصلح لإقامة حياة صالحـة، وهو الأقدر على مسايرة مستجدات الحياة والتغلب على عقباتها وتحدياتها.

ومـن هنـا فموضوعـات الطنطـاوي فـي قصصـه هـذه، تهدف بمحتواهـا، وتطرح فـي ثناياها أفـكارا وقيما تسهم فـي حل مشكلات المجتمع ومعالجة أمراضه معالجة إسلامية سوية.

فهـو حين عرض في بعضهـا لنماذج غير سوية جسد فيها مخاطر

---

(١) معنـى الواقعيـة في علـم الجمال: كل فن يحـاول أن يمثل الأشياء بأقرب صـورة لها في العالم الخارجي. والواقعية هنا بالطبيعة نسبية؛ لأن تمثيل الأشياء لابد أن يتأثر بميول الفنان (معجم مصطلحات الأدب، ص٤٦٧).

الانحلال والتفسخ ومآسي الانحراف؛ لينفّر منها ويصدّ عنها، كخطر الرشوة، والسفور، والظلم، والاستسلام لهوى النفس، والتخلي عن الواجب، والاستسلام للأعداء.

وذلك كما في قصة «الكأس الأولى» و «طبق الأصل» و«اليتيمان» و«الخادمة» و«بنات العرب في إسرائيل»... إلخ.

وعرض في بعضها لنماذج إسلامية سوية تمثلت فيها الروح الإسلامية والقيم الإنسانية، فأحدثت إصلاحا، وأحرزت نجاحا، وتركت آثارا في حياة الناس، كما في قصة «ناظم باشا» و«جبل النار» و«شيخ في مرقص»... إلخ.

أ- قصة «بنات العرب في إسرائيل» التي يبدو توجه الطنطاوي الإسلامي فيها من خلال غيرته الإسلامية، وإشفاقه لمصاب المسلمين؛ حيث مثلت هذه القصة مهانة العرب، وجسدت واقعهم المرير المستذل؛ ليستحث فيهم الغيرة والبطولة الميتة، من خلال عرضه لمعاناة فتيات العرب في إسرائيل، وما يتعرضن له من فقد الشرف واستغلال الجسد، إذ ليس هناك أشد من ضياع العرض وهتك الشرف، لتحريك نخوة العربي المسلم وتحفيز همته.

وقد تجلت في ثنايا القصة قيم ومحاذير إسلامية عديدة.

فرأينا المسلم الذي ينتصر على نفسه، ولا يستسلم لهواه حين يدرك أبعاد المأساة، أو يعي ما يستيقظ به حسه وضميره.

ورأينا البنت التي تدافع عن شرفها وتستميت في حفظ عرضها، فلما غلب على أمرها رأيناها، وقد استحالت حياتها مرارة وبؤسا وجحيما، تتمنى الخلاص منه كل لحظة ولا تستطيع.

ورأينا الأب الذي يبذل حياته في سبيل الدفاع عن أسرته، والحفاظ على عرضه وكرامته.

ورأينا قسوة اليهود ونذالتهم في أبشع صورها وأحط دركاتها، حين استباحوا دماء المسلمين وسلب أعراضهم، والمتاجرة بأجساد فتياتهم على سمعهم وبصرهم.

وما كان لهم ذلك وهم أذل الأمم وأجبنها - لولا تخاذلنا وجبننا وطمعنا في الحياة التي فقدناها يوم فقدنا الإيمان والغيرة وحب الشهادة في سبيل الله.

يقول: «لقد أراقت دم عفافها؛ لأن رجال قومها لم يريقوا دماء أجسادهم في سبيل الأرض وفي سبيل العرض، لقد خدروها بهذه الإبرة كما خدروا زعماء العرب بالوعود وبالخداع وبحطام من الدنيا قليل»[١].

ب- وفي قصة «طبق الأصل» يلاحظ توجه الطنطاوي الإسلامي في موضوعها من خلال عرضه لقضية التبرج، وإبرازه لأثرها السيئ وعواقبها الوخيمة، التي تسببت في مقتل الفتاة وسجن أخيها

(١) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص٢٥.

وعذاب الأب بمصابهما؛ ليعلم في النهاية أنه خدع بزائف المدنية، وخدر بأكاذيب التقدمية، وذلك حين أباح لفتاته التبرج وأقرها على التحرر السافر، فجنى بذلك أوزار بعده عن الإسلام وتخليه عن قيمه وأخلاقه التي تضمن للمتمسكين بها السعادة والنجاة.

وقد احتوت هذه القصة على قيم ومحاذير إسلامية عديدة، فأكدت على خطورة التبرج الذي يعرض الفتاة للخطر؛ إذ في التبرج إغراء بالرذيلة ودعوة إليها وخروج على تعاليم الإسلام السامية وقيمه النبيلة.

وأشارت إلى ضرورة التثبت من الأخبار، والتحذير من التقليد الأعمى، وخداع الكلمات. وبينت القصة أهمية التربية الإسلامية الملتزمة في حماية الشباب من مزالق الشيطان، وانحرافات السلوك وسوء المصير.

وفي القصة تحذير من إطلاق النظر إلى المحرمات؛ إذ النظر إلى الحرام باب هلاك من ولجه لم يضمن النجاة منه.

وهكذا نرى توجه الطنطاوي الإسلامي واضحا في قصصه التي استقاها من المجتمع لمعالجة مشكلاته وعرض قضاياه «بعدما حدث في نفوس الجيل من شعور بالثورة على الأوضاع الاجتماعية القديمة والتقاليد البالية»[١].

---

(١) الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، أ/ أنيس المقدسي، ص ٥٠٩، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت.

٣- قصص الأطفال:

وتسيــر موضوعــات الطنطاوي وأفــكاره في قصصــه التي قدمها للأطفــال، في نفس الإطار الذي يصدر فيــه عن تصوره الإسلامي، إذ كان مــن أهم أهدافه منهــا، ربط الأطفال بتاريخهــم المجيد الممتلئ بالعبر والمثل التــي تسهم في بناء النشء، وتربية نفسه تربية إسلامية تقوم على الاعتزاز بدينه وتاريخه العظيم[١].

وقصــد بها تنمية الشعور بالديــن، وتقوية الالتزام بمنهجه القويم الــذي يضمن للإنســان النجاح والسعــادة في الحياتيــن، والتنفير من الخروج عليه، وبيان شقاء المخالفين له.

أ- فــي قصة «وزارة بعنقود عنب» نرى كاتبنا مستجيبا لتوجهه الديني الــذي يرفع شأن القيمة، ويحــث على الفضيلة من خلال قصة ذلك الوزيــر المتواضع، الذي كان طالباً، فجد فــي طلب العلم، حتى إذا نفــد ماله، بحث عن عمل، فلما لم يجد وعدم السبب لجأ إلى خالق الأسباب، فاستجاب له وفتح له الأبواب حتى نال الوزارة، وكان ذلك مــن الله جزاء لــه على صبره وبــره وإخلاصه ووفائــه وأمانته التي نطقت بها الأحداث وأعلنت عنها المواقف.

وقــد اشتملــت هذه القصة علــى قيم عديدة، وأكــدت على أخلاق حميدة، من تمثلها نال رضوان الله، فسعد به في دنياه وأخراه.

---

(١) المجرم ومدير الشرطة، علي الطنطاوي، ص٧، ط٣، ١٩٩٧م، دار الفكر، دمشق.

فبينت أن التواضع يرفع صاحبه ويحببه إلى القلوب، وأشارت إلى ضرورة الإخلاص في طلب العلم، والدأب في تحصيله مع تعلم حرفة يتكسب منها المسلم قوته، ويصون بها عرضه وكرامته و عزة نفسه.

ودعت القصة إلى لجوء المسلم إلى ربه واعتماده على خالقه، فهو وحده القادر على تخليصه مما يقع فيه، وإنقاذه من مخاوفه.

والقصة معنية بطرح القيم الإسلامية والإشادة بها لحمل النفوس على حبها ودفعها إلى تقديسها، وذلك من خلال ما رسمته من نتائج عظيمة نالها ابن هبيرة بفضل استجابته لدينه، وصدوره عنه، في إخلاصه بتقديم العون لأخيه المحتاج وتلبية حاجته، وورعه في تحريه للحلال والحرام في مأكله ومكسبه، وأمانته في رد المال لصاحبه، وعفته عن أخذ شيء منه مع حاجته الشديدة إليه.

وبذلك نجح في الامتحان، ففتح الله له باب العمل بعدما أغلق عليه، حتى نال الوزارة، وكأن الله كافأه بعفته عن الحرام الخبيث بأضعاف من الحلال الطيب.

وهكذا هدفت القصة إلى الحث على الفضيلة والإخلاص في عمل الخير.

... وكانت تجسيدا حيا لما قرره الإسلام، من أن الجزاء من جنس العمل، وأن الله يجازي العباد على قدر نياتهم وصلاح أعمالهم.

قال اللّه تعالــى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[١]. وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ ﴾[٢].

ب - وفــي قصة «التاجــر والقائد»: نرى الطنطــاوي مستجيباً لتوجهه الإسلامي في موضوعه؛ إذ جعل محوره يدور حول أهمية القصاص ودور معاقبة الجناة في إقامة الحق ونشر الأمان والعدل بين الناس، وذلــك من خلال موقف الخليفة المعتضد، الذي كان سريع القضاء بالــغ العقوبة حتى صار للضعيف وللمظلوم ركنا، فكان ذلك «القائد الكبيــر» يخاف ذلــك الخياط المسكين، وما خافه هــو! وإنما خاف الحــق الذي يملكــه، والسلطــان الذي يرهبــه، فــأدى الحقوق على الفور، واستتب الأمن وســاد الأمان، وانعدمت الشكاية. ولم لا، وقد قال اللّه تعالــى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٣].

كمــا تضمنــت القصة دعــوة المسلــم لإزالة المنكــر، والتصدي لــه، ونبذ السلبيــة، ليجد على الخير أعوانا يرتفع بهــم الإثم ويعلو بهم الحق.

---

(١) سورة الرحمن، آية ٦٠.

(٢) سورة الأنفال، من الآية ٧٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٧٩.

المبحث الثالث

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه

١. الموضوعات والأفكار في تراجم الطنطاوي

أ- ترجمة الطنطاوي الشخصية الذاتية أو ذكرياته

بداية يصعب الإحاطة بأفكار الطنطاوي وموضوعاته في ذكرياته، حيث إنه كان فيها موسوعيا مستطردا؛ ولذلك تداخلت الموضوعات وتزاحمت الأفكار على نحو من المرونة السلسة، وتداعي المعاني الجذاب.

ومع ذلك يلاحظ المتلقي لذكريات الطنطاوي بوجه عام استجابته لتوجهه الإسلامي ومنحاه الدعوي، وذلك من خلال ما قدمه فيها، مما يهتم به القارئ في التعرف عليه، وعلى مقومات شخصيته الأدبية والفكرية والأخلاقية، تلك الشخصية الإسلامية التي أدهشتنا بأسلوبها العذب وفكرها الإسلامي القويم.

ومن هنا حدثنا عن طفولته وبيئته، وما مر به من أحداث أثرت في توجهه وفكره، كما تكلم عن أسرته، وتعلمه ومدرسيه، وأصدقائه، ورحلاته وأسفاره، واطلاعه وأعماله، وكتاباته وأفكاره، في كل مرحلة من مراحل حياته.

فهذا أستاذه المبارك الذي يحدثنا عنه وعن أثره فيه بقوله:

«ولم يكن الشيخ يقتصر في درسه على الفقه، بل كان فيه مع الفقه تفسير وحديث وقواعد أصولية يسوقها بعبارات موجزة بليغة «يلقيها ويرددها ويكتبها بخط الثلث على اللوح والسبورة بعرض الحوارة (الطباشير)، وكان يتخذ لكل شيء ضابطا، جملة موجزة تجمع الأحكام، وتسهل على اللسان، ولا تذهب من الأذهان. ولطالما دلنا على كتب، قرأتها وانتفعت بها، وهي رأس مالي في العلم والأدب، ولولاه ما سمعت بها»[1].

فمن هذا الموضوع وأمثاله في ذكريات الطنطاوي يمكننا التعرف على مقومات شخصيته، وتكوين اتجاهه الأدبي والفكري وروافده.

كذلك تتضح وجهة الطنطاوي الإسلامية في ذكرياته من خلال موضوعاته التي عرض فيها إنجازاته، ومواقفه التي تغلب فيها على المصاعب في سبيل الحق والإصلاح؛ ليشجع الشباب على الثبات والإقدام، ويلفت الأنظار إلى قيمة الفضيلة وجمال القدوة.

كحديثه عن مواقفه في مواجهة الفرنسيين ومن والاهم، ومواقفه في الدفاع عن الفضيلة، وعن الأدب الهادف والملتزم، وثورته على جور الحكام وانحراف الأقلام التي تصور الرذيلة والانحلال، ومواقفه في إصلاح التعليم والقضاء، مما ينطق بشجاعته، ويعلن عن صراحته؛

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/ ١١٩.

حيث كان لا يعرف في الحق مجاملة ولا مداراة، من ذلك موضوعه «في القضاء في دوما»:

والـذي يعرض فيه لإصلاحاته.. ومواقفه الفاضلة في أيامه الأولى ـ بعـد توليه القضاء في دوما سنة ١٣٦١هـ ـ مع أصحاب النفوذ وطلاب الوسائـط «المفتي» ومأمـور الأوقاف، وأحد أعضـاء المجلس النيابي، وهذا الرابع الذي أنقل ما كتبه عنه حيث قال:

«.. والعـدو الرابـع الـذي كسبته في أيامـي الأولى فـي دوما أحد أتبـاع الأمير فـواز الشعلان، كان يتكلم باسمه، يراجـع الدوائر ويقابل رؤساءهـا، يدافع عن قضايا جماعة الأمير من عشيرته «الرولة» (وهي فـرع كبير من عنـزة) وعنزة من بني أسد بن ربيعـة، ومن عنزة أسرة آل سعـود الكرام. دخل علـيّ في دعوى أقيمت عليـه، وقد خبروني بعد الجلسة أنهم يخشون الإدلاء بها، خوفا على أنفسهم.

فسألتهم: هل سبق أن شهد عليه أحد فقتله أو آذاه؟ قالوا: لا. فلما كان يوم المحاكمة تصورت عظمة اللّه، وعظم جزائه لمن يجترئ عليه، وكبير ثوابه لمن يدافع عن الحق الذي أمر به، وتوجهت إلى هذا الرجل – ونسيت اسمه – فحذرته عذاب اللّه، ونبهت في نفسه إيمانه، وقلت له كلاما لا أستطيع أن أعيده الآن؛ لأنني لم أكن أنا الذي يتكلم به، بل كان يتكلم به يومئذ على لساني ما اعتراني من الصلة باللّه والاعتماد عليه، ومازلت في هذا حتى اغرورقت عيناه بالدمع، وقال أمام الناس وهم لا يكادون مـن دهشتهم يصدقون ما يسمعون، قـال: نعم، واللّه له عندي حق، وأنا أستغفر اللّه، وحقه مضمون!.

فقلت له: بارك الله فيك، وأعظم ثوابك. وأثنيت عليه وبينت له عظيم ما جاء به عند الناس، وعند الله!. وكذلك يغلب الحق إذا عرفت كيف تدل عليه، وتنبه إليه، وتوقظ الإيمان في نفس المؤمن...»[١].

ثم يبين نتائج هذه المواقف الحاسمة بالنسبة له؛ لتتضح منها الحقيقة في أذهان من ينشدون الحق، ويخشون في سلوكه أهل الباطل. فيقول:

«كثرت على ألسنة المنتقدين من الوجهاء ومن المتزعمين، وكان جمهور الناس يدعون لي، ولا يملكون عني دفاعا، ولا يملكون لي نفعا، ولكن الله الذي أمر بأن ندافع عن المظلوم هو القادر على حمايتي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾[٢].

فأمضيت سنين طوالا في «دوما» وأنا على هذه الوتيرة، وما لقيت يوما من أحد سوءا، والذين تحاملوا عليّ، ونظروا النظرة السوداء إليّ، عادوا فأثنوا عليّ لمّا رأوا بأنني لا مصلحة لي عند أحد، ولا أبتغي لنفسي نفعا، ولا أدفع عنها ضرا، ووفق الله، وخرجت من دوما ولا يزال ذكري فيها بحمد الله عطراً طيباً.

ولا تلومونـي إذا قلت ذلك عن نفسي، فإنما أقوله تشجيعا لغيري في أن يسلك هذا المسلك مثلي»[٣].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) سورة الحج، آية ٣٨.

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٠٤.

فالطنطـاوي -كما نرى- إسلامي فـي موضوعه، حيث عرض من خلالـه نمـاذج واقعية، وضـح فيها كيف يكـون التعامـل الإسلامي مع أصحاب الوساطـة، والتصدي لاستغلال النفوذ الذي يتسبب في ضياع الحقوق، وإهدار الطاقات واختلال الأوضاع، ووضع الأمر في غير أهله، وإعطـاء الشيء لغيـر مستحقه، مما ينذر بالخـراب واشتعال الأحقاد، وتدني المستوى، بل وانهيار المجتمع وضعف أركانه.

وانتشـار هـذا الأمر وشيوعه يحتاج إلى وقفـة حقيقية في القضاء عليه، وقدوة عملية أكثر من احتياجه إلى أقوال إنشائية وخطب وعظية؛ ليكون ذلك أجدى في النفوس وأعمق في الأثر، ومن هنا سوغ الطنطاوي أن يقدم لنا هذه المواقف عن نفسه، لا افتخارا كما قال، ولكن انتصارا للحق وإغراء به، وحثا عليه، وتعريفاً بعاقبته عند اللّه وعند الناس.

وهذا الموضوع مع سمو غايته في إحياء القدوة، وضرب المثل لمن يريد الإصلاح، حمل قيما عظيمة ومعاني سامية تدل على أن من أخلص للّه أيـده، ومن تـوكل على اللّه كفـاه، وأن على المسلـم ألا ينشغل بكيد الناس وسفههم مادام على الحق، الحق لا يرضي أهل الباطل، وقد سُبَّ النبي ﷺ ورمي بالحجارة.. فما أثناه ذلك عن الحق الذي بعث به.

ودل علـى أن الخيـر كامن في نفوس الناس، وإنمـا يحتاج إلى من يوقظـه وينبهه ويحركـه بالوسيلة التي تناسب غير مبـال بما يكون، إذ لا تؤتـى الأمـم إلا من قبل خـوف علمائها، ومداهنـة حكامها، وصمت عقلائها!.

كذلك يبـرز توجه الطنطاوي الإسلامي في موضوعاته التي كشف بها عما يـدور في عصره من أحداث تتشوق النفس لمعرفتها، وتتطلع لرؤيته الإسلامية فيها، وهي كثيرة في ذكرياته:

كتلـك التي تحـدث فيها عـن الأتـراك الاتحاديـيـن، والفرنسيين المحتليـن، والوحدة والانفصال، واحتلال فلسطين، وحديثه عن إنشاء المجـلات والجمعيات، ورأيه في الحضارة الغربية، والمذاهب الأدبية، والقوميـة العربية، والأدباء والمفكرين، والقادة والمصلحين، والأطباء والمحامين.

قـال عن ظهور مجلـة الرسالة في مصر: «كانـت مصر في السنة التي أتكلم عنها ١٩٣٣م كالأرض العالية ينزل الماء منها إلى ما دونها، ولا يصعد مما تحتها إليها، فالمطبوعات في مصر (من كتب ومجلات) تقرأ في الشام (أي سورية ولبنان وفلسطين) وفي العراق، وفي جزيرة العـرب. والمطبوعات في الشام تقرأ فـي العراق والجزيرة، ولكن قلما تقرأ أو تعرف في مصر، والمطبوعات في العراق لا تكاد «يومئذ» تصل إلى غيره. أما الجزيرة فلم تكن فيها مطبوعات تذكر. أما المغرب فقد قطع المستعمرون صلتنا به، فلا يصل إلينا شيء من مطبوعاته..»[1].

وتكلـم عن كُتّـاب الرسالة، وعبر عـن رأيه فيهم، فقـال: «وقرأت كل كتـب «العقاد»[2] يومئذ، والمطالعـات وساعات بين الكتب والديوان

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٥، ٢٦.

(٢) عباس بن محمود بن إبراهيم بـن مصطفى العقاد، ت ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤م، إمام في الأدب، من المكثرين كتابة وتصنيفا مع الإبداع، (معجم الأعلام ص٣٨٣).

وغيرهـا، وكنـت وأنا طالب أعجـب بفكره وأستفيد مـن سعة اطلاعه، ولكن لا أطرب كثيراً لأسلوبه..»[١].

ثـم تكلم عن «المازني»[٢] فقـال: «على أني أحببت المازني، وكنت أطرب لأسلوبـه وفكاهته وسخريته، وتأثرت به حينـا، وحاولت تقليده، ولكـن من أيـن لي خفة روحـه؟ وإن كان يؤذيني منه تهاونـه بأمر دينه وكلامـه عـن شرب الخمـر كأنه يتكلم عـن شرب الشـاي! وسواء لدي أشربها أم كان على طريقة الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون. فالمهم عنـدي أثر مـا يكتب الكاتب فـي نفوس القراء، وعليـه أن يذكر أن اللّه سائله عنه!»[٣].

فأمثـال هذا الموضوع يعطينـا ملامح واضحة لأهم أحداث عصر الطنطاوي ورؤيته لها، إذ كان للإسلام بمقاييسه ومعاييره ثقله في رؤية الطنطاوي وأحكامه، كما تبين في حكمه على أدب المازني، ومنحاه.

ويبـرز توجه الطنطـاوي الإسلامي في موضوعـات ذكرياته حين كان يقطع سيرها بموضوعات تحمل أفكارا ورؤى يرى أنها أفيد للقارئ مـن ذكرياتـه؛ لأنهـا تبصره بمـا يصلح أمر دينـه، ويفيد أمـر دنياه. كموضوعاته:

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٥، ٢٦.

(٢) إبراهيـم بن محمد بن عبد القادر المازني، ت ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٩م، أديب مجدد من كبار الكتاب (معجم الأعلام، ص٢٣).

(٣) ذكريات علي الطنطاوي، ٣/ ٢٦.

ملاحظات عـن المحاماة والمحامين، والقضاء والقضاة، وهجوم علـى الأطباء، ودفاع عـن الأطباء، وخواطر في المـوت والحياة، ووحي صورة، ووقفة على المخيمات...

فموضوعـه «هجوم علـى الأطباء» عرض فيه لأخطـاء بعض الأطباء علـى سبيل التنبيه والنصح، ثم انتقل منـه إلى الحديث عن الممرضات؛ مقدما النصح لإصلاح ما يقعن فيه من أخطاء وأخطار. فكان مما قال:

«وأنا أعلم أن قضية الممرضات مشكلة من المشكلات، وقد وقعنا فيهـا من قبل في الشام، فجربوا تجارب كثيـرة منها: أنهم اتفقوا مرة مـع الراهبـات، وقد قضيـت شهورا فـي مستشفى الحكومـة في السنة التـي أشـرت إليهـا ١٩٥٦م، ورأيت هـؤلاء الراهبات: أنهـن متسترات لا يبـدو منهـن إلا الوجه والكفان فقـط، ثيابهن نظيفة أبـدا، وعملهن غالبـا مضبوط، ولكن الضرر منهـن أكبر مرات ومرات من النفع بهن؛ لأنهـن لا ينسيـن دينهن، وأنهن داعيـات إلى النصرانيـة، وأن عملهن الأول أن يدخلـن المريضـات فـي النصرانية، فإن لـم يستطعن عملن علـى إخراجهن مـن الإسلام، فإن لم يقدرن علـى ذلك، سعين بمهارة شيطانية إلى إضعاف الإيمان في نفوسهن!.

فـلا الممرضات المدنيات نفعننا، ولا الراهبات أفدننا، فما العمل إذن!؟

هـذه مشكلـة لا أستطيع أنـا وحدي حلها، ولابد لها مـن مؤتمر أو مؤتمـرات، تفتش عن طريق يوصل إلى الغاية المطلوبة، ولا يمر بسالكه

علــى جهنــم، ذلك لأن صحة الأبـدان لا يجوز أن تكـون وسيلة لإضاعة الأديـان!. والمسلم يتقيد بأحكام دينــه، يترك الحرام، ويقوم بالواجب في جميع الأمكنة والأزمنة فــي كل الحالات والمقامات. وأول ما يخطر على البال هذا السؤال:

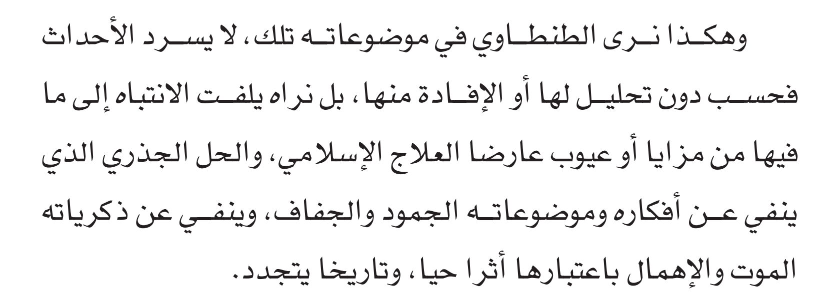
لماذا لا يكون في مستشفيات الرجال، ويقوم على تمريض الرجال، ممرضــون من الرجـال؟ من يقدر أن يأتيني بحجــة مقنعة واضحة بأن الرجـل لا يستطيــع أن يكـون ممرضا؟ وأنه لابد من امــرأة تكشف على عورات المرضى الأجانب، وتكون معهم!؟ وربما كانت مناوبة فباتت مع الطبيب المنــاوب، وحدهما بالمستشفى! التمريـض ضروري، والمهنة لابـد منها، لكن بشــرط أن نبقى متمسكين بأحـكام ديننا، فلا نغضب ربنــا لنشفــي مرضانا، والشفــاء من الله، والله لا يشفــي بمعصيته بل يشفــي بطاعتــه، وإذا زال المرضـ من الجســد مؤقتا في هــذه الدنيا بالمعصية، فإن الحياة الحقيقية الطويلة هي الحياة الآخرة.

فمــاذا ينفعنا شفاء المرضى هنــا، وأن نبتلى بمرض الحريق بنار جهنم!؟

تقولون: لقد خرجت عن الموضوع! نعم، وإن هذه لم تعد ذكريات، وإنمــا صــارت مواعظ...! نعــم، هذا صحيــح. ولكن من قــال لكم: إن المواعــظ مذمومــة دائما، ولــو توقفت عليهــا حياتنــا وسعادتنا ورضا ربنا؟..»[١].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ٤/ ٢٢٧، ٢٢٨.



وهكذا نرى الطنطاوي في موضوعاته تلك، لا يسرد الأحداث فحسب دون تحليل لها أو الإفادة منها، بل نراه يلفت الانتباه إلى ما فيها من مزايا أو عيوب عارضا العلاج الإسلامي، والحل الجذري الذي ينفي عن أفكاره وموضوعاته الجمود والجفاف، وينفي عن ذكرياته الموت والإهمال باعتبارها أثرا حيا، وتاريخا يتجدد.

ب - موضوعات الطنطاوي وأفكاره في تراجمه الذاتية الغيرية:

يتضح توجه الطنطاوي الإسلامي فيها من خلال جعل موضوعاته -في ذلك- عن عظماء التاريخ الإسلامي، وتقديمهم نماذج إسلامية مشرقة، تنير طرق التائهين في سراديب الحياة المادية، والمنخدعين بها؛ وليلفت بها انتباه المسلمين إلى ما كان عليه أسلافهم من عزة ومجد وسلطان وعدل، لمّا كان منهجهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والطنطاوي كما هو إسلامي في اختيار موضوعاته.. إسلامي في أفكاره التي تضمنتها تلك الموضوعات. ومن مظاهر ذلك اعتناؤه بإظهار القيم الإسلامية في شخصياته دون تزيد أو ادعاء بإثبات مصادره، وتركيزه على الجوانب الإنسانية والبطولية التي ترسم القدوة وتمجد الفضيلة، وتشي بمساوئ الواقع وأمراض العصر من خلال التاريخ. فيقول تحت عنوان «عمر مع أهله»:

يبدأ بأهله:

«كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله فقال: إني قد نهيت

الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإني والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه مني، فمن شاء منكم فليتقدم ومن شاء فليتأخر.

يمنع عن أهله الهدايا:

أهدى أبو موسى الأشعري امرأة عمر عاتكة بنت زيد بن عمرو ابن نفيل طنفسة -سجادة صلاة- أراها تكون ذراعا وشبرا، فدخل عليها عمر فرآها، فقال: أنى لك هذه؟ فقالت: أهداها لي أبو موسى الأشعري!.

فأخذها عمر فضرب بها رأسها، ثم قال: عليّ بأبي موسى الأشعري وأتعبوه. فأُتِيَ به قد أتعب وهو يقول: لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين!.

فقال عمر: ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟

ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال: خذها فلا حاجة لنا فيها.

صادر ربح ولده:

عن عبد الله بن عمر قال: اشتريت إبلا وسقتها إلى الحمى، فلما سمنت قدمت بها، فدخل عمر السوق، فرأى إبلا سمانا، فقال: لمن هذه؟!

فقيـل: لعبد اللّه بـن عمر. فجعل يقول: يا عبد اللّه: بخ بخ!!... ابن أمير المؤمنين»! فجئته أسعى فقلت: ما لك يا أمير المؤمنين؟

قال: ما هذه الإبل؟

قلت: إبل أنضاء «هزيلة» اشتريتها، وبعثت بها إلى الحمى أبتغي ما يبتغي المسلمون.

فقال: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد اللّه: خذ رأس مالك، واجعل الربح في بيت مال المسلمين»[١].

فالطنطـاوي هنا يعرض علينا صورة من صـور الحاكم العادل مع أهلـه، إذ يبدأ بهم؛ لعلمه أن الناس يتطلعـون إليهم، فإن وجدوا منهم خوفا ورهبة كانوا أشد منهم انضباطا والتزاما.

ولـم يكن عمر رضي الله عنه ممن يكتفي بالقول، بل كان عمليا، فتفقد أهله وتعقـب ما وصلت إليـه أيديهم، وزجرهم على مـا كان مباحا لغيرهم؛ ورعـا منه وحزما؛ لذلـك خضعت الدنيـا له، واستقامت فـي يده، فما كانت لفتنة أن تقوم أو ثغرة تفتح وهو حي!.

ونرى الطنطاوي في أفـكاره مستجيبا لتوجهه الإسلامي بتجسيده المعانـي الإسلامية في شخصياته بصورة قشيبة، وأثواب جميلة تغري بها وتحث على نشرها واعتناقها.

---

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، علي الطنطاوي، ناجي الطنطاوي، ص ٢٩١، ٢٩٢.

لذلــك نراه ركز على صفات وأخلاق الأبطــال والفاتحين، وسلوك العلمــاء والمجاهديــن؛ ليحــرك الرغبــة فــي التشبــه بهــم والتمسك بأخلاقهم.

فهذا عمر رضي الله عنه «حين قدموا عليه بسيف كسرى ومنطقته وزبرجه، فقال: «إن أقواما أدوا هذا لذوو أمانة!.

فقال له علي رضي الله عنه: إنك عففت فعفت الرعية»[١].

وكأنــه يريد أن يقول: كيف لهذه النفوســ البشرية أن تخون أو تغل فــي شــيء، وهي ترى العفة ناطقــة في قائدها، ومتيقنــة أن ما في يده راجع إليهم ومنفق في مصالحهم دون سفه أو تفريط.

ويقول: «وانظر إلى عمر في الموقف، الذي يطغى فيه أعدل الحكام وأشدهــم ديمقراطيــة، ويزهو ويتعاظم، انظر إليــه حين جاءه خبر فتح فارس، وظفره بكسرى، وامتلاكه بلاده حين أصبح هو إمبراطور فارس، وملك الشام والجزيرة، إنه بدلا من أن يشمخ بأنفه، ويصعر خده، ويمشي في موكب الظفر مشي قواد روما، صعد المنبر، فأعلن سياسته الشعبية، وأكــد صلته بالرعية، وبين أنه خــادم للشعب، يسد حاجته ما قدر عليها، فــإذا عجــز واسى الشعــب حتى يستويا فــي الكفاف. وأعلــن أن الحاكم ليســ مالكا لرقاب الناس، وليســ الشعب عبداً له، ولكنه عبد لله، وأمين للشعب، فإن وفّى الأمانة فقد فاز، وإن خانها خسر خسرانا مبينا.

---

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص٣٥، ٣٦.

ذلك هو موقف عمر، حين ربح المعركة الكبرى»[١].

فالطنطـاوي هنـا أبرز إخلاص الرعية لعمـر رضي الله عنه بسبب عفافه وتواضعـه، الناتجين عن فهمـه الصحيح للإسـلام وتطبيقه الصادق لتعاليمه.

ومـن إبـراز الطنطاوي للقيـم وتمجيـده لها، ما جاء فـي ترجمة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما تحت عنوان «سيدة جليلة من سيدات المجتمع الإسلامي الأول» يقول:

«يا أيها السيدات اسمعن قصة هذه السيدة.

سيـدة أبوهـا عظيم، وزوجهـا عظيم، وهي عظيمة فـي مواهبها، ومواقفها في نفسها وأعمالها.

سيـدة ذات «مبـدأ» وفت له، وثبتت عليه. وسيـدة شاركت في أجل الأحـداث، فـي السلم وفي الحرب. سيدة كانـت ربة بيت، صبرت على مـره ولم تبطر بحلوه. سيدة كان لها من نبل القلب، وكبر العقل، وثبات الأعصاب، ما لم يكن مثله إلا للقليل من عظماء الرجال.

وفـي قصتهـا بعد عبـرة للنسـاء وأمـل لمـن ابتليـت بالفقر من الزوجـات، وإثبـات لمن احتقر النساء أن المرأة قـد تكون أنبل وأعقل من الرجال...»[٢].

---

(١) السابق، ص٣٦.

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ١/ ٣٩.

ثم يورد بعد ذلك من أفعالها ما يؤكد صدق دعواه، ويبرز عظمتها في سلوكها وأخلاقها وصبرها، وقناعة نفسها. فيقول:

«يـا سادتي! لما تزوج الزبير أسماء لـم يكن له في الدنيا شيء، لا مـال ولا عقـار، ليس له إلا فرسه، فلم يكن عليهـا أن تصبر على الفقر فقـط، ولا أن تروض نفسها علـى الحرمان، وتخـدم زوجها وحده، بل كان عليهـا أن تخدم هذا الفرس. وصبرت على هذا كله، وكانت مطيعة لزوجها، حريصة على مرضاته.

رآهـا رسول الله مرة وهو على ناقته، وهي تحمل النوى، وهي أخت زوجته، وزوجة ابن عمته، فقال لناقته: إخ.. إخ!! ينيخها ليركبها معه.

قالت: فذكرت غيرة الزبير، فأبيت.

أبت أن تركب مع الرسول، الطاهر المطهر المعصوم، خوف سخط زوجها، وما كان زوجها ليسخط، ولكنها المبالغة في مرضاته.

ولمـا أعطاهـا أبوها خادما ترعـى الفرس، رأت نفسها قد غدت ملكة.

يـا أيتها القارئة! يا من لها زوج فقيـر، فهي تتألم للحرمان، وتكاد تذم القدر! اسمعي بقية الخبر.

إنهـا صبرت على هذا، فكانت العاقبة أنها اغتنت، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم، حتى إنه لما مات كانت تركته..! من يحزر كم كانت

تركة الزبير!؟ كم خلف زوج أسماء بعد جمعها النوى ودقه وصبرها على الفقر؟

خمسة ملايين درهم ومائتي ألف فقط لا غير...»[(١)].

فالطنطاوي من خلال هذا العرض البارع.. أراد أن يرسم المثل والقدوة العملية للمرأة المسلمة من خلال السيدة أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما في صبرها وتقواها واحتمالها مصاعب الحياة مع زوجها الفقير، وحرصها مع ذلك على مرضاته، امتثالا لما أمر به الدين وطاعة لله رب العالمين.

ثم حاول بعد ذلك أن يبشر كل صابرة تقية من خلال عرضه لما آل إليه أمر أسماء - ببركة صبرها وطاعة زوجها - من غناها بعد فقرها، وعزها بعد شقائها، وراحتها بعد تعبها، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾[(٢)].

وهذا هو شأن الحياة وقضاء الله فيها ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[(٣)].

ولم يقف الطنطاوي عند هذا الحد، بل حاول أن يتلمس للمسلم المثل والقدوة الحسنة من الزبير بن العوام - زوج أسماء رضي الله عنهما الذي كان طاهر اليد، شجاع القلب، سمح النفس. فيقول عن ثروته: «لم يجمعها

---

(١) السابق، ١/ ٤٣، ٤٤.

(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٥، ٦.

(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.

من الحرام، ولا من أخذ أموال الناس، ولا لأنه قعد في المجلس فدرس ووعظ، وقال: أنا حواري رسول الله، وابن عمته، فأعطوني! بل تاجر مثلما تاجر عبدالرحمن بن عوف والصحابة، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب الملايين.

وكذلك كان المسلمون، كانوا رجال دنيا ودين، مال وتقى، كانوا جنًّا في النهار، ورهبانا في الليل.

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً، كان له هذا المال، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تجب عليه زكاة؛ لأنه لم يكن يدخر شيئا.

أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولا من فقر زوجها، ولم تبطر بغناه، وبقيت كما كانت، امرأة خير وبر وإحسان»[١].

وهكذا يتضح تركيز الطنطاوي على القدوة العملية، وإبراز دورها في استقامة الحياة، كما يفهم منه أيضاً تعريضه بالسلوك المنحرف ونقده لضجر الزوجات من أعباء الحياة وجزعهن من فقر الأزواج، وكذا طلب الرجال للمال من غير جهته الشرعية واختلال ميزان المسلم بين دينه ودنياه، وحرص الأغنياء وبخلهم.. وتواكل الفقراء وكسلهم.

كل هذه أمراض اجتماعية عرّض الطنطاوي بها، من خلال ضرب القدوة والمثل الإسلامي الحي في السيدة أسماء وزوجها الزبير رضي الله عنهما.

---

(١) رجال من التاريخ علي الطنطاوي ١/ ٤٤.

كما تظهر وجهة الطنطاوي الإسلامية قوية واضحة في تناول شخصياته، حين يبرز دور الإيمان في دفع الشخصية للإصلاح والتغيير وحملها على اختراق آفاق بعيدة في الجهاد والفتح، والعلم والحلم، والإنفاق والصبر...

فالإيمان هو وحده الذي دفع «العز بن عبد السلام»[١] إلى إحياء حماسة المصريين، وجعله يوقظ الإيمان في قلوبهم؛ ليردوا هجوم التتار الذين اجتاحوا دنيا الإسلام من أقصى خراسان إلى أدنى الشام، ولم يبق أمامهم إلا مصر.! وما كانوا ليردوهم بشيء غيره. يقول الطنطاوي:

«.. وخرج الجيش المصري على أتم هيئة، وأكمل استعداد تتقدمه فرسان المماليك. ولئن كان المماليك حكام سوء، لقد كانوا- والحق يقال- أرباب حرب، وأبطال قتال.

وبلغ الجيش (بيسان) في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وأراد أن ينحدر من أعالي الهضبة إلى (عين جالوت)، فوجد تحته السيل الذي جرف في طريقه كل شيء، من صحارى تركستان وأطراف الصين، إلى عين جالوت: جيش المغول والتتر، لما رأوا هاتيك الجموع، وذكروا كم اجتاحت في طريقها من جيوش كانت أجل وأعظم، فما صنعت مع هذه الجموع صنيعا، ولكن الشيخ قام يذكرهم ما ضمن لهم

(١) عبدالعزيز بن عبد السلام بن القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، عز الدين، الملقب بسلطان العلماء، فقيه شافعي، بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق (معجم الأعلام ص٤١٩).

مـن النصر، استنجـازا لوعد الله، واعتمادا علـى قوله: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[١] فغلـى الدم فـي العروق، وضربـت الحماسة أقحـاف الرؤوس، ونـزل جيش مصر نزول الموت، يحـث جنده الخيل يتسابقون إلى النصر والشهادة.

وكانـت معركـة خاف فيهـا الخوف، وذعـر فيها الذعـر، وانجلت عن... ظفر المصريين.

يـا أيهـا السامعون! لقـد انهزم التتر الذين دكـوا في طريقهم كل قـوة، واخترقوا كل جيش، انهزموا أمام الإيمان الذي أزكاه في النفوس هذا الشيخ الدمشقي..»[٢].

وهكـذا بدت وجهة الطنطاوي الإسلامية عميقة وقوية، حيث جعل الإيمـان هو الذي انتصر في المعركة؛ لأنه هو الذي حول ضعف الجنود قـوة، وخوفهـم من الموت رغبـة فيه، وزعزعـة قلوبهم ثباتـا، وتراجع نفوسهـم إقداما، وهكذا يفعل الإيمان فـي القلوب ويصنع العجائب في الحياة.

ويبـدو انتماء الطنطاوي الفكري للإسـلام، واستمداده لقيمه منه فـي موضوعاتـه، كلما حاول أن يفيـد من قضايا التاريـخ بطرح ظلال الماضي لمعالجة ما يثار في الحاضر أو المستقبل.

---

(١) سورة محمد، الآية ٧.

(٢) شيخ من دمشق «رجال من التاريخ»، علي الطنطاوي، ٢/ ٨٥ – ٨٦.

ومن هنا رأيناه يطرح رأيه بوضوح في قضايا كانت مثارة -آنذاك- ولا تزال تطل برأسها بين الحين والآخر، كتعليم المرأة وعملها بالسياسة.. من خلال الواقع التاريخي للسيدة عائشة رضي الله عنها، وكذا سلطانة الهند[١].

يقول عن السيدة عائشة رضي الله عنها «... وكانت عالمة؛ لأن العلم لا ينافي طبيعة المرأة، لم يمنعها كونها أنثى، من أن تكون فيه للذكور إماما.

ولكنها لما جاوزت حدها وخالفت طبعها، ودخلت غمار السياسة، التي يطالب بعض النساء اليوم بخوض غمارها، ولا أقول لكم ماذا صنعت، ولكن سلوا رحاب البصرة، كم حوى بطنها من جثث، سلوا الجمل المشؤوم، كم سال من جنباته من دم؟! سلوا تلك الأرواح فيم أزهقت؟! سلوا تلك الضحايا فيم ذهبت؟!

أنا لا أتهم السيدة.. بأنها هي المسؤولة قضائيا عن هذه الأرواح، ومن أنا حتى أتهم أم المؤمنين؟! بل أقول: إنها باشتغالها بما لم يخلقها الله له، ولا يدعوها الإسلام إليه جرى هذا كله. ونحن حين نكره للمرأة السياسة، لا نريد أن نستأثر دونها بمتعها، ولا أن ننفرد بخيراتها، بل نريد أن ننزهها عن أوضارها، ونبعدها عن نارها..»[٢].

فهو كما نراه قد ألقى برأيه في ظلال الماضي والتاريخ فيما أثير من قضايا معاصرة؛ ليكون رأيه أوقع في النفس وأقنع لها.

كما تبدو وجهة الطنطاوي الإسلامية عندما يحاول أن يربط بين

---

(١) السابق، ج ١ ص٣٣، ج٢، ص١١٨.

(٢) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٣٧.

المقدمات والنتائج، محللا ومعللا؛ ليكشف لنا الغموض الذي يكتنف بعض الشخصيات، أو الذي يفسر بعض المواقف.

فمن إبرازه للمواقف وتفسيره لها، هذا الخبر الذي حاول فيه أن يكشف عن السر في سماحة علمائنا الأوائل، وبركة أعمالهم وكثرة مؤلفاتهم من خلال دلالة هذا الموقف الذي حدث «لأسد بن الفرات»[١] مع أستاذه الإمام «محمد تلميذ الإمام أبي حنيفة»[٢] - رحمهم الله جميعًا. يقول:

«... وأما الإمام محمد فقد تصدر للتدريس وللبحث، وانتهت إليه رياسة العلماء، حتى كان من تلاميذه الإمام الشافعي، أستاذ الإمام أحمد، فلزمه هذا الشاب المغربي «أسد بن الفرات» فكان يحضر دروسه العامة، ثم أحب أن يكون له درس خاص، يغرف فيه ما استطاع من علم الإمام محمد؛ ليحمله إلى بلده، درس خاص!»[٣].

هذا الخبر قد يمر على المستمع أو القارئ دون أن يلتفت إلى بعده أو ينتبه إلى غرض المتكلم منه؛ لذا يقف الطنطاوي مع الخبر ثانية فيعرضه عرضاً واضحاً؛ مبرزاً عظمته ومفسراً طبيعته؛ ليجعله أعمق أثرا وأبقى في نفس المتلقي.

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم أبو عبد الله (١٤٢ - ٢١٣ هـ - ٧٥٩ - ٨٢٧ م)، قاضي القيروان وأحد القادة الفاتحين (معجم الأعلام، ص٩٧).

(٢) محمد بن الحسن الشيباني من موالي بني شيبان أبو عبد الله (١٣١ - ١٨٩هـ) - ٧٤٨ - ٨٠٤م، إمام في الفقه والأصول، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة (معجم الأعلام، ص٦٩٣).

(٣) رجال من التاريخ، ١/ ٦٥، ٦٦.

قال: «انتبهوا – أرجوكم – وتأملوا الموقف.

أستاذ كبير له آلاف التلاميذ، وتجيئه كل يوم عشرات المسائل ليفتي فيها، يقدم عليه شاب غريب مجهول، فيسأل أن يقطع له من وقته الثمين حصة خاصة به، وماذا ترونه يقول له!؟ ماذا يصنع الأستاذ الكبير في إحدى جامعات الغرب اليوم، إن جاءه تلميذ شرقي، فطلب منه هذا الطلب، يطرده، أو يعتذر إليه بلطف، وإذا كان كريما جدا أعطاه ساعة في الشهر، أو في الأسبوع.

أما الإمام محمد، فقد أخذ هذا الشاب المغربي إلى بيته، وأعطاه غرفة بجنب غرفته، وكان يسهر معه الليل، يضع أمام التلميذ قدح ماء، فإذا نعس نضح وجهه ليصحو.

وما طلب منه أجرا، ولا سأله مالا، بل هو الذي كان يطعمه ويسقيه»[١].

بهذا العرض الرائع.. اتضحت عظمة الموقف، وبدت صورته العجيبة في الأذهان، التي قلما نجد لها مثيلاً في عصرنا الحاضر حتى لنتساءل: ما السر في هذا!؟.

ومن هنا يضع الطنطاوي تفسيراً شاملاً لهذا الموقف العظيم وأمثاله، ونتائجه وثماره في حياة أسلافنا الأوائل، وذلك بقوله:

«ذلك لأن العلم كان في رأي أسلافنا الأولين عبادة، وكان قربة

---

(١) السابق، ج١، ص٦٦.

إلى اللّه، فالطالب يطلب العلم للّه، لا للشهادة ولا للدنيا، والأستاذ يعلم العلم للّه، لا للمرتب ولا للمنصب.

ومن ذلك أيها السادة - ظهر في تاريخنا أولئك الأئمة والأعلام، الذين كانوا منار الهدى، وكانوا أساتذة الأرض، وألفوا هذه المؤلفات الكبار التي لا نقدر نحن اليوم على قراءتها، فضلا عن نسخها، فضلا عن تأليف مثلها..»[١].

وهكذا يتضح السر في عظمة هؤلاء الأئمة ومواقفهم الخالدة، الذي لا يمكن أن يكون في غير ما ذكره الطنطاوي من سماحة نفوسهم، وعلو همتهم، وإخلاصهم للّه وعملهم على مرضاته.

وأما عن ربطه النتائج بالأسباب، فمنها عرضه للأسباب التي أدت إلى ضياع الأندلس وانهيار آخر إمارة فيها؛ لتكون من ذلك العبرة التي تولد الوعي والحذر.

يقول: «... أتعرفون من أين جاءت هذه الإمارة التي كتب اللّه أن يكون ضياع الأندلس على أيديها؟ كانت دولة الموحدين تحكم البلاد كلها، والموحدون صحراويون أشداء، لم تكن الحضارة بترفها قد أفسدتهم يوم أقبلوا، ولا المدن بنعيمها، فكانوا ينامون بمثل عين الذئب، ويكشرون عن مثل أنياب الأسد، كانوا أسود قفر، فانجحرت منهم الذئاب وفرت من أمامهم.

---

(١) السابق، ١/٦٦، ٦٧.

فلما ذاقوا متع الحضارة، واستراحوا إلى النعيم صاروا طواويس، فاستأسدت من ضعفهم الثعالب.

وخرج عليهم (ابن هود)[1] فاقتطع لنفسه ما استطاع من بلادهم، وخرج على ابن هود ابن الأحمر، فانتزع منه ما قدر عليه من بلاده، وكان الموحدون في الأصل خارجين على الإمامة العظمى، فكانت مملكة بني الأحمر هذه، مملكة خوارج على خوارج!.

ولم ينج ابن الأحمر من أمراء كانوا أصغر منه، فخرجوا عليه، يشترون منه ملكه برأس ماله، وكان يحميهم الأسبان الذين كانوا يمدون أيديهم أبدا من وراء ستار، فيضرمون هذه النار، فلم يجد وسيلة لاستبقاء لذة الحكم، إلا أن يبيع نفسه للشيطان، ويخضع للأسبان، ويجعل من نفسه ملكا على المسلمين، وتابعا لأعدائهم، وكذلك يصنع حب السلطان!.

وهذه مصيبتنا دائما الانقسام وشهوة الحكم!»[2].

فالطنطاوي - كما نرى - عرض لأسباب الضعف التي دبت في دولة الموحدين حتى قضت عليها، وهي أسباب عامة، لا تدخل إلا من أبواب الهلاك التي يفتحها الحكام بأيديهم. باب الترف والنعيم الذي يؤدي إلى إيثار الراحة والركون إلى الكسل والخمول ولو كان في ذلك

---

(١) سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى مولى أبي حذيفة الجذامي، أبو أيوب، ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م، مؤسس دولة آل هود من ملوك الطوائف في الأندلس (معجم الأعلام، ص٣١٧).

(٢) رجال من التاريخ، ج٢، ص٤٩.

الذل والهوان وضياع كيان الأمة. وباب الخلاف والانقسام الذي يضعف القوي ويقتل الضعيف.

باب موالاة الأعداء والبقاء على مودتهم وإرضائهم، لتحقيق أطماع لا توجد إلا في الوهم والخيال.

وكل هذا مما حذرنا الله منه ونهانا عنه. فقال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[٣].

فجاءت هذه الترجمة لتحمل من العبرة ما يؤكد هذه المعاني، ويثبتها في الأذهان من خلال واقع تاريخي صادق، أحياه بأسلوبه وجسَّده بخياله.

وبهذا يتبين أن للتوجيه نحو التاريخ دوراً عظيماً في عملية التربية الإبداعية والفكرية والأخلاقية، هذا الدور يتمثل في أن التاريخ يعكس البيئة التي خرج فيها الإسلام ونهض، ويرصد هذا النهوض ومقوماته، ويقدم النماذج المشرقة التي كان الأدب الإسلامي في فترة من فترات

---

(١) سورة الحج: آية ٤٥.

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٠٣.

(٣) سورة آل عمران من الآية ٧٣.

تطـوره - منذ بدايات الدعـوة إليه في القرن الماضـي - يحتاج إليها؛ ليكوِّن لديه رصيدا وجدانيا للأديب والمتلقي على السواء، ومنطلقا نحو أدب إسلامي عميق الأصول[١].

كمـا يتضـح دور الطنطاوي الفاعل فـي تناول التاريـخ باستلهامه عبـره، واستخلاصه دروسـه؛ منتهجا في ذلك نهـج المربي المخلص الذي يركز على ما يفيد به الحاضر، ويتطلع به إلى إصلاح المستقبل.

ومع أن هدف الطنطاوي في موضوعاته واضح، وفكره فيها متزن، إلا أن د/ عبـد الله بن صالح المسعود، قد تعجب من إشادة الطنطاوي بالمعتزلة وإمامهم فـي معرض ترجمته للإمام أحمد ناصر السنة[٢]. وأخذ عليه ذلك، كمـا أخذ عليه تهاونه بالمسألة التي دارت حولها تلك الفتنة، وهي «خلق القرآن»[٣].

وعند التأمل تتضح وجهة الطنطاوي في ذلك بما يبطل العجب؛ إذ إن الطنطـاوي يقول الحق كما يعتقده، وهو سلفي لا يدعو إلى الاعتزال حيـن يشيـد بمذهبهم، ولكنه يشيـر ـ بهذه الإشادة ـ إلـى جهودهم في خدمـة الإسلام فـي عهد أبرزت فيه سقطاتهم وغمـط فضلهم، مع أن ظهـور المعتزلة بمنحاهم العقلي - وقتئـذ - كان ضرورة واكبت دخول

---

(١) الأدب الإسلامـي «علـي الطنطاوي بين الإبداع والتنظير» ياسـر محمد غريب، ص٨١، العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٢) رجال من التاريخ «ناصر السنة» علي الطنطاوي، ١/ ١٣٢.

(٣) الأدب الإسلامي «من سمات السيرة عند الشيخ علي الطنطاوي في كتابه (رجال من التاريخ)»، د/عبدالله بن صالح المسعود، ص٥١ العددان (٣٤-٣٥).

العجـم والوثنيين والشعوبيين في الإسلام مـع شبههم الكثيرة التي لم تنثن إلا بالحجة والإقناع العقلي الذي برع فيه هؤلاء.

ويكفـي في ذلك ما ذكره أبو القاسم البلخي المتوفى سنة ٢٩١هـ-٩٣١م فـي كتابه مقالات الإسلاميين، حيث ذكر أبوالحسن بن فرزويه أن قوما من السمنية أتوا جهم بن صفوان، فقالوا له:

هل يخرج المعروف - يعنون المعرفة - عن المشاعر الخمسة؟

قال: لا.

قالـوا: فإذا كان المعروف لا يخرج عن ذلك، وليس معبودك منها، فقد دخل في المجهول!.

فسكـت جهم؛ لأنـه يؤمن أن الله لا تدركـه المشاعر الخمسة التي تقـوم عليها المعرفة في اعتقادهم. ولكنه كتب بما حدث إلى واصل بن عطاء، فأجابه بقوله:

إن المعـروف - يعنـي المعرفة - لا يخرج عـن المشاعر الخمسة، وعـن الدليـل.. فارجـع إليهـم الآن، وقل لهـم: هل تفرقـون بين الحي والميـت، وبيـن العاقل والمجنـون؟ فإنهم يعترفون بذلـك، وأنه يعرف بالدليل، لا بغيره!.

فلما رجع إليهم بذلك، قالوا له:

ليس هذا من كلامك، فمن أين لك؟

قال: كتبت به إلى رجل من العلماء بالبصرة يقال له: واصل، فخرجوا إليه، وكلموه، ثم أجابوه إلى الإسلام»[١].

ومن ثم فإشادة الطنطاوي بالمعتزلة - خاصة - في هذا الموطن الذي يعرض فيه لزلتهم الكبرى مع الإمام أحمد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكون دفعا لما يوهمه الحديث من غمط لحقهم وإنكار لجهدهم في خدمة الإسلام لو خلا الكلام من ذلك؛ إذ إن ما في الشيء من عيب لا ينبغي أن يصرفنا عن الاعتراف بخيره، والانتفاع به، وهذا بلا شك اتجاه محمود.

أما عن قول الطنطاوي: «المسألة التي صارت مدار الخلاف، وهي مسألة لا تستحق هذه العناية وليست من أركان الدين، ولا أمرنا الله بها، ولا يسألنا يوم القيامة عنها وهي: هل القرآن مخلوق أم لا؟»[٢].

فهذا الكلام نراه حقا في عصرنا - بعد موت الفتنة – إذ إن انشغال الذهن وتضييع العمر في الأخذ والرد بهذه المسائل المتصلة بالغيب مما قد يضر بالعقيدة.

وما أروع قول الطنطاوي! حين يوضح هذا الأمر بقوله: «وأنا أدعو إلى شيء جديد.. شيء هو أقرب إلى الحق، وهو أنفع لنا، هو أن ننقل الموضوع من جدال في صفات الله، إلى سلوك في الحياة يصل إلى رضاه، فبدلا من أن نبحث (بحثا غير منتج) في القرآن: هل هو مخلوق، أم غير مخلوق؟ نقول: إن القرآن أنزله الله لنعمل به، فلنعمل به، ونأتمر

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٥٢، ٥٣.

(٢) رجال من التاريخ «ناصر السنة»، ص ١٣٢.

بأمـره، ولنقف عند نهيه. وبـدلاً من البحث في علم الله، وهل هو بذاته أم بصفـة زائدة على الـذات؟ نقول: إذا كان الله يعلم عنا كل شيء من سرنـا وجهرنا، وانفرادنا واجتماعنا، فيجب أن نسلك في الحياة سلوكا موافقا لشرع ربنا، حتى يعلم عنا ما يرضيه علينا.

هذا هو الحق، وما مثل من يصنع هذا ومثل من يجادل في صفات الله، إلا كمثـل طلاب المدرسة، الذين يقال لهم: إنها ستأتي لجنة عليا مـن الوزارة تتولى هـي امتحانكم، فالعاقل منهم يقـول: إذا كانت هذه اللجنـة ستتولى الامتحان، فينبغي أن أستعد وأدرس ولا أدع من المنهج المقـرر شيئا لا أحفظـه، والأحمق يجادل في هـذه اللجنة، كيف يكون امتحانها، هل تتولاه كلها أم أفراد منها، وهل عددها (شفع) أم (وتر) وهـل تجـيء بالسيارة أم بالطيارة؟ ولا يزال في هـذا وشبهه حتى يأتي يوم الامتحان، وهو لم يعد له شيئاً.

إن الله لا يسألنـا يـوم القيامة عن شيء مما بنـى عليه المتكلمون جدالهـم، وأقامـوا عليه مختلـف مذاهبهم، وملؤوا بـه كتبهم. ولو كان ذلك من شروط الإيمان لبحث فيه رسول الله ﷺ وأصحابه...»[١].

فهذا كلام جيد، ويؤكده ما أخرجه الدارقطني من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً: «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها»[٢].

---

(١) تعريف عام بدين الإسلام، علي الطنطاوي، ص٨٠، ٨١.

(٢) قـال الحافـظ ابن حجـر في «فتح البـاري» ولهـذا الحديث شاهد مـن حديث سلمـان أخرجه الترمذي، وآخر من حديث ابن عباس أخرجه أبو داود، ج١٣، ص٢٨٠، ط المكتبة السلفية.

لكنـــي أعتقــد أنه لم يكن ليكفــي هذا (يومئــذ)؛ لأن الفتنة كانت مشتعلــة، والشبهــة قائمة، والقضيــة مثارة، ولابــد أن تفصل؛ لانشغال الأذهــان بهــا، ولأن النـاسـ ينتظرون، والطــلاب سيكتبــون، مما جعل الأمــر مهمًّا، والكلام فيه واجبا، وكل هذا مما يبرز موقف الإمام أحمد ويضخم من إحساسه بالمسؤوليــة؛ لتأخذ المسألة تلك الأهمية، والتي لم ينكر أحد دور الإمام أحمد - رحمه الله - فيها.



المبحث الرابع

موضوعات الطنطاوي وأفكاره في مقالاته

الموضوعات والأفكار في مقالات الطنطاوي

المقال الديني:

يلاحظ في موضوعات الطنطاوي التي تناولها في مقالاته سيطرة الروح الإسلامية، ففي مقالاته التي تكلم فيها عن الإسلام نراه مستجيباً لرؤيته الإسلامية في تناوله له من منظور إسلامي خالص، باعتباره الدين الحق الذي أنزله الله لسعادة الناس جميعاً في كل زمان ومكان؛ حين يتمسكون به، ويستفيدون منه، ويهتدون بتعاليمه في كل شؤون الحياة.

ومن هنا لم ينحرف يوماً كالعلمانيين الذين يرون الدين قديما باليا، لا يصلح لمواكبة العصر، ولا لمعالجة شؤون الحياة، ولم يشذ كالشيوعيين الذين يرون الدين وهماً أو مخدراً للشعوب! بل كان دائما وأبداً يجزم بصدق هذا الدين وحقيقته، ويبرز جدته، وشموليته وصلاحيته لقيادة العالم وتحقيق سعادته، وتخليصه من شقائه وأمراضه؛ ولذا نراه يتعجب من عدم قيامنا به، واستجابتنا له متسائلا ومجيباً في حوار يغزو النفس، ويشعرنا بانفعاله، وعمق إيمانه، وإحساسه بعظمة الإسلام ومنهجه. يقول:

«أكان ذلك لأن الذي ندعو إليه باطل؟

هذا محال؛ لأن الإسلام صيغ من جوهر الحق، لا من أعراض الأوهام.

أم كان لأن الإسلام بليت حقائقه، فلم تعد تقوى على مواجهة الخطوب في عصر تفجير الذرة، واقتحام الفضاء؟ كلا. فالإسلام كان جديداً لما جاء، وبقي جديداً لا يبلى ولا يقدم إلا في الأذهان التي تعجز أو تكسل، أو تزهد في كشف أسرار القرآن التي لا تنفد على مر الزمان، ولا تزال أبداً يفيض نبعها لمن يعرف طريق الاستقاء منها، ولا يزال الذهن البشري يكشف في كل عصر من هذه الأسرار ما لم يكشفه السابقون.

لقد أظهر تقدم العلوم في أيامنا معاني آيات كانت في خفاء، وكان المفسرون يحاولون إدراكها فيحومون، ولا يصلون. ولا تزال في القرآن آيات فيها إشارات، وتلميحات لأسرار سنن الله في الوجود، وقوانين في الطبيعة لم يصعد العلم بعد إلى الذروة التي سيكشفها منها، وهذا من الأدلة على أن القرآن كتاب لم يخرج من فكر بشري؛ لأنه يستحيل على الإنسان مهما كان عبقرياً أن يشير إلى علوم لم تكن في أيامه، ولا بعد أيامه بألف سنة، من عرفها أو سمع بها، أو قدر وجودها.

كلا - أقولها مرة ثانية - فالإسلام كان صالحاً لعصر محمد وصحبه، وبقي صالحاً في عصر الذرة والصاروخ ومركبات القمر، وسيبقى صالحاً، وسيبقى دستور الحق والخير، والجمال، وطريق سعادة الجسم، والعقل، والروح في كل عصر»[١].

---

(١) فكروا: لماذا؟ فصول إسلامية، علي الطنطاوي، ص ٢٠٣،٢٠٤.

ويبــرز توجه الطنطاوي الإسلامي من خــلال نظرته إلى العبادات باعتبارهــا ركائز الإســلام، وتعاليمه السامية، وتناولــه لها بما يوضح مظاهر العظمة فيها، ويبين جوانبها الروحية المشرقة في سبيل الشعور بأهميتها، وقيمتها، والوصول بالمسلمين إلى تعظيمها، والتمسك بها.

ففــي مقالتــه «اللّه أكبــر»[١] نراه يحــاول أن يستجلــي حقيقة هذه الكلمــة، حين تمثل شعــاراً إسلامياً يثير في المسلــم خواطر تجتث كل مــا في نفسه من معاني الخوف، والقلق، والرهبة، والفزع؛ لتستبدل بها الأمن، والقوة، والثبات باللّه الكبير المتعال. حيث يقول:

«وإذا اصطــف المسلمــون للقتــال، ورأوا جيش العــدو كبيراً، كثير العدد ذكروا أنهم مع اللّه، وأن اللّه أكبر.

اللّه أكبــر.. كــم هتف بها المسلمــون في معاركهــم فارتجت منها الأرض، وتزعزت منها الحصون، وانتزعوا بهــا النصر من فم العدو، وأزاحوا بها التيجان من رؤوس الجبارين...»[٢].

ويبــرز توجه الطنطــاوي الإسلامي من خلال موقفــه الواضح من الدعوات الحديثــة، والشعارات التي تخدع الكثيريــن، وتستهويهم دون وعي لمدلولها الذي يستهدف هدم القيم، والنيل من الإسلام.

مــن ذلك مقالته «ما هي التقدمية»[٣] التي يستجلي فيها دلالة هذا

---

(١) مقالات في كلمات، علي الطنطاوي، ٢/ ٢٢٧.

(٢) مقالات في كلمات، ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) مقالات في كلمات، ١/ ١١٩

اللفظ البرّاق «تقدمي» والذي يحمل في طواياه خبثاً شديداً، يستتر أتباعه بجمال لفظه عن حقيقة معناه ودلالته. إذ يقول:

«وهل كل جديد خير من كل قديم؟

إن أقدم شيء في الدنيا هو العقل فإذا تركنا الدين وصرنا ملحدين ـ لأن الدين قديم ـ فيجب أن نترك العقل ونصير مجانين؛ لأن العقل أقدم من الدين!.

فما معنى التقدمية إذن؟ أخشى أن يكون معناها تقليد الغربيين في الخير والشر، فإذا كشفوا العورات كان سترها رجعية، وإن أعلنوا الزنا كان إعلانه تقدمية، وإن لبسوا «البنطالون» من فوق، و«الجاكيت» من تحت، أو قعدوا على الأرض، ووضعوا الكراسي على رؤوسهم، وأكلوا الحساء «الشوربة» بالشوكة، والبطيخ بالملعقة؛ فقد وجب في شرعة التقدمية أن نصنع مثلما صنعوا، وإلا كنا رجعيين!... إن كان هذا هو المراد بالتقدمية فتجمّعوا، وتشجّعوا وقولوا، وأريحونا، ولا تدعوه يطالعنا من خلال السطور، ومن بين الكلمات..»[١].

ولم يكتف الطنطاوي بكشف زيف الشعارات، بل كان يحذر من البدع، ويثور على الانحرافات، ويكشف الضلالات، كما في مقالته «تعقيب»[٢]، التي يكشف فيها عن أصل البدع المنتشرة بين الناس: من

(١) السابق، ١/ ١٢٠.

(٢) فصول إسلامية، ص١٨١.

التبرك بالقبور، والتوسل بأصحابها، إلى انصراف الشباب عن الدين، وتوهم قصوره عن مواكبة أحداث العصر، ومخاطر ذلك؛ ليقدم العلاج المناسب لهذا الزخم الذي عكر صفو الحياة الإسلامية من خلال الواقع العملي لا الخيال والأماني، ويلخصه في النهاية بقوله:

«وملاك الأمر تعريف الشباب بالإسلام، وترجمة كتبه إلى لسانهم؛ لأن الإسلام في ذاته قوة هائلة، سره فيه، وفيه دلائله، فمن عرفه على حقيقته، لم يستطع إلا أن يكون مسلماً، فإذا كان العلماء حريصين حقاً على ازدهاره، وعودة أهله إليه، ورجوع الأمة الإسلامية إلى مجدها فهذا هو الطريق..»[١].

المقال الاجتماعي:

يبرز اتجاه الطنطاوي الإسلامي من خلال رؤيته المتزنة بميزان الإسلام في حل قضايا المجتمع، ومعالجة مشكلاته عن رغبة في إعادة توازن المجتمع ورد كل شيء إلى أصله الإسلامي الذي انحرف عنه.

فالطنطاوي إسلامي في نظرته إلى المرأة؛ حيث لم يجعل منها دمية في يد الرجل يستمتع بها، ثم يحطمها وقت ما يشاء، ولا يرضى لها أن تترك أنوثتها؛ لتصارع الرجال في ميدان الأعمال وتحمل الأعباء التي تعرضها للمهانة والشقاء، وتحملها فوق حملها الثقيل حملاً يسوقها إلى فقد ذاتها ونسيان نوعها.

---

(١) السابق، ص ١٨٦.

بـل يسعى بها لتكون ملكة متوجة في بيتها، تتعلم ما يصلحها لبيت زوجها، ورعاية أولادها؛ لتجد سعادتها الحقيقية، وتحقق ذاتها، وتشعر بدورها في صنع المجتمع، وتربية الأجيال. يقول:

«والبنــت مهما بلغت من المنزلــة والغنى، والشهرة والجاه، لا تجد البنت أملها الأكبر، وسعادتها إلا في الزواج، في أن تكون زوجاً صالحة، وأمــاً موقرة، وربة بيــت. سواء في ذلك الملـكات والأميرات، وممثلات هوليــود ذوات الشهــرة والبريق الــذي يخدع كثيرات مــن النساء!. وأنا أعــرف أديبتين كبيرتين فــي مصر، والشام، أديبتيــن حقاً، جمع لهما المــال، والمجد الأدبي، ولكنهمــا فقدتا الزوج، ففقدتـا العقل وصارتا مجنونتين، ولا تحرجيني بسؤالي عن الأسماء فإنها معروفة..»[١].

كمـا تتضح وجهــة الطنطــاوي الإسلاميــة من خــلال نظرته إلى الشبــاب، واهتمامه بقضايــاه، ومشاركته له في عواطفــه، واهتماماته وآمالــه، باعتباره طاقة المجتمع، وأداته نحــو التحضر، ومستقبله نحو النهوض والإصلاح حين يُبنى بناءً قوياً، ويوجّه توجيهاً إسلامياً فاعلاً، منتجــاً، بعيداً عن لوثات الفكر، وخور العزائــم، واضطراب العواطف. ومن هنا يقول:

«الشباب يا سادتي، الواحة الفريدة في صحراء الحياة، وهو الربيع في سنة العمر، هو البسمة الوامضة على ثغر الزمان القاطب.

---

(١) يا ابنتي صور وخواطر، علي الطنطاوي، ص١٥١.

لست أعني هذا الشباب الغض الغريض، الحلو الناعم، الذي يجرح خديه لمس النسيم، ويدمي بنانه مس الحرير، والذي ترق عنده الحياة، حتى تسيل من العيون نظرات ساحرة مغرية، وتدق جلائل الأعمال فيها حتى يستحيل إلى فكرة تطير كالفراشة بين أزهار الجمال في روضة الحب، أو نسمة معطرة تهب من حواشي فتاة فتانة، أو قبلة فيها خمر، وعسل تجمع لذائذ الدنيا في رشفة مسكرة.

لست أعني هذا الشباب الفاتن المتأنث الذي يعيش للهوى، والأحلام، ويبدأ تاريخ حياته بالحاء (ح)؛ فلا يلبث أن ينتهي بالباء (ب)...

إنما أعني الشباب الحي، العامل، القوي، المتين، الذي وضع له غاية في العيش أبعد من العيش، ونظم نفسه حلقة في سلسلة شعبه، واتخذ له مطمحاً، ومثلاً عالياً ثم عمل على بلوغه، وسعى إليه باندفاع الصواعق المنقضة، وقوة العواصف العاتية، وثبات الطبيعة، وألقى في سفر حياته الراء بين الحاء، والباء! وهل الحياة إلا حرب دائمة، ونضال مستمر، وتنازع على البقاء، وتسابق إلى العلاء..»[١].

وتتضح وجهة المصلح الاجتماعي، من خلال نظراته إلى التعليم، والمناهج، باعتبارها أهم شيء في إحداث الرقي والتطور. والطنطاوي ظل حريصاً على تطوير المناهج - وخاصة الدينية - والإشادة بها داعياً إلى تكثيفها، وتطويرها، على نحو ما يقول:

---

(١) «المثل الأعلى للشباب» فصول إسلامية، ص٤١،٤٢.

«... وحين يطّلع هؤلاء التقدميون الذين ربّاهم الأجانب على اعتبار الإسلام (بعبعا) مخيفاً، وشيئاً عنيفاً رجعياً، حين يطلعون على الإسلام الحقيقي، لا الإسلام الذي صوره لهم بعض المشايخ، أو رأوه في بعض الكتب المتأخرة، يسعون هم أنفسهم إلى تعلم علوم الإسلام، ويسعى إليه النصارى للعلم لا للدين، ومن لم يصدّق، فليسأل الأستاذ الكبير (فارس بك الخوري)[١] عن قيمة الثقافة الإسلامية وعن أثر القرآن في الفصاحة، والبيان»[٢].

وتتضح وجهة الطنطاوي الإسلامية في موضوعاته وأفكاره، من خلال اهتمامه بالإنسان في مراحل حياته المختلفة، وتقديمه له ما يتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمره، فهو كما تكلم عنه شاباً، ورجلاً، لم يهمله طفلاً، بل قدم له الكثير من التوجيهات والآراء التربوية التي تخصه، فقد أوصى برعاية الأطفال، وحمايتهم من التشرد حتى لا يكونوا مجرمين في المستقبل، وحذّرهم مما يفسد أخلاقهم، من المجلات والقصص المترجمة، والمقتبسة، وطالب بثقافة الأطفال الإسلامية التي تربي فيهم الجد، والشجاعة، وتبث فيهم الطموح، والفضيلة ضارباً من نفسه المثل، بما قدمه لهم من قصص كان محورها الأساسي التوجيه، والتهذيب والتربية الإسلامية بأسلوب أدبي سهل ورشيق[٣].

---

(١) فارس بن يعقوب الخوري (١٢٩٠-١٣٨١هـ) = (١٨٧٣-١٩٦٢م)، من رجال السياسة والأدب في سوريا (معجم الأعلام ص٥٨٤).

(٢) «دروس الديانة في المدارس» فصول إسلامية، ص ٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) الأدب الإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي مربياً إسلامياً» أحمد حسن الخميسي ص ١١٦، ١١٧، العدادن (٣٤ – ٣٥).

والطنطاوي إسلامي، حين يعالج مشكلة الفقر، بما طرحه الإسلام من تفعيل دور الرابطة الأسرية التي يتحمل فيها الغني أعباء قريبه الفقير العاجز عن الكسب، انطلاقاً من أن من يرث قريبه إذا مات، ينفق عليه إذا عجز أو افتقر، مشيداً بهذا الحل الذي قدمه الإسلام في باب النفقات والتضامن الاجتماعي[١].

وهو إسلامي - أيضًا - حين يدعو إلى تحقيق العدالة الاجتماعية، وتقريب الفوارق الطبقية؛ إذ لم يدع إلى ذلك عن طريق الثورة على الأغنياء، أو استباحة أموالهم، وإنما دعا إلى ذلك من منطلق الرؤية الإسلامية التي تحض الغني على الإحسان إلى الفقير، وإطفاء نار حرمانه بِذَنوب من عطفه وإحسانه؛ ليضمن بذلك سعادة الدارين، والعيش الهانئ الآمن من ثورة الفقير، وتمرده. يقول:

«ولسنا والله شيوعيين ولا اشتراكيين، ولا يرانا الله ندعو إلى هذه (اللعنة الحمراء)، ولا نؤلب الناس بعضهم على بعض، ولكنا ندعو إلى الشعور الذي لا يكون الإنسان إلا به إنساناً، والإحسان هو شعبة من شعب دين الإسلام...».

فمن اختار من الأغنياء وأرباب المرتبات الضخام ألا يكون إنساناً، ولا مسلماً، فليفعل، فإن في جهنم مثوى ومتسعاً للمتكبرين»[٢].

---

(١) مقالات في كلمات، ٢/ ٢٣٩.

(٢) في سبيل الإصلاح، ص١١٩.

المقال السياسي:

لا نخطئ القول إذا قلنا: إن الطنطاوي إسلامي في رؤيته السياسية؛ إذ يرى أن السياسة لا ترتجل، بل لها ضوابط وقيود إسلامية تحميها من الشطط، وتعصمها من الطغيان والإفساد. فالسياسة عنده ليست منفلتة أو منفصلة عن الدين، وليست ألاعيب وحيلاً وصراعاً على الكسب والربح من أي سبيل، وليست غاية تبرر الوسيلة كما يرى أصحاب الرؤى المنحرفة.

ومن هنا يؤكد ـ دائماً ـ: «أن الفرق بين الإسلام وغيره أنه دين، وسياسة، وعلم، وتشريع في الوقت نفسه. فهل يعاب الإسلام بهذا؟ والذي يقول: إن السياسة أو الحقوق ليست من الإسلام فعليه أن يمحو من القرآن براءة، والأنفال، ومئات الآيات التي تبحث في الأحكام، والتي أفردها (الجصاص)[١] وغيره من العلماء بالتأليف فيها»[٢].

ومن ثمّ كان يرى أن الإصلاح السياسي، والاجتماعي لن يكون أبداً بسن القوانين، وتشديد العقوبات، بقدر ما يكون برد الناس إلى الدين، وتقوية شعورهم، وتهذيبهم من خلاله.

فيقول مخاطباً الحكام، والساسة: «... واعملوا على ردّ الناس إلى الدين فإنه لا يدفع هذه الشرور، ولا يدرأ هذه المفاسد، ولا يمنع هذا الفساد إلا الدين.

---

(١) أحمد بن علي الرازي، أبو بكر الجصاص ٣٠٥ – ٣٧٠ هـ/ ٩١٧ - ٩٨٠م، (معجم الأعلام، ص٥٤).

(٢) من مقالة «الدين والسياسة» مقالات في كلمات، ١/ ٢٢١.

إن الـذي يخاف القانون وحده، يخافه ما بقي الشرطي واقفاً، فإن ذهـب الشرطـي رتع الرجل. فهـل تستطيعون أن تقيمـوا على كل رجل شرطيـاً يراقبـه؟ وإذا كان الشرطـي نفسـه يحتـاج هو - أيضـاً - إلى مراقـب؟ أما الـذي يخـاف اللّه فإنه يعلم أنـه يراه دائمـا، وأنه مطلع عليـه فـي سره وجهره، وهو معـه أينما كان، فيمنعـه خوفه من اللّه من أن يسـرق،أو يزني، أو يظلم أحـداً، أو يعتدي على أحد، وها أنتم هؤلاء جربتم ترك الدين، والبعد عنه، والزهد فيه فماذا وجدتم؟»[١].

فالطنطاوي بذلك يبين الطريق للحاكم، أو السياسي المسلم الذي يريـد أن ينقاد لـه المجتمع، ويرغب فـي إصلاحه واستقامتـه؛ مؤكداً أن ذلـك الطريـق هو طريـق اللّه في شرعه الحكيـم؛ لأن الحاكم حين يستمـد أحكامه من شرع اللّه سيجد استجابة، وسيرى طاعة، وانقياداً، وانتمـاءً؛ لأن الشعـب المسلم حيـن ذاك سيرى أن فـي طاعته للحاكم طاعـة للّه، وفي انتمائه له انتماء للديـن، وبذلك تتحقق رغباته، وتثمر نظمه، وتجـدي توجهاته الإصلاحية؛ لأنها تقـوّت بالشرع، وهيمنت به على النفوس.

أما حين يبتعد الحاكم عن منهج اللّه؛ فإنه بذلك سيفقد تلك القوة الهائلـة التـي يمكنها الشرع له فـي اقتياد النفوس وانتمائها؛ فتصبح قراراته، وتصير نظمه وقوانينـه موضع الريب، ومحل التهرب والتمرد مهما حاول فرضهـا بالقمع والعقوبات، كما هو الحال ـ مثلا ـ في تهرب

---

(١) من مقالة «أساس الإصلاح»، مقالات في كلمات، ٢/١١٧.

الناس من الضرائب التي فرضها الحاكم، وسرعة استجابتهم في إخراج الزكاة التي فرضها اللّه تعالى.

كما نبّه الطنطاوي الحكومات إلى ضرورة نشر الدين، وتعميق أثره في النفوس، خاصة بعدما تأكد للجميع بالنظر والتجربة أن ما يحدثه الدين في النفوس من التقويم والإصلاح لا يمكن أن يحدثه غيره من قوانين وعقوبات، ودليل ذلك قائم في كل نفس؛ إذ يستشعر المسلم الذنب، ويتملكه الخوف إذا علم أنه خارج على أمر اللّه، كما لا يمكنه التصريح بخروجه عليه، بخلاف خروجه على أمر غيره، وعدم اكتراثه بذلك.

المقال الوطني:

تبدو إسلامية الطنطاوي من خلال طرحه لفكرة الوطن الإسلامي الكبير الذي تزول فيه الحدود، وتمزق فيه القيود. ومن هنا كان كثير الدعوة في موضوعاته الوطنية إلى الربط بين أقطاره، وتحقيق وحدته، باعتباره وطناً واحداً يجمعه دين واحد، وشعور واحد، ومصير واحد.

يعبر عن هذا الشعور بقوله: «أما إنني إن أحببت مصر؛ لأن منها أصلي، وأحببت الشام؛ لأن فيها مولدي، وأحببت الحجاز لأن إليها قبلتي، فإني أحب العراق؛ لأن فيها أجمل ذكرى الماضي، وأحب كل بلد يقول أهله: لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه؛ لأنه بلدي، وأهله أهلي..»[١].

---

(١) «من دمشق إلى بغداد»، بغداد مشاهدات وذكريات علي الطنطاوي، ص٣٢.

ويثور على قبولنا تجزئة الوطن الإسلامي، والفصل بين أقطاره بهذه الحدود، التي صنعها المستعمرون لإضعاف شوكة المسلمين، والانفراد بمن يريدون منهم، بقوله:

«وهل كل من حمل شارب الرجل ولبس لباسه كان رجلاً؟ لو كان هؤلاء كلهم رجالاً، فهل كان يمكن أن تبقى بلاد العرب إلى اليوم مجزأة مقطعة تفصل بينها حدود، يطؤها الأجنبي ويتحكم فيها، ويستغلها، ويستعبد أبناءها..!؟»[1].

كما تعجب الطنطاوي من عدم قيام الوحدة الإسلامية التي أصبحت حلماً، وأملاً برغم توافر مقوماتها لدينا! فقال:

«اعقلوا يا ناس! فإن الألماني يدخل فرنسا، وإن الفرنسي يلج ألمانيا، فلا يمشي فيها ساعة حتى يرى كل شيء قد تبدل فلا اللغة باللغة، ولا العادات بالعادات، ولا الوجوه بالوجوه، أما العربي!.. أما أنا في بغداد.. ماذا تغيّر عليّ؟ أليس ماضي بغداد ماضيّ؟ وحاضرها حاضري؟ أليس الرشيد خليفتي؟ والوحدة، والعزة أملي..؟»[2].

ومن هنا فقد برئت موضوعات الطنطاوي وأفكاره من العصبية، والقومية، فكتب في قضايا العالم الإسلامي بشعور إسلامي واحد، مرشداً، ومناقشاً، وموجهاً، ومسانداً، يدفعه حبه للإسلام، وأخوّته

---

(١) «رجل في ملابس النساء»، في سبيل الإصلاح، ص٤١.

(٢) بغداد مشاهدات وذكريات، ص١٤١.

للمسلمين إلى النصح السديد، والرأي الرشيد الموافق للإسلام. يقول في مقالته «عودوا إلى محمد» التي كتبها في ذكرى مولده ﷺ:

«هــذا يوم مولــد محمد! فيا أيها العرب جميعــاً من مسلمين، ومن نصارى، من شاء منكم أن يعرف فضل محمد على العرب، فليفكر أين كان العرب في التاريخ لولا محمد!؟

أي ثقافــة كانت لهم!؟ وجمــاع ثقافتهم هذا الشعر: شعر بدوي في أغراض البدو، وصور البادية؟

أي عــز كان لهم، وملكهم فــي العراق مدير ناحية في دولة كسرى، وملكهم في الشام عامل في مملكة قيصر!؟

أي جامعــة كانت لهم؟ وهــم أشتات لا تربطهم أخــوة العروبة، بل تجمعهــم رابطة القبيلة، وكانــوا مختلفين أبداً: اليمــن تعادي عدنان، وبكر تحارب تغلب، وعبس تناوئ ذبيان، وكان أمرهم فوضى، لا شرعة إلا شرعــة القوة، ولا حكم إلا حكم السيف، وكانوا قابعين وراء رمالهم، قانعيــن بســوء حالهــم، وبلاغــة مقالهم، على طيــب العنصــر، ونقاء الجوهر.

فمن الــذي بدلهم تبديلاً بين عشية وضحاها، حتى كأن قد خلقوا به خلقاً آخر؟ من صنع من انقسامهم وحدة لم تعرف لها الدنيا شبيهاً؟ ومن جهلهم أمة علمت أمم الأرض؟ وأخرجهم من عزلتهم حتى فتحوا بسيفــه الدنيا وهدوا بهديــه العالم، ورفعوا بيده رايتهــم على كل أرض وتحت كل نجم؟

مـن الـذي أقام حضـارة دمشـق، وبغـداد، وقرطبـة، والقاهرة، والقيروان، وأصفهان، وبلخ، ودهلي، إلا محمد!؟

مـن الـذي أخرج القـادة الذين كانـوا عباقرة الميـاديـن، وأبطال الحروب إلا محمد؟

من نشّأ العلمـاء الذين كانوا نبراس الدنيا، وهداة العقول، في كل علم معقول، أو منقول، إلا محمد!؟

مـن مـد للعـرب أسبـاب المجـد، وأعطاهـم مفاتيح الخلـود إلا محمد!؟

أي مفخرة يفخر بها اليوم عربي، لم تكن من صنع محمد؟ احذفوا من تاريخ العرب كل شيء إسلامي، ثم انظروا ماذا يبقى!؟[١].

وهكـذا يبيـن الطنطاوي في إيمـان صادق أن الـذي صنع العرب، وجعـل لهم وجـوداً، وكيـانـاً إنما هـو الإسـلام واتباعهـم لنبيه ﷺ فـإن هم عادوا اليوم إليه عـاد إليهم ما كان لأسلافهم من مجد وعزة. يقول:

«فإذا أردتم يا أيها العرب، أن تحتفلوا بمولد محمد حقاً، فعودوا إلى محمد يعد لكم عزكم، ويرجع مجدكم وتسودوا الدنيا مرة أخرى»[٢].

---

(١) مقالات في كلمات، ١/١٨٠، ١٨١.

(٢) مقالات في كلمات، ١/١٨٢.

وبذلـك يتضح هدف الطنطاوي الإسلامي مـن مقاله الذي جعلنا نؤمـن بضـرورة وحدة الأمـة الإسلاميـة، ونشعر بوجـوب انتمائنا إلى الإسلام وحده، وصدورنا عـن قيمه وتعاليمه، وتمسكنا بمنهجه القويم الذي يضمن لمن أخذ به العزة، والمجد، والسيادة.

المقال النقدي:

يبـرز اتجـاه الطنطـاوي الإسلامـي في نقـده من خـلال تصوره الصحيـح لمعنى النقـد؛ إذ كان يراه بنـاءً وتقويماً نحتـاج إليه؛ ليقود خطانا إلى الطريق الصحيح.

وإن الناقـد ليس عـدواً ولا خصماً وإنما هو صديـق وناصح، حين يقـوم بـدوره دون مجاملة أو إجحاف، وحين يـدرك غايته، ويسعى إلى هدفه في حيدة وإنصاف.

ففـي مقالتـه «في النقـد»[١] نرى الطنطـاوي يعزو سبـب اختناق النقـد وموته، إلى ابتعاد النقاد به عـن غايته، ومثله العليا، مما جعلهم يخلطـون بينه وبيـن السب والشتم، وإلى تحاشـي الأدباء له، وغضبهم منـه، واعتبارهم النقاد خصوماً لهم؛ ليعلـن لنا بعد ذلك عن منهجه النقدي القويم. فيقول:

«من أجل ذلك مات النقد في بلادنا، وجهله الناس ولم يبق من يفرق بينـه وبين السب والشتم، ويعلـم أن الذي ينقد ليس عدوا ليسب ويشتم؟

---

(١) فكر ومباحث، ص١٧٤.

ولا خصماً يريد أن يهدم الأديب الذي ينقده، ولكن الذي ينقد أديب له ميزان حساس وصنجات موزونة، وعنده مثل أعلى فهو يقيس عليه القطعة التي ينقدها، ويبين مقياسها ويعطيها ما تستحق من التقدير.

هذا هو النقد الذي سأكتبه وسأجتهد أن أدنو به من قواعد النقد الأدبي، وسأفتح صدري لكل جواب يأتيني أو اعتراض يرد علي، وسأزنه بميزان الحق، ثم أحكم به لي أو علي..»[(١)].

وكان الطنطاوي ليقظة حسه، وغيرته يهاجم كل ما يفسد الذوق، أو ينال من الخلق والدين.

يقول أستاذنا الدكتور/ محمد رجب البيومي عنه: «وكنت آخذ عليه شدة هجومه على مخالفيه، وأعد ذلك تسرعاً لا موجب له، ولكن مرور الزمن بعجائبه المدهشة جعلني أستسيغ هذا الهجوم في بعض مناحيه؛ إذ أجد نفسي أحياناً أمام أناس يتنكرون لأشرف مبادئ الإسلام، ويعدونها تقهقراً للوراء جرياً وراء أهواء جامحة مريضة، وصاحب الأهواء المغرضة لا يعنيه دليل منطقي أو يفحمه برهان عقلي، بل يسدر في غلوائه متبجحاً متطاولاً، ولا بد لهؤلاء من غضبة مضرية يقوم بها كاتب متوهج الأحاسيس من أمثال علي الطنطاوي، وأبي الحسن الندوي، ومحمد الغزالي ممن رزقوا مع قوة الإيمان، وصلابة اليقين حرارة الأسلوب وقوة الدليل...»[(٢)].

---

(١) من مقالة «في النقد»، فكر ومباحث، ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) «الشيخ علي الطنطاوي»، د/ محمد رجب البيومي. مجلة المنهل. ص٩٠، عدد ٥٦١، مجلد ٦٥، رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٩م.

وهـذه حقيقة، إلا أنه يؤخذ عليه في هـذا.. اندفاعه الشديد الذي حملـه ـ أحيانـا ـ على المبالغة فـي المنقود، والكلام عنـه بما قد يغري بـه...، فـكان نقده لـه كالدعـوة إليه، والإعـلان عنه، كما فـي مقالته «نـداء إلى أدبـاء مصر»[١]، و«نحن المذنبـون»[٢]. وفي مقالته «عدوان علـى مصر»[٣] التي يتعرض فيها للنقـد، والتحذير من (فيلم) يعرض فـي مصر يحمل من سـوء الغاية، وخبث الوسيلة مـا ينال من الأخلاق والآداب، والتعليم في مصر. يقول:

«يعرضـ في مصر الآن فيلم اسمه «لبناني في الجامعة» تظهر فيه الجامعـة أولاً ببنائهـا وقبتها حتى لا يبقى عند أحـد شك أنها الجامعة المصريـة... فتـرى في بركة الجامعـة الطلاب والطالبـات بالأجساد العارية، والعورات البادية، ثم تبصرهم يعمدون إلى طالبة لابسة ثيابها الكاملـة، فيحملونها ويلقونها فـي الماء، فإذا خرجـت كالقطة المبللة حفوا بها ضاحكين عابثين...»[٤].

ومثل هذا الوصف للمنكر وتعيين اسمه ومكانه قد يغري به ضعاف النفوس ممن كانوا يجهلونه قبل ذلك.

وقد أدرك الطنطـاوي خطورة هذا الأمر، ولذلك رأيناه ـ بعد ذلك

---

(١) صور وخواطر، ص١٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠٢.

(٣) هتاف المجد، ص٣٦.

(٤) عدوان على مصر، «هتاف المجد»، ص١٨٩.

في ذكرياته يحذرنا من المبالغة في نقد المنكر، إلى حد تعيين موضعه أو اسمه، حتى لا يكون في نقد المنكر إعلان عنه ودعاية له. فيقول:

«ومن طريف أخبار.. الوعاظ، أذكره ولو لم يكن هذا مكانه، أن أحد مشايخنا جاءه من يقول له: إن (منيرة المهدية) تغني وترقص في (العباسية)، فأعلن غضبه في درسه في «الأموي» وقال: كيف ترقص المرأة أمام الرجال وهي كاشفة جسدها مبدية مفاتنها!؟ أين الدين، وأين النخوة!؟

قالوا: نعوذ بالله، وكيف يكون هذا، وأين يا سيدنا، ومتى؟

قال: في العباسية في الليل بعد صلاة العشاء، وكان نصف المقاعد خالياً فامتلأت تلك المقاعد كلها! فلينتبه الواعظون، فكثيراً ما تكون المبالغة في وصف المنكر دعاية له»[١].

المقال الوصفي:

تظهر الإسلامية في وصف الطنطاوي من خلال توجهه الملتزم الذي ينأى به عن وصف المحرم، والإشادة بما يكره الشرع؛ متجهاً في وصفه إلى إبراز الجمال المباح، والجلال المتاح، الذي يلبسه أثواباً قشيبة ويعطيه من عواطفه، وأحاسيسه ما يجعله جديداً متلوناً بألوان

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ١/٣٦.

نفســه التواقة إلــى البراعة والجمــال، والقدرة والجــلال في خلق اللّٰه وكونه العظيم؛ ليخرج بالإنسان من ماديته ومحدوديته إلى عالم فسيح من المعاني الجميلة، والمتعة النبيلة التي قال عنها:

«تمــر على الإنســان ساعات، بل لحظــات ينسى فيها هــذا العالم المــادي، وهذه الحياة القصيــرة الناقصة، ويحس كأنــه يعيش بنفسه حيــاة أكمل وأجمل، تخالط نفسه مشاعر لا عهــد له بها، ولا يقدر على وصفهــا، وتغمر قلبه لــذة لا يعرف أي شيء هي، فيشعــر أنه انتقل إلى عالــم سحــري جني عجيب، كهــذه اللحظات التي تمــر علينا في غمرة التأمــل النفســي، أو في هــذه الموسيقــى، أو في نشوة الحــب، أو حين الاستغراق في العبادة والمناجاة...»[١].

فمن هذه المقالات التي نعيش معه فيها هذه اللحظات من الإحساس الجميل، مقالته التي يصف فيها دمشق، ويشيد بمعالمها، فيقول:

«فيــا من في دمشق تنشقوا عبيــر الخلود من دمشق، فما تلقون إن فارقتموها مثلها، مثل ميزانها، وشاذروانها، وغوطتها، ووراديها، والأنهار السبعة التي تمتد على السفحين في الربوة، كأنها عنقود اللؤلؤ في جيد الحسنــاء، والبساتيــن التي يضل فيها النظر سكــرا من الفتون، وهذي المنارات، وهــذه القباب، والمسجد الذي تكســرت على جدرانه أمواج القــرون وهو قائم، وارتدت عنه العصور وهو شامخ يروي لأبناء الأرض تاريــخ الأرضــ مذ كان معبداً وثنياً، إلى أن صــار كنيسة نصرانية، إلى

---

(١) «إلى لبنان»، مع الناس، علي الطنطاوي، ص٢١٨.

أن غـداً جامعاً إسلامياً. وهذا الجبل الـذي يفتر أبداً عن مثل ابتسامة الأمل في وجوه المطالب على حين تعبس الجبال، لن تلقوا بعدها مدينة مثلهـا.. ثيابهـا زهر، ونسيمها عطـر، وحديثها شعـر، وجمالها سحر، ومياهها خمر حلال؛ لأنها جنة المستعجل...»[١].

فهـذه السلاسة في الوصـف، والبراعة في نقـل الأحاسيس تجعل الطبيعـة الساكنة الميتة حية متحركة تنطـق بالحكمة، والجمال؛ لتهز النفس، وتوقظ الحس.

والطنطـاوي في رحلاته الكثيـرة ينقل إلينا مشاهـده عبر وصفه الرائـع، بـل إنه يحملنـا معه إلى عالمـه الجميل، ويخرجنـا من دنيانا الضيقـة، وعالمنـا المحـدود إلى عالمـه الواسع الرحب؛ لنـرى صوراً عجيبة، ونشعر معه بأحاسيس جديدة.

مـن ذلـك وصفـه الرائع لثـورة نهر دجلـة، وتصويـره لمشاعره، وأحاسيسه تجاه هذا الحدث، يقول:

«تركت الدار وخرجت أسبح في هذا الخضم من الناس أدفع النساء، والشيـوخ والشبـاب لأصل إلى الشاطئ فأعمل عمـلاً، ولست أدري ماذا أعمل؟ ولست أحسن السباحة، ولست أعلم ما الفائدة من ذهابي..

ولم أفكر في شيء من ذلك؛ لأن الإنسان لا يفكر في ساعة الخطر، وإنما يعمل.

---

(١) «بردى والغوطة»، ذكريات علي الطنطاوي، ٢/ ٢٤١.

فلما وقفت على الصدع هالني، وأرعبني أن النمر قد أفلت من القفص، وخرج يعدو مجنوناً مستطار اللب كاشراً عن أنيابه يزمجر ويزأر، ويبرق ويرعد.

إن الماء يندفع إلى العلاء بقوة الديناميت، ثم ينزل على الحقول فيمضي مكتسحاً كل شيء في طريقه.. يقتلع الأشجار الضخمة، ويقذف بها كأنما هي عيدان الكبريت، وينسف البيوت كأنما هي علب من الورق، ويتدفق من كل جهة، وقد ابتلع صوته المدوي كل ضجة، وملأ الأسماع بترتيلة الموت المستمرة.

وكان لمنظره في ظلمة الليل صورة لا توصف.

وأقدم الناس يسابقون الماء؛ ليقيموا في وجهه السدود؛ ليقيدوا هذا النمر الهائج بحمية منقطعة النظير، وحماسة نادرة المثال...

وأقدمت أخوض هذه اللجة من الناس؛ لأصل إلى اللجة الطامية من الماء.

أمشي في ظلمتين: ظلمة هذا الحشد المزدحم، وظلمة الليل البهيم!.

أتعرض لرهبتين: رهبة الليل وسواده، والسيل واندفاعه.

أصغي إلى لحنين: لحن الروع على ألسنة الناس، ولحن الهول على لسان النهر.

ولم أخش شيئاً... إنها ساعة الخطر.

بوركت يا ساعة الخطر!.

أنت لحظة الإنسانية، أنت التي تورق فيك أغصان الحب، ويزدهر فيك الإخلاص، ويعود الناس فيك إخواناً متحابين، قد خرجوا من أطماعهم، ومات في نفوسهم الحسد، والبغضاء، وعاش فيها الحب، والتضحية، والإخلاص، والوئام»[١].

وهكذا ينقل إلينا الطنطاوي مشاعر الخوف، والرعب من ذلك النهر الثائر الذي جسده في صورة نمر هائج أفلت من قفصه، وخرج يعدو مجنوناً كاشراً عن أنيابه يزمجر، ويزأر، ويبرق، ويرعد. ثم أراد أن يرينا قوته، فتراءت لنا بقوة الديناميت، ورأينا اندفاعه الشديد الذي يكتسح كل شيء، فيقتلع الأشجار ويقذف بها كعيدان الكبريت، وينسف البيوت وكأنما هي علب الورق؛ ثم يسمعنا دوي صوته وقوة ضجيجه التي ابتلعت كل ضجة، وكأنما هو صوت الموت يملأ النفوس، ويهدد الأحياء.

وجسد لنا حركة الناس، وسرعتهم الشديدة، وهم يتسابقون في ملاحقته بإقامة السدود في وجهه، وتضييق الخناق عليه؛ ليتمكنوا من تقييده.

ولا يترك الطنطاوي تلك الصورة المهولة دون أن يلفتنا إلى ماتوحيه في نفسه من معان مشرقة، استلهمها من حال الناس في ساعة الخطر «إنها ساعة الخطر!». التي ترى فيها مشاعر الإنسانية،

---

(١) «ثورة دجلة»، بغداد مشاهدات وذكريات، ص٨٨، ٨٩.

وروح التعاون، والمودة، ونبـذ الخصومات، والتعالي على أهواء الذات؛ لذلك يدعو لساعة الخطر، ليس حباً فيها، ولا طلباً لها، ولكن لما تولّده في نفوس الناس مـن تعاون ومودة، وتحققه من سمو وإخلاص، وكأنما يقول: هـل نحن في حاجة إلى الشعور ـ دائماً ـ بالخطر حتى تستمر هذه المشاعر وتبقى فينا هذه الأخلاق ؟!

المقال الفكري:

يظهـر اتجـاه الطنطـاوي الإسلامي فـي فكره من خـلال اتزانه، وارتباطـه بوسطية الإسلام، واعتداله؛ لذلك لم ينحرف تحت مؤثرات الفكـر المختلفـة، والمذاهب المتباينة التـي تنحو بأصحابهـا إما إلى التساهل والميوعة، أو التهجم والتعصب والجمود. بل رأيناه في مقالاته ذا عقل قوي، وفكر سبّاق متوثب، مزوّد بثقافات مختلفة، واطلاع واسع سخره في خدمة الدين، وقضايا أمته في استقامة وإبداع.

وممـا لا شك فيـه أن استمـداد الطنطـاوي لأفكاره مـن الإسلام بمصـدره الأصيل الثابـت، ومنهجه القويـم الحاسم، قد منـح أفكاره القـوة، والأصالة، والوضوح؛ بحيـث نراها ترجّ النفـس، وتتسلّل إليها؛ لتستقرّ في الأعماق، فلا تجد منفذاً للطعن، ولا مكاناً للتردد والشك.

ومن أدلة ذلك رؤيته للحضارة الغربية وموقفه منها؛ حيث يقول:

«وفـي إبان يقظتنـا وجدنا شيئاً لا عهد لنا بـه، فوقف فريقان منا موقفين غريبين: فريق أخذ بكل ما جاءت به هذه الحضارة، أخذ تقليد

بلا فهم ولا تمييز، وهذا خطأ...! وفريق رفض كل ما جاءت به بلا فهم ولا تمييز، وهذا خطأ!

والصواب أن نأخذ ما لا يخالف الثابت في ديننا، ولا يناقض الصحيح من سلائقنا وعاداتنا ما دام فيه النفع لنا، ولماذا نرفض نعم الحضارة!؟

إن أفقر فقير فينا يعيش أحسن من عيشة (عبد الملك بن مروان) و(هارون الرشيد).

عبد الملك كانت له ضرس منخورة، وكان به بخر من ذلك - أي إن رائحة فمه كانت قبيحة - ولم يجد طبيباً يحشوها له!، وأفقر فقير يجد الطبيب الذي يحشو الضرس، ويلبسها.

و(أبو جعفر المنصور) كان يشكو من أمعائه، ويتألم منها، فلا يجد حبة «أنتروفيوفورم» أو حبة «نوفالجين»، وأفقر فقير فينا يجدها فيسكن ألمه، وتتطهر من الجراثيم أمعاؤه.

و(هارون الرشيد) كان يسافر على الإبل وعلى الدواب، ويقطع الطريق من بغداد إلى مكة في شهرين، وأي واحد فينا يستطيع أن يركب الطائرة، ويقطع هذا الطريق في ساعتين!.

فمن الذي يقول: إن علينا أن نرفض نعم هذه الحضارة!؟ من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق!؟ لا، ولكن الذي نقوله:

إن علينا أن نرفض رفضاً باتاً ما يفسد عقائدنا ويوقعنا في المحرمات، ولو عدّه الناس كلهم من أركان الحضارة ومن لوازم الحياة»[١].

والطنطاوي في مقاله الفكري متوجّه بتوجّه إسلامي قوي، يطمح من خلاله إلى إصلاح خلل المجتمع، وتحفيز رجاله نحو علم ما يفيد. كمقالاته التي تضمّنت دعوته إلى تسهيل النحو بتخليصه من الخلافات، وتنقيته من الحشو الذي صرف الكثيرين عنه، ودعوته إلى تأليف كتاب عن الإسلام يعرضه عرضاً سهلاً شاملاً موجزاً، ودعوته إلى إصلاح المناهج، واختصار مراحل التعليم ودعوته إلى تطوير الامتحانات، والاستفادة بطاقات الشباب[٢]، إلى غير ذلك من الاقتراحات، والأفكار التي وضّحها، وأقام الحجة عليها، وعلى أهميتها، مما يجعلها جديرة بالتطبيق، واهتمام المسؤولين.

المقال العاطفي:

يلاحظ القارئ لمقالات الطنطاوي أنه لم يستنكف عن تناول عاطفة الحب، وغريزة الجنس، وهو الأديب الملتزم، والقاضي الفاضل؛ لأنه كان يلتزم الصدق، ويتجنب مواطن الإثارة، ويحاول أن يسمو بتلك العاطفة، وهذه المشاعر إلى الغاية الصحيحة التي رسمها الإسلام لها، وذلك انطلاقاً من أن الأديب الإسلامي بمنهجه القويم الشامل

---

(١) «نحن والحضارة الحديثة» مقالات في كلمات، ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) انظر «آفة اللغة هذا النحو» فكر ومباحث، ص١٣، «كتاب الدين الإسلامي» فصول إسلامية، ص١٤٢، ٢٦١، وذكريات علي الطنطاوي ٨/ ٢٤٣، و«الطلاب والعطلة الصيفية» مع الناس، ص١٧٩.

لا يضيق بمعالجة قضية، ولا تناول مشكلة مهما كانت. لذا يتكلم عن الحب فيقول:

«ومن حرّم الكلام في الحب!؟ والله الذي أمال الزهرة على الزهرة حتى تكون الثمرة، وعطف الحمامة على الحمامة حتى تنشأ البيضة، وأدنى الجبل من الجبل حتى يولد الوادي، ولوى الأرض في مسراها على الشمس حتى يتعاقب الليل والنهار.. هو الذي ربط بالحب القلب بالقلب حتى يأتي الولد!.

ولولا الحب ما التفّ الغصن على الغصن في الغابة النائية، ولا عطف الظبي على الظبية في الكناس البعيد، ولا حنا الجبل على الرابية الوادعة، ولا أمدّ الينبوع الجدول الساعي نحو البحر!. ولولا الحب ما بكى الغمام لجدب الأرض، ولا ضحكت الأرض بزهر الربيع، ولا كانت الحياة.

ما في الحب شيء، ولا على المحبين سبيل، إنما السبيل على من ينسى في الحب دينه، أو يضيع خلقه، أو يهدم رجولته، أو يشتري بلذّة لحظة في الدنيا عذاب ألف سنة في جهنم...»[(١)].

فالطنطاوي هنا يشيد بجمال الحب، ويبرز روعته، وعطاءه في مظاهر الكون؛ ليبين سبيل السعادة به حين يسير في طريقه الصحيح، ويصل إلى غايته المرسومة «بالزواج»؛ وليحذر من الضلال به، والذي يحول الحياة إلى شقاء، وجحيم «بالسفاح».

---

(١) «في الحب»، صور وخواطر. علي الطنطاوي، ص٢٠٩.

وعلى ذلك فرؤية الطنطاوي «لعلاقة الرجل بالمرأة» رؤية إسلامية واضحة في تناوله لموضوعاته تلك؛ إذ لم يخرج بها عن الإطار الذي رسمه لها الإسلام بضوابطه التي تستهدف صيانة المجتمع، وسعادة أفراده برقي أخلاقه.

المقال التأبيني:

يبرز توجه الطنطاوي الإسلامي في تأبينه من خلال:

١. صدقه، وأمانته. فهو لا يموّه على سامعيه، ولا يزيّف عليهم، ولا يضيف إلى فقيده ما لم يكن فيه، بل يلتزم الصدق، وينتهج الحق.

٢. تركيزه على الجانب الأخلاقي والسلوكي للفقيد. والذي يحمل المتلقي على الإعجاب، ويدفعه إلى الاقتداء به.

٣. في كونه لا يمنح التأبين لكل أحد بل في اقتصاره على أناس قلائل اشترك في حبهم والتفجع بفقدهم الكثيرون؛ لما قاموا به من أعمال بارزة، وجهود مثمرة.

٤. ويبدو هذا التوجّه من خلال صدق عاطفته، وصدقه مع نفسه، والذي يظهر واضحاً من خلال ألفاظه، وصوره، ومعانيه. فألفاظه في ذلك تعكس الحزن، والأسى، وصوره تعبّر عن اللوعة والألم المعتلجين في صدره، ومعانيه متلوّنة بألوان نفسه في أساه على الفقيد وحبه له، وتقديره لجهوده، ومآثره[1].

---

(١) «بغداد في يوم غازي، بغداد مشاهدات وذكريات»، ص١٠٣، و«عرس الشهداء». علي الطنطاوي، طبعة دار المنار الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢م.

ومن هنا كان تأبينه «للملك غازي»[١]، ليس عن مصلحة، أوغرض شخصي محدود، وإنما إغراءً لغيره من الملوك بالسير على نهجه. فقد «صنع غازي قبل موته ما أدخل محبته على كل قلب، وجعله صديقاً لكل عربي»[٢].

ومن هنا أيضا نراه يرفع الوهم الذي قد يقع فيه بعض القراء بعد قراءتهم لما رثى به هذا الملك آنذاك بقوله: «قد يظن بعض القراء الآن أني كنت من أشياع غازي، أو كانت لي به صلة! ولا، والله ما كان لي به أو بغيره اتصال، وما رثيته هذا الرثاء إلا أنه صنع قبل أن يموت ما جعله صديق كل محب للعرب، وكل عدو للإنكليز»[٣].

ونراه كذلك في مقالته «عرس الشهداء» التي يؤبن فيها شهداء الإخوان، قوي الشعور والانفعال، صادق العاطفة التي انتقلت من خلالها إلينا أحاسيسه، وانفعالاته، وأفكاره فلوّنت نفوسنا بلون نفسه، وأشعرتنا بفظاعة وقع تلك المأساة، حتى إن القارئ لهذه المقالة لا يشك أن الطنطاوي قطب من أقطاب الإخوان، ولكنه يعجب حين يذكر الطنطاوي أنه لم ينتم إلى حزب، ولم ينضم إلى جماعة طول حياته»[٤].

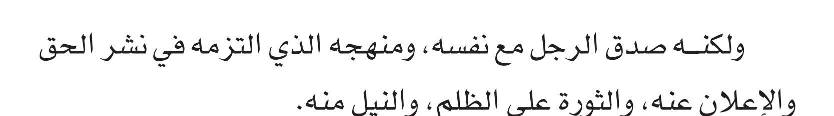
---

(١) غازي بن فيصل بن الحسين بن علي الهاشمي ١٣٣٠ - ١٣٥٨ هـ/ ١٩١٢ - ١٩٣٩م، ملك العراق وابن ملكها وأبو ملكها الأخير. (معجم الأعلام، ص٥٧٥).

(٢) راجع هامش ص١٠٤، من مقالة بغداد في يوم غازي - بغداد ذكريات و مشاهدات.

(٣) هامش ص١٠٩، «بغداد ذكريات ومشاهدات» علي الطنطاوي.

(٤) ذكريات علي الطنطاوي، ٨/٨٩، ٩٠.



ولكنــه صدق الرجل مع نفسه، ومنهجه الذي التزمه في نشر الحق والإعلان عنه، والثورة على الظلم، والنيل منه.

المقال الإذاعي:

فــي المقــال الإذاعي يبــدو الطنطــاوي: إسلامي الوجهــة، عميق الرؤية، قريب الفكرة، في موضوعاته، وأفكاره.

ففــي مقاله عن رمضان يعرضه في صورتين: صورته قديماً؛ حيث جمالــه، وبهاؤه، وأثره في تربية النفوس، وتنقيــة القلوب من المعاصي والذنوب، وتلك هي صورته المثلى التي كان يراها في طفولته.

وصورتــه الحاليــة التي عكّــر صفوها، وشوّه جمالها مــا يراه اليوم مــن سلوكيات مشينــة، وأخلاق فاسدة يرجو نبذهــا، ويدعو إلى تركها وبغضها. يقول:

«هذا الحديث عن رمضان، وفي رمضان النور والعطر، وفي رمضان الخيــر والطهر، وفي رمضان الذكريات الكثيرة: ففيه نزل الذكر، وفيه ليلة القدر، وكان فيه نصر بدر، وفي آخره عيد الفطر.

ورمضــان نور على المــآذن، ونور في القلــوب، ورمضان صوم عن الطعام، وصوم عن الحرام.

إن كانت الحياة تنازعاً على الحياة فهذا الشهر إدراك لسر الحياة، وإن كان العمر كله للجسم فهذا الشهر للروح، وإن كانت الدنيا للتنــاحر والخصام، فهذا الشهر للحب والوئام.

هــذا هو رمضان الــذي أبصرت وجهه من كــوة الطفولة فأحببته، ورأيــت أثــره الخيّر في كل مكان فــي دمشق، فأكبرته؛ ثم لــم أعد أراه أبداً، فعلمت أني قد افتقدته وأضعته»[١].

وبعــد ذلــك ينقلنا إلى صورتــه الجديدة؛ لتظهــر المفارقة التي لا ترضي مسلماً ملتزماً محبا لدينه، والتي يهدف من خلالها إلى التوجيه والنقد. يقول:

«أمــا رمضان الجديد فلا تعرفه هــذه الشوارع الجديدة، والأحياء الحديثــة، ولــم يعــرف بعــد الطريق إليهــا، ودمشــق القديمــة لم يعد يستطيــع أن يسيطر عليها، فالمساجد مملوءة بالنائمين، والمتحدثين، والمدرسين الجاهلين، والأسواق مفتحة المطاعم مملوءة بالمفطرين، والصائمــون تســوء أخلاقهم في رمضــان من الجوع وشهــوة الدخان، والشياطين تصفّد في رمضان ولكن الفُسّاق ينطلقون عاملين فيه، كما كانوا يعملون قبل رمضان..»[٢].

والطنطاوي فيما أُثر عنه من أحاديث إذاعية وطنية، أو اجتماعية، أو سياسيــة... نــراه ملتزماً الوجهــة الإسلامية، لم ينحــرف عنها في موضوعاته، ولا في أفكاره.

ففــي حديثــه الوطنــي «لا تنســوا فلسطين» نــراه ملتزمــاً بمساره الإسلامــي في لومه المسلميــن الذين استكانوا لمذابــح اليهود الآثمة،

(١) «رمضان» صور وخواطر، ص١٦٣.

(٢) السابق، ص١٦٣، ١٦٤.

وفـي بيانه لغلبة اليهود، وعدوانهم الذي يسانـده الكيد، والدسّ منهم، والخيانة ومـوالاة الأعداء من بعض المسلميـن، ومساعدة وحماية من الـدول الكبار لليهـود.. تلك هي الأسبـاب الحقيقية لضيـاع فلسطين، وغلبة اليهود، التي أعلنها دون مواربة أو وجل.

كذلـك كان إسلاميـا واضحاً فـي استلهامه أسبـاب النصر التي كفلهـا الإسلام وقدّمهـا لأتباعه، إن كانت هنـاك آذان تسمع، أو قلوب تعقل، يقول:

«... يجب أن يفهم كل عربي يسمع حديثي، أن الذين غلبونا ليسوا اليهود، بل الإنكليز والأمريكان، وما غلبونا في ساحة المعركة المكشوفة بل بالدسّ، والكيد...، هذه حقيقة يجب أن يفهمها كل رجل، وكل امرأة، وكل طفـل، وأن يعلّمهـا المعلمـون تلاميذهـم في دروس التاريخ، وأن يعلموهم معها أننا نستطيع أن نطرد اليهود في كل وقت، إذا تركتنا هذه الدول نعمل، إذا تركونا نستعمل حقنا المشروع في الدفاع عن أنفسنا.

إننـا نستطيـع إذا صدقنا العزم أن نطردهم على الرغم من هؤلاء الكبـار، بل نستطيع أن نحارب الـدول الكبار نفسها، وهذا دليلي قائماً، هـذا الدليـل المشهور فـي بور سعيـد، أمـا ردّت هذه البلـدة الواحدة الصغيرة إنكلترا وفرنسا تنبح معهما كلاب الأرض اليهود! أتعرفون لم ظفرت بور سعيد؟

لأنهـا طبقت الحكم الشرعي الـذي كان معطلاً تطبيقه من قرون، فهل تعرفون هذا الحكم؟

هو أنه إذا احتل العدو بلداً من بلاد المسلمين صار القتال فرض عين كفرض الصلاة على الرجل، والمرأة، والكبير، والصغير، فالمقاومة الشعبية التي تحسبون أنها جديدة، هي حكم الإسلام من نحو أربعة عشر قرناً، أما قلت: إن الإسلام فيه كل شيء!؟»[١].

كذلك نرى الطنطاوي في حديثه الإذاعي الذي أيد فيه الانفصال بين مصر وسوريا، مستجيباً لتوجهه الإسلامي الذي بين فيه أن موقفه هذا لم يكن كرهاً للوحدة، وإنما بسبب شدة المعاناة الناتجة عن سوء الحكم.

وكذلك نرى الطنطاوي في حديثه الإذاعي «اعرف نفسك» الذي يحاول من خلاله أن يأخذ المستمع إلى رحلة استكشافية عبر نفسه الإنسانية؛ ليتعرف على حقيقتها، ويتنبه إلى قدرتها، وما أودعه اللّٰه فيها من أسرار. يقول:

«... وتكون وانياً واهي الجسم، لا تستطيع حراكاً، فإذا حاق بك خطر أو هبط عليك فرح، وثبت كأن قد نشطت من عقال، وعدوت عدو الغزال، فأين كانت هذه القوة كامنة فيك؟ هل خطر على بالك أن تبحث عن هذه القوة فتحسن استغلالها؟ هل تساءلت مرة عندما تغضب أو تفرح، فتفعل الأفاعيل كيف استطعت أن تفعلها؟»[٢].

---

(١) «لا تنسوا فلسطين» هتاف المجد، ص٥٩، ٦٠.

(٢) «اعرف نفسك»، صور وخواطر، ص٥٠.

وهكـذا يسير الطنطاوي في حديثه، في حوار مع النفس؛ ليؤكد في النهاية أن التعرف على النفس وسيلة مهمة للتعرف على خالقها، وقدرته فيها، والتعرف على حقيقة الحياة، و ما ينبغي للسير فيها، يقول:

«فيـا أخـي.. اعـرف نفسـك، واخل بهـا وغـص علـى أسرارها، وتساءل أبداً: ما النفس؟ وما العقل؟، وما الحياة؟ وما العمر؟ وإلى أين المسير!؟

ولا تنس أن من عرف نفسه عرف ربه، وعرف الحياة، وعرف اللذة الحق التي لا تعدلها لذة، وأن أكبر عقاب عاقب به اللّه من نسوا اللّه أنه أنساهم أنفسهم!»[1].

وهـو كذلك في حديثه الإذاعـي «في الترام» الذي يعرض فيه لنقد سلوكيـات سيئة، وأخلاقيات منحرفـة، وأخرى حسنة يستوحي منها ما يفيـد؛ منبهـاً بذلك الموضوع إلـى ما ينبغي أن يكـون عليه المسلم من يقظـة تدعوه إلـى التقاط مـا ينفعه، ونبذ مـا يضره ممـا يسمع ويرى يقول:

«إن الترام يكشف أخلاق الناس، وطبائع البلدان، وهو مدرسة يرى المرء فيها القبيح من جاره فيتركه، والحسن فيتعلمه، ويتمتع الملاحظ المدقق بعد هذا كله بفصول (الفلم) البشري المعروض عليه»[2].

---

(١) السابق، ص٥٠.

(٢) في الترام «صور وخواطر»، ص١٠٢.

«هــذا رجل يأتيك من خلفك، وأنت واقف في زاوية الترام يرجوك أن تفســح له ليمر، فإذا انزحــت له أخذ مكانك، وتركك حائراً لا تدري أين تقف...!»[(١)].

وهــو يسيــر علــى نفس الــدرب في حديثــه الإذاعي «بيــن البهائم والوحوش» والــذي نــراه فيــه يصطحبنــا معه فــي رحلة إلــى حديقة الحيوانــات؛ لنشاهــد فيهــا طبائع البشــر، وعجائب النفوســ مع صور الحيوانات. يقول:

«ووقفــت على الفيل وقــد تواضع حتى غر النـاس منــه لينه، فنسوا شدتــه، وهان على أحدهــم حتى أركبه صبيته، وصرّفــه الفيّال واتخذه لعبته، كما يطيع الرجل امرأته فيضيّع رجولته، ويفقد منزلته!»[(٢)].

«ووقفــت على القردة وهي تعيش العمر كلــه مجلس لهو ولعب تقلد كمــا يقلد «قردة البشــر» ولكنها تقلد فيما ينفعها وهــؤلاء يقلدون فيما يؤذيهم!. وعلى الببغاء وهي تردد ما يقال بلا فهم كهؤلاء الذين يعيدون علينــا كل مــا يقول الغربيــون!. وعلى الحيــات وهن ناعمــات الملمس، ناقعات الســم، كالصديق المخادع يخالك ليختالك، ويسقيك من قوله العسل وفيه من قبح مقصده الحنظل...»[(٣)].

وعلى ذلك فالطنطاوي إسلامي في أفكاره وموضوعاته متزن فيها

---

(١) السابق، ص١٠٣.

(٢) بين البهائم والوحوش «صور وخواطر، ص١٠٣.

(٣) السابق، ص١١٣.

باتـزان الإسلام وقيمه، مما برأها مـن الخلط والانحراف، والغموض، والتشويه، فجاءت فـي ترابط، واتساق، وقوة تؤثر في المتلقي، وتقنعه؛ إذ يجد فيها حديقة عبقة الأزهار، وارفة الظلال في تناسق عجيب بين الألفـاظ، والأفـكار، و المعارف القديمة والعلـوم الحديثة، وأدلة النقل والعقل، ممـا أضفى عليها الحيوية، والجـدة، والصدق، والعمق، حيث كان الطنطـاوي حريصاً أن يتوجه دائماً إلـى العقل، ويستطيع بمقدرة فائقـة أن يتخذ مـن الذاكرة مطيـة للعقل، ومـن الماضـي وسيلة إلى الحاضر، ومن التاريخ سبيلاً إلى الحقيقة الأزلية الراسخة[١].

وقـد كان في موضوعاته ينتقي من كل علـم ما يخدم فكرته، ومن كل موقـف مـا يؤيـد وجهته، ومـن هنا يلمح فـي مقالاتـه مصطلحات علمية، وعبـر تاريخية، وعصرية، ومعارف علميـة، وفلسفية، ونفسية، واجتماعية، وأدبية، ولغوية، وقانونية، وشرعية.

حتى «إن القارئ حين يقرأ ما كتبه الشيخ الراحل وهو ابن العشرين أو الثلاثيـن أو الأربعيـن؛ ليدهش كيف يتسنى لهـذا الأديب الشاب أن يكتب بهذا المستوى الراقي، وكيف جمع في الموضوع الواحد أو القصة الواحـدة أو المقدمة الواحدة للكتاب كل هـذه العلوم الغزيرة التي تدل علـى سعة علمـه وكثرة اطلاعه، حتى يخيل إليـه أن الشيخ الطنطاوي ـ رحمه اللّه ـ لم يترك كتاباً من الكتب العربية القديمة والحديثة إلا قرأه واستوعـب دقائقه وتفاصيلـه، ثم تفاعل مع هذه الدقائـق والتفاصيل،

---

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د/ أحمد بسام ساعي، ص ١٤٨، ١٤٩

واستخـرج منها أجمل الدروس والعبر وصاغها هذه الصياغة التي تدل علـى أنه كالنحلـة التي تأخذ مـن كل زهرة رحيقها ثـم تخرجه عسلاً مختلفاً ألوانه وطعومه فيه شفاء للناس»[١].

ولعل أهم ما يميز أفكار الطنطاوي وموضوعاته وما أكسبها الحيوية والتأثير، والطرافـة والإقناع؛ مسها لحياة الناس، والتصاقها بواقعهم مباشـرة بإيجابياتـه وسلبياته، مـع وضوح الاتجـاه الإصلاحي المبني علـى أساس الدين الصحيـح، باعتباره أقوى محـرك للإصلاح ودافع إليـه، ومن هنا كان الإصلاح عن طريق الدين هدف ملازم وواضح في موضوعـات الطنطاوي وأفكاره، حتى تلك التـي كتبها في محور النفس كانـت تصب في هذا الاتجاه؛ لأن إصلاح المجتمع يبدأ بإصلاح الفرد، وإصلاح الفرد يبدأ بإصلاح نفسه.

وكذلـك كان فـي تناولـه التاريـخ، واستدعائـه الماضـي، هادفاً إلـى إصـلاح الحياة عن طريق إثـارة المفارقة الشديـدة بين الماضي والحاضـر؛ لدحض سلوكيـات منحرفة، والتنفير منهـا، ونقد توجهات شاذة، والتحذير منهـا[٢]، باستثارته العاطفة، ومخاطبته العقل بأقوى وسائل الإقناع والتأثير، من ضرب الأمثال، وإيراد الحجج، والبراهين،

---

(١) «الشيـخ الطنطاوي»، د/محمـد عبده يماني، مجلة الصحوة الإسلاميـة، ص٢٦٩ مجلة فصلية يصدرها القسم العربي بالجامعة الإسلامية. دار العلوم حيدر آباد. الهند. السنة ١٣، العدد ٣٦ (محرم ١٤٢١ هـ/أبريل ٢٠٠٠م).

(٢) «الأدب الإسلامـي» الطنطاوي، صور وخواطر قراءة ثانية، شمس الدين درمش، ص١٠١، ١٠٢، العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣ – ٢٠٠٢.

وسـرد القصص الاجتماعية، والواقعيـة، والتاريخية، وأسلوب الحوار، والاستجـواب، والتصويـر، والتشخيص مستلهمـاً في ذلـك الأسلوب القرآني ومتأثراً بالأداء النبوي[١].

ولعل أهم من ذلك كله عاطفة الطنطاوي، وإحساسنا العميق بصدق وصحة ما يقول فيما يعالجه من موضوعات وأفكار.

(١) السابق، «الشيخ علي الطنطاوي مربياً إسلامياً»، أحمد حسن الخميسي، ص١١٧.

الفصل الثاني

مظاهر الاتجاه الإسلامي في أسلوب الطنطاوي

تدل عبارات المرء على عقليته وفكره، وتعكس أخلاقه وطبائعه،حتى قيل: «المرء مخبوء تحت لسانه» و«الأدب معرض لظهور الشخصية»[(١)].

هذا على خلاف ما يتوهمه بعض الأدباء والنقاد، من أن قصارى الأديب إلزام نفسه بقوانين اللغة في تعبيره غير ملق بالاً إلى أن الإنسان مزيج من روح ومادة؛ إذ هو بذلك يهتم بالجانب المادي في العمل على حساب الجانب الروحي... وغير ملق بالاً إلى أن الأدب ما كان أدباً إلا لاشتماله على شيء من مبادئ التأديب، والتربية»[(٢)].

«ومن هنا فالأديب ذو التوجه الإسلامي يلتزم بإقامة صياغته الفنية على العفة في اختيار ألفاظه؛ لأن ألفاظ اللغة أي لغة لا تصلح بالضرورة لكل موقف، وفي كل حالة.

---

(١) الأسلوب: أحمد الشايب، ص١٢٧، الطبعة الثامنة، ١٤١١هـ ١٩٩١م، مكتبة النهضة، مصر.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص١٩٧.

فما يصلح للتعامل به مع النساء المتزوجات قد لا يصلح للتعامل به مع الفتيات الصغيرات، فالكلمة قد تجرح الخلق، وقد تخدش الحياء، وقد تحمل من ظلال الأذى في موقف ما لا تحمله منها في موقف آخر، ولذلك قامت اللغة البيانية على الكناية، والتورية، كما قامت على التصريح»[١].

وعلى ذلك «فالأديب ذو التوجه الإسلامي هو الذي يحرص على الكلمة الطيبة، بل يتوجه إليها فطرياً في صياغته الأدبية، فلا مكان في أدبه للكلمة الخبيثة»[٢]، وهو الذي يتخير من الأساليب ما يتناسب مع متلقيه في سمو وإبداع؛ ليحدث التأثير المطلوب.

وللتعرف على مظاهر التوجه الديني في أسلوب الطنطاوي في أدبه، يمكن الوقوف عليه من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: أسلوب الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: أسلوب الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: أسلوب الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: أسلوب الطنطاوي في مقالاته.

---

(١) السابق، ص١٩٨،١٩٧.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص١٩٨.

المبحث الأول

أسلوب الطنطاوي في خطبه

الناظـر فيما أثر من خطابة الطنطاوي على اختلاف موضوعاتها، يـرى أنه كان حريصاً فيها على سلامة أسلوبـه من التدني والإسفاف؛ انطلاقـاً من توجهه الإسلامي، ومنهجه السديد، ومن هنا رأيناه بعيدًا فـي تعبيراته وألفاظه الخطابية عما يخدش الحياء، أو يؤذي السمع، أو يثيـر الاشمئزاز، حتى حينما كان يبلـغ به الغضب مداه، والنقد المقذع منتهـاه، فلـه حـدود لا يتخطّاها، وألفـاظ سامية لا يتعداهـا، وإن كان تركهـا أولى، والبعد عنها أنفع، وهي قليلة كنعته للمذيع (أحمد سعيد) بالأحمق السفيه لإثارته العداوة، والوقيعة بين مصر والشام. يقول:

«وكنـت أفتح هـذه المحطة التي لست أدري لمـاذا كذبوا فسمّوها «صوت العرب» فكنت أسمع منها الكلام على حكّام الشام، والوقيعة في أهل الشام بلسان هذا الأحمق السفيه الذي اسمه أحمد سعيد، فأحرك الإبـرة شعرة واحدة، فأسمـع دفاع محطة الشام، والـكلام على حكام مصر فآسى، وأتألم لما صرنا إليه»[١].

---

(١) من خطبه «تأييد الانفصال»، ذكريات علي الطنطاوي، ٦/ ٨٠.

والطنطـاوي حيـن يصـف انتهاك وعـدوان الفرنسييـن على أهل الجزائر بقوله:

«... فتصـوّروا مـا يصيـب هـؤلاء النـاس... والجنـد قـد دخلوا بسلاحهم إلى غرف نومهم، فيطيش الرجل عن أهله، ويقتل الأب أمام بنـاتـه، وينال من البنت بحضـرة أبيها، والمرأة بعين زوجها، وإن هرب لحقـه الموت..»[١] يوقفنا على سلامة أسلوبـه، وسموّه البياني بانتقائه من الألفاظ ما يفي بغرضه في سمو وإبداع. فـ «غرف نومهم»، و«يطيش الرجـل عن أهله»، و«ينال من البنـت بحضرة أبيها» ألفاظ ذات دلالات إيحائية، يصيب بها مقصده دون تدن، أو إسفاف حفاظاً على الأذواق، وارتقاءً بالمشاعر السويّة من جرحها بلفظ خبيث.

وفـي التزام الطنطاوي العفة، نراه ملتزمـاً بالفصحى، محباً لها، حريصـاً على نشرهـا، مؤمناً بجمالها، وكفايتها فـي بلوغ الغاية، وأداء المطلـوب؛ لذلـك كان يتوخـى الفصاحـة مـع السهولـة، والبلاغة مع السلاسة؛ ليشعـر متلقيه بجمال الفصحـى، وكفايتها. يقول عن دعوة الإسلام:

«هـي دعوة الصـدق، والاستقامة فـلا يكون المسلـم غشّاشاً، ولا شحّاذاً، ولا بطّالاً، ولا فظّاً غليظاً، ولا رخوا ذليلاً»[٢].

---

(١) «في افتتاح أسبوع الجزائر»، ذكريات علي الطنطاوي، ٥/٦٢.

(٢) من خطبة «دعوة الإسلام» فصول إسلامية، ص١٩.

ويصف وقع خبر موت أستاذه عليه بقوله:

«... لقد تحققت أن سليم الجندي مات، فأحسست كأن قد زاغ بصري، وزلزلت أعصابي، ومرّ في أذني نهر هدار ...»[١].

فكلماته هنا تشفّ عما في نفسه: في استقامة أداء، والتزام قواعد، ووضوح معنى، وكأنما كان يتخير من معجمه الثري رحيق الكلمات ونورها في يسر وتدفّق وعذوبة، وخفّة وفصاحة؛ ليبرز جمال العربية، ويثبت كفايتها وقدرتها على تلبية حاجات النفس في أداء ما تريد، وإصابة ما تهدف.

وبذلك نرى أن الصيغة الفنية عند الطنطاوي خطيبا ذا توجه إسلامي واضح، كانت وسيلة اتصال جيد، وأداة تعبير مبين، تؤدّي دورها على الوجه الكامل، دون قصور أو تعثّر، ودون زيف أو كلال[٢].

وإذا كان الأسلوب هو الجانب الأصيل الذي يرتفع بالنصّ إلى مستوى الروائع الخوالد ويميز صاحبه من سواه[٣] فإن هذه الأصالة في أسلوب الطنطاوي الخطابي تنبني على ركائز مميزة بدت في قرب ألفاظه مع سلامتها، وجمال التراكيب مع دلالتها، وعذوبة كلماته مع سلامتها، وخلوّها من السخافة والابتذال، والغرابة والغموض، مما

---

(١) من خطبة «أستاذنا الجندي «من حديث النفس، ص١٣٤.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/إبراهيم عوضين، ص٢١٠.

(٣) مقدمة في النقد الأدبي، د/علي جواد الطاهر، ص٣٣٢، ط٢، المكتبة العالمية. بغداد سنة ١٩٨٣م.

جعل منها بجودة سبكه، وبراعة تأليفه لآلئ يصعب تقليدها، ويعزّ على المتمرس احتذاؤها، وتلك هي الروح الساكنة في الألفاظ، التي لا يبعثها ويظهر السحر فيها إلا خطيب أو أديب موهوب، خبير بتأليف الكلام، متذوق لتراكيبه، كخطيبنا علي الطنطاوي ـ رحمه الله.

وهذا يؤكد ما قيل: «من أن تفاوت التفاضل يقع في تراكيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها؛ لأن التركيب أعسر وأشقّ؛ و ألفاظ القرآن من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم، ومع ذلك فإنه يفوق جميع كلامهم، ويعلو عليه وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب»[(١)].

كما يُلاحظ أن الطنطاوي في حرصه على أداء رسالته، وتوصيل دعوته، لم يتقيد بأسلوب واحد، بل نوع بين أساليب الخبر والإنشاء منتقلاً في ذلك بين الرقّة، والقوة، والاستعطاف، والاستهجان حسبما يقتضيه المقام، وتتطلبه الحالة النفسية لمعالجته.

فمن ينظر مثلاً في خطبته «دعوة الإسلام» يلاحظ هدوء الأسلوب، ورقة العبارة، وعذوبة الألفاظ، وغلبة الخبرية عليه؛ لأن ذلك هو الأسلوب الذي يتناسب مع موضوعه الذي يدور حول الإشادة بالإسلام، وعرض مزاياه والتعرف على حقائقه. كقوله:

«...إن من معجزات الإسلام أنه سبق عصره سبقاً طويلاً، فصنع أمة ليس لها في وحدتها نظير من أمم شتى، مختلفة ألسنتهم،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج١، ص١٥١، طبعة المكتبة العصرية. بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

وألوانهم تجمعهم كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والقبلة البيت الحرام»[١].

أما الأسلوب الآخر فيمثله خطبته في مساندة الجزائر، التي يلاحظ على عباراتها غلبة القوة والضخامة، وعلى ألفاظها الصخب والضجيج، وعلى أسلوبها غلبة الإنشائية من نداء، وتعجب، واستفهام، وأمر، ونهي، واستنكار، يتناسب مع نفسه الثائرة، وعاطفته المتأجّجة بما يحدث للجزائر، ويتلاءم مع موضوعه الذي يهدف من خلاله إلى تعميق الشعور بمعاناة الجزائريين، واستنفار الهمم نحو المشاركة، والتعاون، كقوله منها داعياً إلى اليقظة، والمقاطعة:

«...وإن المال الذي يأخذه منا الغربيون ثمن سيارات البذخ، وأحمر الشفاه، وعطر الإغراء، وهاتيك السموم التي اسمها (الشمبانيا، والويسكي) كل ذلك يتحول ثمن رصاص يستقر في صدور هؤلاء الإخوان، وثمن قنابل تدمّر دورهم، وقراهم.

فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها!؟

هل سمعتم بأمة تعيش في الحرب مثل عيشها في السلم!؟

هل سمعتم بأمة تنام على دويّ المدافع!؟»[٢].

فالطنطاوي بهذه العبارات وما تحمله من مشاعر دفاقة، خطيب

---

(١) دعوة الحق «فصول إسلامية»، ص١٥.

(٢) هتاف المجد، ص٢٢٥، ٢٢٦.

المعركة الذي يحرض المؤمنين على القتال، والنهوض لاستعادة العزة، والكرامـة، والمجـد ضمن إمكانيـات الحاضر بكل طاقـة، متوخياً في ذلك العبارات الموحية، والصور المؤثّرة التي تهز النفس من الأعماق، وتحملها على الاستجابة لما يريد عن إيمان، واقتناع[١].

كما تلاحظ موهبة الطنطاوي، وبراعته التي أحسن استغلالها في استمالـة جماهيره، خاصة في مقدمات خطبه التي حرص ـ دائما ـ على تضمينهـا بما يثير الانتباه ويستعطف القلـوب، ويتناسب مع موضوعه؛ ليحقق بذلك الإقبال عليه برغبة وانتباه.

كمـا أن استلهام الطنطاوي للأسلـوب القرآني واضح في تجميل أسلوبـه بـكل وسائل التأثير التي تسهم في تلبيـة غرضه، والوصول إلى غايته، ومن هنا كان أسلوبه في خطبه يموج بروائع التعبيرات البلاغية، والمحسنـات البديعية، التي جاءت عفو الخاطر حين اقتضاها المقام، فنبهت الذهن، وثبتت المعنى، وحركت الوجدان؛ إذ إن هذه المحسنات من شأنهـا أن تحدث تماثلا صوتيا، وتـردّدا موسيقيا يكون أساساً من أسـس عرض الدعـوة، وطريقاً من طـرق الإثارة، ووسيلـة من وسائل التأثيـر، ما لم يثقلهـا الخطيب بالتكلّـف، والثقل الذي ينفـر منها[٢]. كقوله في إحدى مقدمات خطبه رداً على تصفيق الجماهير:

---

(١) الأدب الإسلامي «الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب»/ عبد الباسط أحمد، ص٩٧. العددان (٣٤-٣٥).

(٢) مقدمـة فـي دراسة الأدب الإسلامي، د/ مصطفى عليان، ص١٥١. ط١، دار المنارة، جدة سنة ١٩٨٥ م.

«شكراً يا سادتي وعذراً، فإن هذه التحية النبيلة، وهذا التصفيق الذي ينبعث من القلب هزة حب تحرك الأعصاب، وتطلق الأيدي؛ لتستحق خطبة من تلك الخطب العبقريات التي تبدل نفوساً بنفوس، وتحول السامعين من حال إلى حال، وتتلاعب بالأفئدة والقلوب، وتسعر الدم في العروق، وتصب العزم في الأعصاب»[١].

(١) «في افتتاح أسبوع الجزائر»، هتاف المجد، ص٢١٥.

المبحث الثاني

أسلوب الطنطاوي في قصصه

الناظر في أسلوب الطنطاوي القصصي يراه ملتزماً فيه بالفصحى في سلامة الأداء، ووضوح الدلالة، وسمو العبارة، ومن هنا نراه في قصصه التاريخية، وإن كان قد استقى مادتها من التاريخ لميزة تجعلها صالحة للبقاء والحياة، إلا أنه قد حول هذه المادة التاريخية إلى عمل فني أمدّه بالخيال المعتدل، وأعمل فيه فكره وقلمه؛ للربط بين أحداثه، وتنسيقها، وعرضها عرضاً قصصياً جذاباً دون خروج على أصله التاريخي المعروف في محاولة منه لاستلهام العبرة، واكتساب القيم من تراثنا الإسلامي بأصالته وعراقته، وملاءمته لأخلاقنا وطبائعنا.

وقد جمع الطنطاوي ما يمثّل هذا المسار في كتابه «قصص من التاريخ»، ويلحق به ما خصّصه للأطفال في سلسلة «حكايات من التاريخ» والتي رأيناه «يحاول فيها التقاط مواقف للمسلمين الأوائل تنبئ عن عظمتهم، ثم يمزجها بخياله، وما يصوغه من أحداث قد تأخذ سمة الواقع فيتواكب الجانبان: التاريخي، والواقعي في الكشف عن عظمة الأوائل وما يتمتعون به من قيم جديرة بأن تنهض بالواقع المعيش كما في قصة «ابن الحب» وهي إحدى قصص هذه المجموعة،

بـل قد نجده ـ أحياناً ـ يستخـدم الصيغة التراثية كما هي، فتضفي على أسلوبـه إشراقـاً وبهاءً، وهـو يشير إلى مـا يستخدمه علـى هذا النحو بأمانة؛ حيث يذكر مصدره ورقم الصفحة فيه»[١].

وأما عن قصصه التي استقاها من الواقع لمعالجة قضايا المجتمع، فرأينـاه ملتزمـاً بمسـاره الإسلامـي في معالجـة هذا الواقـع معالجة إسلاميـة تحثّ على الخير، وتجمّـل الفضيلة، وتحذّر من الشر، مقبحة الرذيلة بأسلوب فصيح عفيف يرتفع بالأذواق، ويرتقي بالأفكار.

ولقـد كان هـذا النهج في أسلـوب الطنطاوي القصصـي منطلقاً من توجهه الإسلامـي الذي يشعره بأن الأديب المسلم مسؤول عن بناء مجتمع نظيـف، مجتمع يقوم في أساسه، وجميع مراحله على الإسلام، يأخـذ المادة مـن الحياة، ولكنـه يبنيها بالطريقة السليمـة، كما علّمه الإسـلام؛ فـإذا تشابه البنـاء فـي زاوية أو جانب مـع أي بنـاء آخر، فلا يكـون ذلك لتأثره بالفلسفات الوضعية؛ بـل لأن هذه الفلسفات أصابت في هذه النقطة بقصد أو غير قصد»[٢].

ومن هنـا يشير الطنطاوي أنه لم يراع العناصر الفنية للقصة، ولم يهتـم بالمذاهب المسلوكة فيها، ولم يفكـر في ذلك بل جرى فيها على طبعـه وأسلوبـه، هـادفاً الغاية الإسلامية؛ لذلك نـراه لم يرتبط بمنهج

---

(١) الأدب الإسـلامـي قضيـة وبنـاء، د/سعـد أبـو الرضـا، صـ١٠٧، ط ١. عالـم المعرفة. جدة ١٩٨٣م.

(٢) فـي الأدب الإسلامـي المعاصـر.. دراسة وتطبيـق، محمد حسن بريغش، صـ٣٢، ط ٢، مكتبة المنار. الأردن، ١٩٨٥م.

القصصيين، وإنما الذي عناه هو المنهج الإسلامي في سلامة التناول، وإبـراز القيم الجمالية، والخلقية التي تقبّـح الشر، وتنفّر منه، وتجمّل الخيـر و تحسّنـه، دون اهتمـام بالشكل القصصي بعد ذلـك، آتّفق مع العناصـر الفنية أم خرج عليها!؟ مركّزاً اهتمامه على الغاية الإسلامية منهـا، وحسن طريقته في الوصول إليها، مؤكـداً هذا الهدف بقوله في نهاية مجموعته «قصص من الحياة»:

«وكل ما أرجوه أن تثير هذه الفصول في نفس قارئها عاطفة من عواطف الخير، أو فكرة من أفكار الحق، وأسأل الله أن يتجاوز عن ذنوبي»[١].

بهـذا الهـدف السامي، والرجـاء الحاني، والأسلـوب الراقي كتب الطنطاوي قصصه وقدّمها إلى قارئه.

فإذا أخذنا أسلوبه في قصة «تاج كسرى» مثالاً لقصصه التاريخي، رأيناه الأسلوب الفصيح الواضح... الذي تحمل عباراته دلالات مجازية، وإيحاءات تملأ النفس إحساساً بعظمة الحدث، واقتناعاً بصدق النبوة، يقول الطنطاوي:

«قال عمر: هلمّ يا سراقة... أتذكر خبر الغار، وسواري كسرى؟

قلت: نعم.

قال: قد أذهب الله بالإسلام مُلك كسرى، فلا كسرى بعد اليوم.

---

(١) قصص من الحياة، ص٢٢٢.

هــات يديــك! فألبسه السوارين، وقــال: ارفعهما فقــل: اللّه أكبر، الحمــد للّه الذي سلبهما كسرى بن هرمــز، وألبسهما سراقة بن مالك أعرابي من بنـي مُدلج.

يــا سراقة لقد انتصر المهاجــران على كسرى وقيصر، وكان لهما ملك الأرض.

يــا سراقــة لقد أضــاء النور الــذي انبثق من بطن مكــة إلى الدنيا جميعاً.

يــا سراقة لقــد ظفر الغــار بالعــراق، والشام، وغلبــت الصحراء العالم.

يــا سراقة لقد كان ملك كســرى وقيصر كبيراً وقويًّا، ولكن اللّه مع الذين آمنوا، واللّه أقوى يا سراقة.. اللّه أكبر!»[1].

ويُلاحــظ أن الطنطاوي في هذه القصة اكتفى في عرضه بما يبرز الهدف، مع تركيزه فيها على الأحداث الموفية بالغرض المنشود.

فقــد بدأت باستعــداد سراقــة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لنيل الجائــزة، وانتهت بلبسه سواري كســرى. متجنباً فيها الإطنــاب، والتفاصيــل، والاستطراد، إلا بمقدار مــا يخدم هدفه في إبراز ما يريد، وقد جاءت التوجيهات عقب القصة على لسان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) «تاج كسرى» قصص من التاريخ، ص٢٢٢.

وعرضت القصة عرضاً مباشراً بلا تقديم ولا تلخيص كتم فيه الطنطاوي سرّ المفاجأة عن البطل وعنا، حتى كشفه لنا في النهاية بعد تشويق وترقّب، مستلهماً في كل ذلك الأسلوب القرآني في عرض قصصه.

ومن هنا فإن هذه المجموعة القصصية «قصص من التاريخ» توضّح كيفية توظيف القصة التاريخية؛ لبعث القيم الإسلامية، والإفادة بها في تحقيق أهداف دعوية تُعلي من شأن القيم الإسلامية، وتكشف عن عظمة الشخصيات المتمسكة بها في تحقيق نجاحها، ونيل طموحها، وكأني به يريد أن يقدّم من خلال ذلك القدوة المرجوّة، والنموذج الإسلامي المُبتغى قولاً وفعلاً، في وقت كانت وما تزال تحتاج فيه الأمة إلى هذه القيم، والاقتداء بتلك الشخصيات كي تتقدم، وتزدهر، وتحقق ذاتها، حتى يكون حاضرها امتداداً لماضيها[١].

وإذا أخذنا أسلوب الطنطاوي في قصة «وزارة بعنقود عنب» كمثال لقصصه التي قدّمها للأطفال، نلاحظ أنه ساقها لهدف ديني، وغرض تربوي، يرتقي بفكر الطفل وسلوكه، ويهيئه لاستقبال غده بذخائر ماضيه ومآثره.

ومن هنا عرض القصة مركزًا على الأحداث التي تفي بأهدافه المقصودة، وتحقق غاياته المنشودة، وبالقدر الذي يبلغ العظة من

---

(١) الأدب الإسلامي «قصص الشيخ علي الطنطاوي بين الدعوة والفن «د/ سعد أبو الرضا، ص٢٤ العددان (٣٤-٣٥).

عرضها، فلم يعرض ما لا حاجة له كتفاصيل الطفولة، والنشأة مستلهماً في ذلك النهج القرآني في عرض قصصه بما يتناسب مع غرضه[١].

وقد جاءت توجيهات الطنطاوي في ثنايا القصة ونصائحه ممتزجة بسياقها.

من ذلك قوله حكاية عن ابن هبيرة:

«فقلت لنفسي: أدخل فأصلي فيه ركعتين، وأسأل الخالق أن يغنيني عن المخلوقين. فدخلت فصليت، ودعوت اللّه وكل من دعا اللّه صادقاً في التوجّه واثقاً من الإجابة، لا بد أن يُستجاب دعاؤه، فيعطيه اللّه ما يطلب، أو يعوضه عنه خيراً منه»[٢].

وقد بدأ في هذه القصة بذكر عاقبتها ومغزاها، ثم بدأ في عرض القصة بعد ذلك من أولها، وتفصيل خطواتها التي وصلت لهذه النهاية العجيبة، وقد تشوقت النفس إليها.

أما في نهاية قصة «التاجر والقائد» فقد أحالها إلى تمثيلية؛ إذ نراه بدأ بما ينبّه على بدء العرض، ثم ترك القصة تتحدّث عن نفسها بواسطة أبطالها.

وقد استخدم الطنطاوي طريقة السرد الذاتي الذي يكون بصيغة

---

(١) دراسات في البيان القرآني من الوجهة الأدبية، د/عبد القادر رزق الطويل، ص١٧٦، طبعة دار البيان القاهرة ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٢) «وزارة بعنقود عنب»، ص١٤.

المتكلـم؛ حيث أجرى القصة على لسان إحـدى شخصياتها، ومن هنا كان مـن السهل تقرير رأي، أو فكرة في سياق القص دون هتك للنسيج القصصي[١].

ويُلاحـظ استخـدام الطنطاوي للفصحــى كونهـا أداة قريبة من لغـة الشخصيات التاريخية التي تتحدث إلينـا، أو يتحدث الكاتب على لسانهـا استخدامـاً قريباً يتوافق مع مـدارك الطفل ومستـواه اللغوي، والثقافـي، وإن أورد الكاتـب بعضـ الكلمـات التي تصعـب على إدراك الطفـل، فيقصد إثارة ذهنه؛ للتعرف عليها واكتشاف معناها؛ ليضيف إلى رصيده اللغوي ما يرتقي بمستواه الثقافي، والمعرفي.

مثل كلمة «مدنـف»[٢]، «وقافلين»[٣]، و«غائـر»[٤]، و«شاخص»[٥]، و«تنكأ»[٦].

ونـراه يهتـم بوضع عنـوان عام لقصصــه، يتوخى فيــه الجاذبية والتشويق، والدلالة الواضحة على ما تحتويه من أحداث، فاختياره لهذا

---

(١) القصة القصيرة دراسة ومختارات، د/الطاهر أحمد مكي، ص ٧٩.

(٢) الدنف:المرضـ المـلازم المخامـر، ومدنـف: براه المرض حتـى أشرف على المـوت. (لسان العرب.لابن منظور، ج ٩ ص ١٠٧).

(٣) القفول: الرجوع من السفر (السابق ج ١١، ص٥٦٠)

(٤) غار الماء غوراً: ذهب في الأرض وسفل فيها (لسان العرب، ج٥، ص٣٦).

(٥) شاخص الطرف: طامحه، وشخص به: أتى إليه أمر يقلقه (السابق ج٧، ص٤٦).

(٦) نـكأ: نـكأ القرحـة نكأً: قشرهـا قبل أن تبـرأ فنديت، وأنكأتـه: أي أخذته. (لسـان العرب ج١، ص١٧٣، ١٧٤).

العنـوان «وزارة بعنقود عنب» يثير كثيراً مـن الدهشة والتساؤل، فيكون ذلك مصدراً لجذب القرّاء والإقبال عليها ومعرفة خبرها.

ويكثـر الاعتماد على الصـورة الأدبية، والألفـاظ المثيرة للمعاني الحسيـة؛ وذلـك لصعوبـة إدراك الطفـل للمعاني المجازيـة؛ لذا كان يتحاشاها، وإن وقع له منه شيء فسّره بالهامش[١].

كما اهتـم الطنطاوي بضبط الكلمات بالشـكل؛ ليتعود الطفل من خلال ذلك على النطق الصحيح الذي يقوّم لسانه، ويجنّبه الخطأ، كما لـم يجنح كاتبنا إلى الخيـال في قصته إلى الحد الـذي يخرج بها عن الإقنـاع، أو الشك فيها، بل نـراه حريصاً على تأكيد صدقها، وواقعيتها لغة، وشخصيات، وأحداثاً، وزماناً، ومكاناً.

وبصفـة عامة تُسيطر على القصـة الروح الإسلامية التي تبدو في إرسال هذه القيـم السامية من خلال شخصيات مسلمة مرّت بأحداث وابتـلاءات، فكانـت تتعامل معها تعامـلاً إسلامياً تنتصـر فيه للدين، وتقـاوم الضعف والهوى، واثقة بعطـاء الله وعونه لمن أطاعه، وأخلص له.

ولا شـك أن القصة أشادت (بابن هبيرة) كشخصية تاريخية كان لهـا وجود في الحيـاة، وجعلت منه إنساناً يستحـق الإعجاب والتقدير. وهـذا يدفع الطفل مـن ثم إلى التطلّـع للتعرّف عليه، فيكـون التعريف

(١) «وزارة بعنقود عنب»، ص٣٥.

(بابن هبيرة) بعد انتهاء القصة أوقع في النفس، وأثبت؛ لوقوعه منها موقع الجواب بعد البحث والطلب.

وقد أثبت كاتبنا التعريف (بابن هبيرة) في نهاية القصة؛ ليضيف إلى ما سبق تعريف النشء بعلماء المسلمين، ودورهم في بناء حضارته الإسلامية؛ وليكون ذلك أثبت لواقعية القصة وصدقها.

ومن خلال كل هذا جاءت القصة في ثوب أدبي رقراق، يموج جمالاً في الأسلوب والتناول، وجلالاً في البناء والمضمون، مما يستولي على لبّ الطفل، ويقوده إلى الرغبة في سماعها وقراءتها، بل وإعادة سردها على أهله وأصدقائه، تاركة الأثر النفسي والتربوي الذي يقصده كاتبنا، ويهدف إليه. وكأني بالطنطاوي يهدف من خلال هذه المجموعة «حكايات من التاريخ» التي لم تزد على سبع قصص، يريد أن يقدم للكُتّاب - الذين أغرقوا أنفسهم في عالم الجن والعفاريت، أوالوهم والإثارة - النموذج الأمثل لقصص الأطفال، والتي تهدف إلى غرس القيم، وإثراء المعرفة، وتهذيب السلوك، وتنمية الملكات بأسلوب شيق عذب، وبمهارة فنية جذّابة تحقق غرضها المنشود.

وإذا أخذنا أسلوبه في قصة «بنات العرب في إسرائيل» مثالا لقصصه الاجتماعي، نراه استخدم - أيضاً - الفصحى في قرب وسلاسة، وانتقاء للفظ المعبّر عن المعنى المراد. وألفاظه عفيفة، وإن جاء فيها ما يثير الخيال للتعبير عن مواقف حرجة، ففي عبارات قليلة، وحدود ضيّقة، لا تجرح الحياء. كقوله:

«وجـاء النـادل (الكارسون) يقـدّم إليّ فتاة جرفتُهـا ببصري في لمحـة واحـدة، وجردتهـا بخيالي من ثيابها فـي ثانيـة، فرأيتها عارية أمامـي، وجمحـت بـي الغريزة، حتى لا أقـدر على الصبـر عن عناقها دقيقـة، وعن ضمّها إلـيّ، وعن أن أشدّ يدي عليها، ثـم آكلها عضاً ولم تكن فتاة، ولكنها فتنة في ثوب امرأة»[١].

فالطنطـاوي لـم يقصد بهذا المشهـد إثارة الغريـزة، أو تحريك الشهـوة، وإلا لما اكتفى بهذه العبارات الموحية، وإنما كان مقصده من ذلك أن يكشف للمرأة عن طبيعة الرجل، ويفضح ما في نفسه تجاهها، لتتوخى الحذر منه، وتعرف تربصه بها.

ومـع نُبل هذا الهدف الـذي أعلنه في بعض مقالاته وحوّله هنا إلى «معـادل موضوعـي»[٢] من خلال هذه الشخصية، نـراه لا يسوغ أن تقع هذه القصة وما شابهها في أيدي الشباب والشابات؛ خوفاً من أن يكون قد قصد بها الإصلاح فأفسد[٣].

وقـد اهتـم الطنطاوي فـي قصصه تلـك بالأسلـوب التصويري،

---

(١) «بنات العرب في إسرائيل»، قصص من الحياة، ص١٩.

(٢) المعـادل الموضوعـي: يعنـي تحويـل المشاعـر المجردة إلـى أشيـاء واقعية كما يقـول إليوت: إن الطريقـة الوحيـدة للتعبيـر عـن المشاعر فنياً، هـي إيجاد موقـف أو سلسلة مـن الأحداث والشخصيـات التي تعد (المقابـل) المادي لتلك العاطفة أو الموضـوع. (المصطلحات الأدبية الحديثة، د.محمد عناني، ص٥٤، ط٢، الشركة المصرية العالمية للنشر، ١٩٩٧م).

(٣) «بنات العرب في إسرائيل»، قصص من الحياة، ص٨٠٧.

والإيحائي الذي يبرز ملامح الشخصيات، وأبعاد الأحداث، ودلالات الألفاظ، وكأنها لوحات تنطق بالحركة والحس، والحياة.

ويلاحظ أن الطنطاوي قد عرض قصته - أيضاً - بالقدر الذي وفّى بغرضه منها، ولم يعرض من التفاصيل إلا بالقدر الذي يعمّق الإحساس بمأساة هؤلاء الفتيات، ويبيّن قسوة اليهود، وتخاذل المسلمين، مستعيناً في ذلك بأسلوب كفل له سهولة التعبير عن كثير من خواطره وأفكاره، وهو ما يطلق عليه «أسلوب السرد الذاتي» الذي يكون بصيغة المتكلم على لسان إحدى شخصياته؛ لتأتي التوجيهات والنصائح في أثناء سياق القصة على لسانه.

وقد أخفى الطنطاوي سرّ هذه الفتاة عنا وعن البطل، فلما كشفه، كان وراءه سر آخر أعجب منه بدأت الفتاة في كشفه شيئاً فشيئاً، بعبارات مثيرة، وأسلوب مؤثّر.

ولم يُسمّ الطنطاوي شخصياته؛ لأنه أراد أن يجعل منها قصة عامة تصدق على كثيرين، وليست قصة فتاة بعينها، وهذا من شأنه تعظيم الفجيعة، وتضخيم الأثر.

وهذا مثال لأسلوب الطنطاوي من تلك المجموعة القصصية التي يؤكد بسيره فيها سلامة اتجاهه الإسلامي في قصصه، حتى إنه لم تكن تعنيه العناصر القصصية بقدر ما تعنيه القيمة الأخلاقية، والرسالة الإنسانية الإسلامية التي يوجهها من خلال ملامح الشخصية، وما تتعرّض له من أحداث؛ ليكشف بهما عن أغوار النفس الإنسانية

وهـــي تواجه محن الحيــاة، ومتغيراتها بضعفها وعجزهــا، أو بطغيانها وإجرامها؛ لُيثير بذلك عواطف المتلقي تجاه هذه النوعيات من البشر، إمــا بالعطف والرفق، وإما بالاستنــكار والكراهية، كما في هذه القصة وقصة «طبق الأصل» و«أستاذ» و«العجوزان»[(١)].

وإذا كان الطنطــاوي بحماسته، وبيانه العذب، وتصويره المشوق، يُحيــل القصــة ـ أحيانــاً ـ إلى خطبــة، تكشف عما في الدنيــا من رذائل وفســاد في مقابــل ما عند الله من خيــر وثواب، وتعكــس حسه اليقظ، ومشاعــره الدفّاقة بالوعظ والإرشاد، كما في قصته «شيخ في مرقص» و«قصة أب» و«الباب الذي لا يُغلق في وجه سائل»[(٢)].

وقــد تبيّن فــي هذه القصص انفعــال الطنطاوي بأسلــوب القرآن الكريم، وتأثّره به في عرض قصصه من خلال مزجه الحكاية المشوّقة بالعظة المؤثرة، ومراعاته جمــال التصوير مع سموّ التعبير، مما جعله بحق رائداً من روّاد القصة الإسلامية في العصر الحديث.

---

(١) الأدب الإسلامي «قصص الشيخ علي الطنطاوي بين الدعوة والفن»، د/سعد أبوالرضا، ص٢٤، ٢٥، العددان (٣٤-٣٥).

(٢) السابق، ص٣٤، ٣٥.

المبحث الثالث

أسلوب الطنطاوي في تراجمه

إذا كان للقصة الأدبية من التأثير ما قد تمتلك به القلوب، فإن للتراجم الأدبية الإسلامية الجادّة من التأثير ما يمكنه تبديل النفوس وتغيير الفكر والسلوك؛ حيث إنها أشد للنفس إقناعاً، وأوثق بها إيماناً؛ لأنها فوق كونها قصص حياة، كان لها وجود في الواقع الملموس وهذا ما قد تفتقر إليه القصة الأدبية، التي غالباً ما تعتمد على الوهم والخيال، والذي يضعف من تأثيرها في نفوس متلقيها، ركوناً إلى أنها قد تكون من صنع الكاتب، أو خيال الأديب؛ ولذلك أدرك الطنطاوي ضرورة خوض هذا الفن، وتوظيفه توظيفاً إسلاميا، فذهب يستمد قوته من الواقع التاريخي، ويعتمد فيه على الطاقة الإبداعية في التقاط الصور الحية الهادفة من حياة رجالنا الأوائل؛ ليسهم بذلك في إحياء الشعور الديني، وتنمية الفكر الإسلامي بإعادة الثقة لشبابنا والتماس القدوة من رجالنا.

أسلوبه في ترجمته الشخصية:

والطنطاوي في ذكرياته ملتزم بهذا التوجه الإسلامي الذي صان أسلوبه فيه من الإسفاف والابتذال، وعصمه من العامية والخروج على القواعد اللغوية.

كمـا نلاحظ في أسلوبه هـذا التوجه الإسلامي مـن خلال صدقه وصراحتـه فـي تناول ذكرياته، فلـم يموّه الحقائق ولـم يُزيّف الوقائع، وقـد علمنا أن من أهـم ما يميز الطنطاوي، صدقه مع نفسه، وقد تعهد بصدقه مع قارئه في ذكرياته فقال:

«ولكن لكم علي عهد أنا موف به – إن شاء الله – هو ألا أقول إلا الحق وألا أذكر مما صنعت إلا ما يشهد كل من عاصره أنني صنعته»[١].

وقـد وفّـى الطنطـاوي بعهده فبـدت صراحته وصدقـه في عرض الحقائق وتصوير الأحداث دون مواربة أو تلفيق، مما جعل من ذكرياته نموذجاً رائعاً للسيرة الذاتية الإسلامية في عصرنا الحديث.

وقد أكّد صدق هذه الذكريات أمور من أهمها:

- أن الصدق كان صفة ملازمة للطنطاوي؛ حيث توافر له من الشجاعة والجرأة، وحسن الخلق ما ينأى به عن الكذب.
- أنها كانت تنشر في جريدة سيارة، مما يفتح مجالاً أوسع لجمهور القراء إلى المراجعة والتصويب؛ إذا حاد عن الصواب أو خانته الذاكرة.
- توقّفه – أحياناً – فيها عن مواصلة الأحداث، والوقوف على مايتذكره منهـا خوفاً من مجانبة الحقيقـة دون أن يلجأ إلى خياله الوثاب في سد الفجوات، أو اصطناع الأحداث.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١٢/١.

ومـن هنا فقد بدت مظاهر الصراحـة والصدق في ثنايا ذكرياته فـي أعلـى درجاتها؛ حيث لم ينسـب لنفسه بطولة زائفـة، أو يخف زلة مؤسفة باعتبار أنه بشر يخطئ ويصيب، ومن هنا رأيناه يصرح لقارئه بمواقف له قد يستنكف من هو في مكانته عن ذكرها.

من ذلك تصويره لموقف أهل دمشق من زيارة «بلفور» سنة ١٩٢٥م إليهم، وموقفه هو من ذلك؛ حيث يقول:

«مـا كان جمهور الناس يعرف بلفـور الوزير البريطاني، ولا وعده الذي تحمـل دولتـه وزره، وما كانت قضيـة فلسطين قد ظهـرت وعُرفت وصارت القضية الكبرى. الذي عرف قصة هذا الوعد الآثم هم طلاب «مكتب عنبر» لقد تساءلوا من الذي أعطى هذا الرجل حق التصرّف بفلسطين؟ كيف سوغ لهذا شرفه إن كان له شرف؟ كيف برره له عقله، وله -ولا شك- عقل!؟

وغضـب الطـلاب، وزاد غضبهم أن هـذا الرجل سيـزور الجامع الأموي.. كلا، هذا لن يكون، وخرجوا بالمظاهرة، وانشطرت المظاهرة شطرين، أما أحدهما فذهب إلى الأموي فأغلق أبوابه كلها، وأما الآخر فتوجـه إلى الرجل في فنـدق فيكتوريا، الذي كان مقابل المصرف على الضفة الأخرى من بردى.. لا تسألوني أين كنت في هذا اليوم، وأين أنا من أحداثه؟ إن جوابي ليس في مصلحتي، إنني لم أكن في العير ولا في النفير! لا في «القافلة» ولا مع المقاتلة.

لماذا لأنني «صدقوني» لم أكن أدري بكل شيء مما حدث! ومن أين أدري وأنـا أعيش بيـن بيتي ومدرستي، ما لي صديـق أسأله، ولا عندي صحيفة أقرؤها، ولا كان في الدنيا إذاعة أسمعها!.

لذلك ذهبت إلى المدرسة كما كنت أذهب كل يوم، فلم أجد فيها أحداً فعجبت، وقرع جرس الدخول إلى الصف فدخلت وكنت وحدي، وجاء المدرس لأنه لم يكن يستطيع ألا يجيء، ونظر إلي ووجهه ينطق بالازدراء لي! أنا وعدت في مقدمة هذه الذكريات أن أقول الحق، أقوله بلا تزيد إن كان لي، وأقوله بلا تردد إن كان عليّ، لقد كان الحق مع المدرس أن ازدراني! كيف لا يزدري طالبا يخالف إخوانه كلهم ويتجاهل موقف أهل بلده جميعاً؟

من يصدق أنني لم أدر بشيء؟ من يصدق؟

وخرجت أجر رجلي فوجدت باب المدرسة مفتوحاً فخرجت وكانت سوق الحميدية مغلقة ما فيها أحد، ووصلت إلى شارع النصر - شارع جمال باشا الذي لم يكن في دمشق شارع غيره - فصرت في وسط اللج.

بحر من الناس تلتطم أمواجه، يهجمون، يرجمون الجنود بالحجارة، ولقد رأيت رجلاً أمسك بحجر ربما زاد وزنه على كيل، فقذف به من فوق الشجرات الكبار التي كانت في الشارع.. فإذا كرّ عليهم الجند فرّوا، فإذا ولّوا رجعوا، فدخلت بين الناس علّي أعتذر أمام نفسي بأني شاركت الناس فيما هم فيه»[1].

فهذه لوحة ناطقة من الماضي، عكست عواطف الناس عندما كانت بهم حياة، وأظهرت مشاعرهم الساخطة في مواجهة الباطل،

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ج١، ص١٦٩، ١٧٠.

كمـا عبرت عن صدق وصراحة الطنطاوي فـي عرض موقفه، كما أنها تمثـل صورة من أسلوب الطنطاوي الحركي الذي يعنى نقله الحدث في صورة حية متحركة متمثلة للأذهان بأبعادها الحركية، والشكلية[١].

فصـورة طـلاب مكتب عنبـر، وهـم يتساءلـون تكاد تتـراءى لنا بملامحهـا القريبة والبعيدة، حيـث الدهشة علـى وجوههم، والغضب يملأ نفوسهم، والتصميم والعزم على منع الزيارة تنطق به ألسنتهم.

كما تتراءى لنا صورة تظاهرهم، والتحامهم بالناس المحتشدين، ثم انقسام هذا الحشد وتحركه في اتجاهين لمواجهة الجنود ورجمهم بوابـل من الحجارة، بعد إغلاق المسجد الأمـوي، كما نشعر باستحياء الطنطاوي في الإعلان عن موقفه يومئذ من خلال تمهيده بأسلوب ذكي، وحـوار وجداني قريب، خفف به قبول هـذا الموقف، وهيأنا لاستقباله، وهذا من إلهام طبعه، وحسه اليقظ في تعامله بأسلوبه مع النفس.

ويبـرز توجـه الطنطاوي الإسلامي في أسلـوب ذكرياته من خلال انطلاقـه فيها مـن منطلق إسلامي دعـوي؛ فقد كان يتلمسـ الأسلوب القرآنـي في أدائـه البياني باستغلال المواقـف والمناسبات التي يوجه مـن خلالها إلى القيم، وينبه إلى ما فيها من عبر بأسلوب عذب، وفكر لماح يلتقط العلاقات البعيـدة ويربط بينها؛ ليصل إلى مواطن التأثير التي تنبه الحس، وتهز النفس.

---

(١) الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد، د/أحمد بسام ساعي، ص١٣١، ط١، دار المنارة، جدة.

فهو حين ينقل إلينا إحساسه بالصحراء، ومخاوفه في رحلته فيها بقوله:

«... حتى الطبيعة من حولنا لا أحس منها إلا ما يبعث الخوف وينفي الأمان: تلال الرمل وصخور الجبال وأرض تشتعل رمضاؤها، وتنفث لهباً سماؤها، وسراب رأيته أول مرة، وحسبته ماء فهو كالشهرة، والمجد، والجاه، يتمناه المحروم ولا يشعر بالمتعة بها من أوتيها»[١].

فهو لا ينسى أن ينقل إلينا ما توحيه هذه الصورة في نفسه من أن الشهرة والمجد والجاه للمحروم، كسراب الماء في الصحراء للظمآن، ما إن يصل إليه حتى لا يجده شيئاً.

ويدعو الطنطاوي إلى استخدام هذا الأسلوب ليس في الكتابة فحسب، بل في معالجة كل مظاهر الحياة: من ربط العلم بالحياة، وربط الحياة بالدين، على نحو ما كان من حكمة الله تعالى البالغة، في تنزيله لقرآنه الكريم مواكباً لأحداث الحياة وهادياً لها. يقول:

«فياليت مدرسي الفقه: إن علّموا الطلاب أحكام الحج عرضوا لهم صور المشاعر، وأماكن العبادة، ليصلوا علوم الدين بحياة الناس في هذه الدنيا.

ولولا أني أبعد عن الموضوع، لعرضت لشيء أعلم أنه ليس هنا مكانه، ولكنها ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين!.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٨٦/٣.

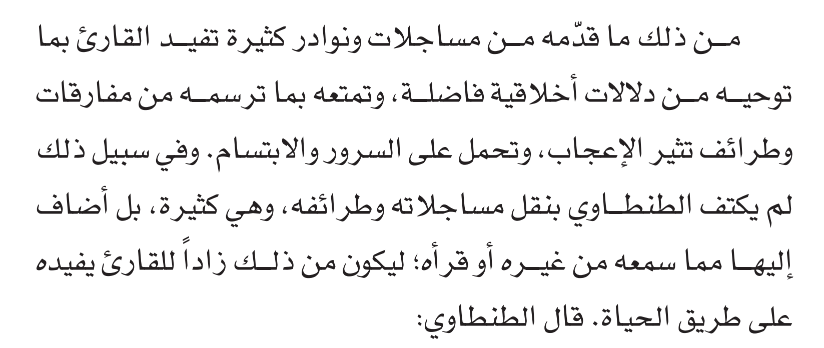
هـي أن دروس مدرسي الدين، وخطب خطباء المساجد ومواعظ الوعاظ، لا تبلغ من نفوس الناس غالباً مبلغها المرجو لها؛ لأنها تأتي بعيدة عن الحياة، منفصلة عنها، فكأنها الآثار تقتنى للإعجاب بها، ولكنها لا تستعمل للاستفادة منها: تعرض في الرائي البرامج وهي شتى، ولعل منها ما يخالف الإسلام، وأنا لا أقصر الكلام على المملكة بل أعمم، ثم تختم بتلاوة القرآن كما بدأت بتلاوة القرآن، فتأتي التلاوة منفصمة عما كان قبلها وعما كان بعدها.

وننسى أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، كما نزلت الكتب من قبله، وكما طلب الكفار، بل نزل منجماً، مرتبطاً بالحياة، تكون قصة أسرى بدر، فينزل فيها قرآن، وتكون مسألة الإفك، فينزل فيها قرآن، ينزل ـ دائماً ـ مقترنا بالأحداث؛ لنفهمه ـ دائماً ـ مرتبطاً بالحياة ولنربطه بها»[1].

على أن سر الحياة في هذه الذكريات يرجع إلى أسلوبها المميز؛ إذ إن الطنطاوي صاحب شخصية إسلامية مميزة بملامحها الإنسانية والفنية، والأسلوبية، والثقافية، والتي منحتنا الكثير من المعارف الإنسانية والأدبية المصطبغة بالصبغة الإسلامية، والتي تلفت النظر، وتحرك المشاعر، وتقود الوجدان، والعواطف؛ لمعرفة قضايا الكون، والحياة وفق تصور الإسلام.

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٨/ ٩٦.



مـن ذلك ما قدّمه مـن مساجلات ونوادر كثيرة تفيـد القارئ بما توحيـه مـن دلالات أخلاقية فاضلـة، وتمتعه بما ترسمـه من مفارقات وطرائف تثير الإعجاب، وتحمل على السرور والابتسام. وفي سبيل ذلك لم يكتف الطنطـاوي بنقل مساجلاته وطرائفه، وهي كثيرة، بل أضاف إليهـا مما سمعه من غيـره أو قرأه؛ ليكون من ذلـك زاداً للقارئ يفيده على طريق الحياة. قال الطنطاوي:

«... وعنـدي فـي هذا البـاب أخبار كثيـرة أروي الآن واحداً منها، حدثني به فـي مصر الأستاذ/ أحمد حسن الزيات صاحب (الرسالة) عـن شيخ سماه ونسيت أنا اسمه، قال: كان هذا الشيخ مدرساً لا يعرف مـن الدنيا إلا الجامع الأزهـر الذي يدرّس فيه قبـل أن تدخل عليه تاء التأنيـث، فيصير جامعـة، والبيت القريب منه الـذي يسكنه، والطريق بينهمـا.. فلما طالت عليه المدة، وعلت بـه السن، واعتلّت منه الصحة احتـاج إلـى الراحة، فألزمه الطبيب بها، وأشـار عليه أن يبتعد عن جو العمـل ومكانه، وأن ينشد الهـدوء في البساتيـن والرياض، وعلى شط النيـل، فخـرج، فاستوقف عربة، ولـم تكن يومئذ السيـارات، وقال له: خذني يا ولدي إلى مكان جميل أتفرج فيه وأستريح.

وكان صاحب العربة «العربجي» خبيثاً، فأخذه إلى طرف الأزبكية؛ حيث كانت بيوت المومسات، وقال: هنا!

قال: لقد قرب المغرب فأين أصلي!؟ خذني أولاً إلى المسجد.

قال: هذا هو المسجد!.

وكان البــاب مفتوحاً، وصاحبة الـدار قاعدة على الحال التي يكون عليهــا مثلهــا. فلما رآهــا غض بصره عنهــا، ورأى كرسيــاً، فقعد عليه ينتظــر الأذان، وهــي تنظــر إليه، لا تدري مــا أدخله عليهــا، وليس من رواد منزلهــا، ولا تجرؤ أن تسأله، منعتها بقية حياء قد يوجد أمام أهل الصلاح حتى عند المومســات، وهو يسبّح وينظر في ساعته حتى سمع أذان المغــرب من بعيــد، فقال لها: أيــن المؤذّن!؟ لمــاذا لا يؤذّن وقد دخــل الوقت!؟ هل أنت بنته!؟ فسكتت. فانتظر قليلاً، ثم قال: يا بنتي.. المغــرب غريب، لا يجوز تأخيــره! وما أرى هنا أحداً، فإن كنت متوضئة فصلي ورائي تكن جماعة!

وأذّن، وأراد أن يقيــم، وهــو لا يلتفــت إليهــا، فلما لــم يحس منها حركــة! قال: ما لك ألست على وضــوء؟ فاستيقظ إيمانها دفعة واحدة، ونسيت ما هي فيه، وعــادت إلى أيامها الخوالي، أيام كانت فتاة عفيفة طاهــرة، بعيدة عن الإثم، وراحت تبكي وتنشــج، ثم ألقت بنفسها على قدميه!...

فدُهشــ ولم يدر كيــف يواسيها وهو لا يريد أن ينظــر إليها، أو أن يمسهــا.. وقصّت عليه قصتها، ورأى مــن ندمها وصحة توبتها ما أيقن معــه صدقها فيها، فقال: اسمعي يا بنتي ما يقول رب العالمين: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] جميعــاً يــا ابنتي!

---

(١) سورة الزمر الآية: ٥٣.

إن بـاب التوبة مفتوح لكل عاصٍ وهو واسع يدخلون منـه، فيتسع لهم، مهمـا ثقل حملهم من الآثام، حتى الكفـر، فمن كفر بعد إيمانه ثم تاب قبـل أن تأتيـه ساعة الاحتضار، وكان صادقاً فـي توبته، وجدّد إسلامه فإن الله يقبله. الله يا بنتي أكرم الأكرمين، فهل سمعت بكريم يغلق بابه في وجه من يقصده، ويلجأ إليه، معتمداً عليه؟

قومي اغتسلي والبسي الثوب الساتر، اغسلي جلدك بالماء، وقلبك بالتوبـة والنـدم، وأقبلـي على الله، وأنـا منتظرك هنـا، لا تبطئي لئلا تفوتنا صلاة المغرب.

ففعلـت ما قـال، وخرجت إليه بثـوب جديد وقلب جديـد، ووقفت خلفه، وصلت صلاة ذاقت حلاوتها ونقّت الصلاة قلبها!.

فلمـا انقضـت الصلاة قـال لها: هلمّـي اذهبي معـي، وحاولي أن تقطعي كل رابطة تربطك بهذا المكان ومن فيه، وأن تمحي من ذاكرتك كل أثر لهذه المدة التي قضيتها فيه، وداومي على استغفار الله والإكثار من الصالحات، فليس الزنا بأكبر من الكفر، و«هند» التي كانت كافرة، وكانـت عدواً لرسول الله، وحاولت أن تأكل كبد عمه حمزة، لمّا صدقت التوبة صارت من صالحات المؤمنات، وصرنا نقول: رضي الله عنها!.

وأخذهـا إلـى دار فيها نسـوة ديّنات، ثم زوّجهـا ببعض من رضي الزواج بها من صالحي المسلمين، وأوصاه بها خيراً»[1].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ١/ ١٩٤، ١٩٦.

فمثل هذه (النادرة الطريفة)[1] تمتع القارئ وتفيده في آن واحد؛ حيث يتعرّف من خلالها على أهمية التأثير بالحال قبل المقال، ويتبين له الخير والطهر الكامن في النفوس المنحرفة عن الفطرة الإسلامية، ومدى شقائها بهذا الانحراف، والتي متى وجدت من يعيد إليها طهرها، ويحسن رسم الطريق لها، الذي يردّها إلى فطرتها، ويدلّها على سعادتها عادت إليه من قريب.

ومن هنا يُلاحظ على هذه الذكريات - على الرغم من طولها - أنها جاءت عذبة سلسة، صافية الأسلوب مما يعكره من خبيث الألفاظ، وثقل الكلمات، وزيف العبارات، بعيدة عن التكلف، والتعسف، ومتضمنة استطرادات مفيدة، وطرائف حلوة، وخواطر عميقة، وسخرية مهذبة، كُتبت عن عقيدة سليمة، وعاطفة صادقة قوية، مما يؤدي - حقيقة - إلى سريان النفس معها في إمتاع، وخفة، منتقلة من موضوع إلى موضوع حتى النهاية دون ملل، أو فتور.

أسلوب الطنطاوي في تراجمه الذاتية الغيرية:

أسلوب الطنطاوي في تراجمه الغيرية مصطبغ بالصبغة الإسلامية الخالصة؛ حيث كان حريصاً فيها على الأمانة والدقّة، وجمال الصياغة، وحسن الترتيب.

---

(١) النادرة، والملحة، والطرفة: سرد قصير لحادثة طريفة شيقة، أو متعلقة بشخص من الأشخاص المعروفين (معجم مصطلحات الأدب. مجدي وهبة ص١٧، طبعة مكتبة لبنان).

ففي كتابيه عن «أبي بكر وعمر» رضي الله عنهما نراه قام بجهد كبير؛ حيث تناول حياتهما ـ في مجلدين كبيرين ـ من البداية إلى النهاية فكانت (ترجمة كلية)، قام بجمع الروايات التي تتعلق بهما وتحقيقها، وتنقيحها من الضعيف والزائف، وهذب أسلوبها ووضّح غامضها، وألّف بينها تحت عناوين داخلية تبرز أبعاد الشخصية، وتوضّح معالمها الحقيقية.

وهذا جهد كبير وعمل محمود؛ إذ هو أساس لكل دراسة تعقبه؛ لأن الكاتب نزّه كتابه عن أن يكون بحثاً تحليلياً يعتريه الصواب والخطأ، وإنما جعل منه مرجعاً علمياً، وسجلاً تاريخياً[١].

وللطنطاوي أسلوب آخر في (تراجمه الجانبية) وهي التي تناول فيها جوانب مميّزة من حياة شخصياته؛ حيث كان يجمع أقوال المؤرخين حول شخصيته التي يترجم لها، ثم يحقّقها، ثم يختار منها مشهداً بارزاً يجعله مدخلاً إلى الكتابة عنها، ومحوراً لترجمته التي يضفي عليها من عواطفه وأحاسيسه ما يبعث فيها الحياة، فيكون ما يكتبه وسطاً بين القصة الأدبية والسيرة التاريخية، وعلى ذلك جاءت تراجمه التي جمعها في كتابه (رجال من التاريخ) وكذا ما تناوله في (سلسلة أعلام التاريخ) و(قصة حياة عمر) حيث بدت في بناء تحليلي، روائي، متماسك، خلع عليها الطنطاوي من عواطفه وانفعالاته ما عكس شاعريته، وأظهر أحاسيسه في بعث التاريخ وبثّ الحياة في أحداثه، حتى ظهرت الأحداث وكأنها ماثلة للعيان واضحة في الأذهان.

---

(١) منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية، علي خالد السداني ص١٥٩، المكتبة العصرية، ط١، ١٩٨٩م.

كما تبـدو إسلامية أسلوب الطنطاوي فـي تراجمه من خلال عفة ألفاظـه وقربهـا، ووضـوح معانيـه وسموها، فقـد تميـزت ألفاظ هذه التراجم وتراكيبها: بأنها قريبة عفيفة، سلسة الأداء، بارعة التراكيب، بعيـدة عمـا يفسد الأسلوب من فجاجة اللفـظ، أو ثقله، أو غرابته، وما يعيـب العبارة من تعقيد أو تنافـر أو غموض؛ حيث إن الطنطاوي متأثر في أسلوبه بالأداء القرآني في حرصه على سلامة بيانه، ووضوح كلامه لكل الطبقات ولمختلف المستويات مع بلوغه سنام البيان، وانتقائه من الصـور ما يحيي بـه الكلام؛ لتتحرك النفوس الساكنـة، وتحيا القلوب الميتة بما تراه من قيم ومثل، وعظات وعبر.

عرض الطنطاوي أول مواقف عمر رضي الله عنه بعد توليته الخلافة بأسلوبه العذب، وكلماته المضيئة، فقال معقبا عليه:

«لم يكد عمر ينفض يده من تراب أبي بكر رضي الله عنهما حتى قام في مكانه، فألقـى خطبة العرش، وعرض فيها سياستـه ومنهاجه، لا كما يعرضها ملـوك اليوم، ورؤسـاء الزمان، ألفاظـاً معسولة، تحمـل أحلاماً بعيداً تحقيقهـا، وأمانيّ متعسـراً بلوغها، يخدعون بها النـاس عن رضاهم، وينالـون بهـا إعجابهم، ثـم لا ينفذون شيئـاً منها! بل عرض منهاجه ونفذه، وزاد عليه، وكان فيه نادرة الزمان، وأعجوبة الدهر.

أعلـن أنه لم يبلغ ذو حق أن يطاع في معصية الله، فلا يطيعونه إلا في أمر جائز، فهو رئيس جمهورية دستوري، مقيد بالقرآن، وقائم على تنفيـذه، وليس بالملك المطلق الذي يمنح أوامره صفة التشريع، ولا هو

بالحاكم الجبار الذي يتخذ الناس عبيداً له وخولاً. وأعلن حقه من بيت المــال، بأنه ينزل نفسه منزلة ولي اليتيــم، إن استغنى كف، وإن احتاج أكل بالمعــروف، فلا يتخــذ الخلافة مغنماً ولا سلمــاً للعلو على الناس، والاستكبار في الأرض، ولا يملك حق التصرف بخزينة الدولة كتصرف مالك المــال بماله، وسار في خلافته كلها على هــذا الأسلوب الشعبي، واستطاع بعقلــه الكبير أن يسيّر وحده هذه المملكة الواسعة، على شكل من العدالة لم ير التاريخ مثله إلى اليوم!.

كان يعلــم الناس بحقوقهم، ويبصرهم بهــا، ويحثهم على مراقبة الخليفة وولاته، حتى بلغ في ذلك حد التصريح بأن على الناس أن يولوا رجلاً منهم فإن استقام اتبعوه، وإن جنف قتلوه.

فيعترضــ عليــه طلحــة، ويقول له: ومــا عليك إذا قلــت: وإن تعوج عزلوه؟

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا، القتل أنكل لمن بعده!.

ألقى عليهم هذا الدرس، ثم امتحنهم به، فسألهم وهو على المنبر، مــا هم فاعلــون إذا رأوا فــي الخليفة اعوجاجاً، فلمــا رآهم قد حفظوا الدرس، وعرفوا ما لهم من حق عليه، اطمأن وسر!».

هــذا الموقف العظيم مــلأ على الطنطاوي مشاعــره، وتحركت به نفسه المتألمة من سلوك الحكام الذين ابتعدوا عن النهج القويم فراح يقول:

«أفرأيت ملكاً من الملوك أو رئيساً يقف من شعبه موقف الزعيم الوطني المتطرف، والمعارض الخطر الذي يحث الناس على البطش بالحكومة وتقويمها بالسيوف إذا رأوا فيها اعوجاجاً، وأنسوا منها ميلاً؟»[١].

وكأني بالطنطاوي يبعث برسالة - بهذا الأسلوب الرائع - إلى الشعوب الإسلامية؛ ليبث فيهم - من خلالها - هذه التربية السياسية الإسلامية الحقة التي كان يربيها عمر رضي الله عنه لرعيته حين يعرفهم بحقوقهم، ويحدد سياسته معهم، ويأمرهم بمحاسبته ومراقبته، بل والتخلص منه إن حاد عن الإسلام.

ويلاحظ إسلامية أسلوب الطنطاوي في تراجمه من خلال تأثره الواضح بالأسلوب القرآني، والبيان النبوي، الذي أضفى على أسلوبه قوة وجمالاً.

من ذلك قوله معلقاً على جرأة القاضي (منذر بن سعيد البلوطي)[٢] على الخليفة (عبد الرحمن الناصر)[٣] الذي انقاد له وهابه؛ للحق الذي التزمه، وصدر عنه:

---

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص٢٣ - ٢٥، ط١، دار المنارة، جدة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٢) منذر بن سعيد بن عبد الله القرطبي، أبو الحكم البلوطي (٢٧٥ - ٣٥٥ هـ/ ٨٨٦ - ٩٦٦م) قاضي قضاة الأندلس في عصره (معجم الأعلام ص٨٦٣).

(٣) عبدالرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله.. بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ٢٧٧-٣٥٠هـ = ٨٩٠ - ٩٦١م، أول من تلقب بالخلافة من رجال الدولة الأموية في الأندلس، وتلقب بالناصر لدين الله (معجم الأعلام ٤٠٣).

«.... يا أيها السادة:

إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءته هذه الهيبة في الصدور، وهذه الجلالة في النفوس، وهذه المنزلة عند الخليفة والناس؟ فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله، وخوفه منه، وعبادته لله، واتصاله به. إنّ من خاف الله خافه كل شيء، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه، ومن أطاب مطعمه ومشربه استجاب الله دعاءه»[١].

ويتضح من هذا القول ملامح تأثره بالبيان القرآني، والأسلوب النبوي في ألفاظه ومعانيه؛ حيث قد بدأ كلامه بأبلغ حروف النداء (يا) مع حرف التنبيه (ها) ليعكس بذلك حرصه على انتباه المتلقي، واستعداده وتهيئته لما يلقى عليه من نتيجة مهمة يحرص على ألا يفوته منها شيء.

ثم استعطف قلوب المنادين بنعتهم «بالسادة» وهي كلمة جميلة محببة؛ وذلك تقريباً وترغيباً لهم في الإقبال عليه.

وبعد هذا النداء، والتنبيه، والاستعطاف، يبدأ كلامه بجملة الشرط، والتي يتعلق الذهن بها، ويتشوق إلى جوابها، حتى إذا أتى به، وهو المقصود، وقع في النفس موقعاً حسناً على انتباه من المتلقي وترقب له، بعد طلبه وتطلعه إليه.

وإذا نظرنا إلى جملة الجواب التي تشوقت النفس إليها، رأيناها مقترنة بأداة القصر التي تؤكد المعنى المتمثل في تمجيد هذه القيم

(١) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج ١، ص٢٢٦.

والمعانــي الإسلامية، والتــي كانت السبب الحقيقي فــي مهابة الرجل، وجلالــه، وعلو منزلته، وانقياد الناس والحكام له؛ فكان من ذلك دعوة ضمنية قوية للتمسك بهذه القيم، والترغيب في التحلي بها.

ويلمح استمداده المعنى في قوله: «إن من خاف الله خافه كل شيء» مــن قوله تعالى في شــأن هيبة المؤمنين في صــدور أعدائهم ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[١].

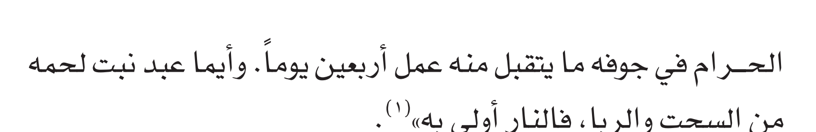
ولعــل استمــداده المعنى فــي قوله: «ومن كان مــع الله جعل الخلق كلهــم معه» مــن الحديث الذي أخرجــه الإمام البخاري مــن رواية أبي هريــرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عــن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله تبــارك وتعالى إذا أحب عبــداً نــادى جبريل: إن الله قــد أحب فلاناً فأحبــه، فيحبه جبريل، ثم ينــادي جبريل في أهــل السماء: إن الله قد أحب فلانــاً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في أهل الأرض»[٢].

ويلمــح استمــداد الطنطاوي لمعناه في قوله «ومــن أطاب مطعمه، ومشربه استجاب الله دعاءه» من حديث النبي ﷺ الذي رواه ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «تُلِيَتْ هذه الآية عند رسول الله ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾، فقــام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة! فقال النبي ﷺ يا سعد! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة. والذي نفس محمد بيده، إن العبد ليقذف اللقمة

---

(١) سورة الحشر آية: ١٣.

(٢) صحيح البخاري «كتاب التوحيد»، ص٩٧، حديث رقم ٧٤٨٥، المجلد ١٣، طبعة دار الريان.



الحــرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً. وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا، فالنار أولى به»[١].

وهذا ينعكس تأثر الطنطــاوي بالقرآن الكريم، والسنة النبوية في أسلوبــه، ومعانيه ممــا أضفى علــى أسلوبه قوة وجمــالاً، ومنحه تأثيراً ونفاذاً.

ويُلاحــظ فــي مجموعته (رجــال من التاريــخ) احتفــاؤه بأسلوب التشويــق والإثــارة؛ ليدفع المتلقي إلــى الانتباه والاستجابــة، ومن هنا كثيراً ما كان يبدأ ترجمته بعنوان لا يذكر فيه اسم الشخصية، وبمقدمة عنه يستثير فيها ذهن المتلقي إلى التطلع والتشويق لمعرفة الشخصية التــي يتحدث عنهــا، كما في تراجمــه التي جاءت تحت عنــوان «معلمة الرجــال»[٢] و«سيدة جليلة»[٣] و«أمير المؤمنيــن»[٤] و«العالم النبيل»[٥] و«الفقيه الأميرال»[٦] و«من ورثة الأنبياء» التي يقول منها:

«هــذه قصــة عالم.. عالــم أخلص للعلم حتــى جعل طلبــه أكبر غاياته... وغاية حياته، وكان ـ كما قال عن نفسه ـ يمشي الأيام في طلب

---

(١) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني، ج٦، ص٣١٠، حديث رقم ٦٤٩٥، تحقيق طارق بن عوض الله ابن محمد، وعبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين ١٤١٥هـ.

(٢) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج١، ص٣٣.

(٣) السابق، ١/ ٣٩.

(٤) السابق، ١/ ٤٩.

(٥) السابق، ١/ ٥٦.

(٦) السابق، ١/ ٦٣.

الحديث الواحد، وبلغ فيه منزلة شهد مكحول الدمشقي العلامة، بأنه طاف الأرض كلها في طلب العلم فلم يجد أعلم منه، وكان أحد بناة هذا الصرح العلمي الذي شاده العلماء من تلاميذ محمد ﷺ.

وكان في هيبته وجرأته، وصراحته مع الملوك أمة وحده، وله مواقف مع عبدالملك، والوليد، والحجاج تقرؤها فتحسبها من أحاديث الخيال.

رفض عطاء السلطان فتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهماً، وكان له (٤٠٠) درهم يتجر بها الزيت ويعيش منها.

وكان فقيهاً، وكان محدثاً، وكان أديباً، وكان شاعراً. وبقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في المسجد، ولم يبدل مكانه من الصف الأول.... كان سعيد»[١] يعني سعيد بن المسيب. رحمه الله.

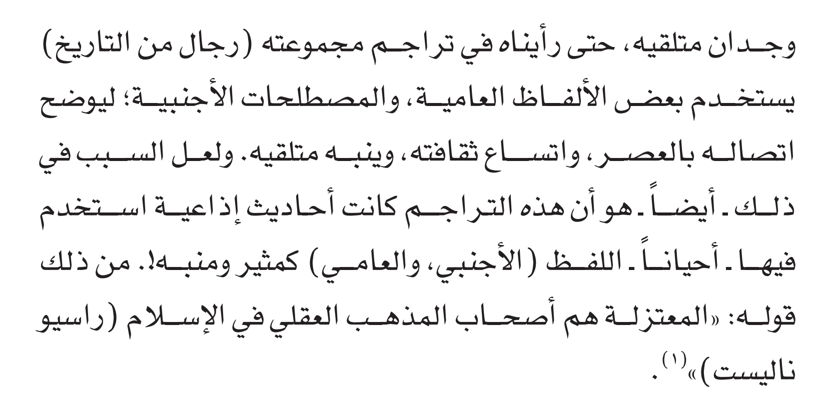
فالطنطاوي هنا قد ترك لذهن القارئ البحث عن صاحب هذه الأوصاف الجليلة، وشوقه للتعرف عليه، حتى إذا امتلأت نفسه بملامح هذه الشخصية، وتشوق إلى معرفتها صرح باسمها؛ ليقع الكلام من النفس موقعاً حسناً ويترك فيها أثراً مستمراً[٢].

وهكذا يلاحظ أن الطنطاوي كان في انطلاقه الإسلامي، حريصاً على منح أسلوبه كل وسائل التأثير، فكان يتخير من الأسلوب، ومن اللفظ، ومن الطريقة ما يتناسب مع غرضه، ويلبي هدفه، وينفعل به

---

(١) السابق، ١/٩٩، ١٠٠.

(٢) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/عبدالحميد شعبان، ص٣١، ٣٢.



وجـدان متلقيه، حتى رأيناه في تراجـم مجموعته (رجال من التاريخ) يستخـدم بعض الألفـاظ العاميـة، والمصطلحات الأجنبيـة؛ ليوضح اتصالـه بالعصـر، واتســاع ثقافته، وينبـه متلقيه. ولعـل الســبب في ذلـك ـ أيضـاً ـ هو أن هذه التراجـم كانت أحاديث إذاعيـة اسـتخدم فيهـا ـ أحيانـاً ـ اللفـظ (الأجنبي، والعامـي) كمثير ومنبـه!. من ذلك قولـه: «المعتزلـة هم أصحـاب المذهـب العقلي في الإسـلام (راسيو ناليست)»[١].

وقوله: «وكان يبرز لذويه ولمن يحتشم منه على حقيقته صورة بلا «رتوش» ووجهاً بلا «مكياج»....»[٢].

وكقوله: «ويقرأ في الكتب الفقه، و«يسيب» أمور الدنيا»[٣].

وهذا بلا شك يثير انتباه المتلقي بسمعه، ويستحوذ على إعجابه، حين يـرى ذلك الكلام يصدر عن شيخ يتكلم في الدين، متمكن من الفصحى، مستوعب للتاريخ، وهو ما لم يكن مألوفاً، كما أشار إلى ذلك أحد مستمعيه بقوله: «وكان يذكر فـي معرض حديثه كلمات فرنسية، ويشرحها، فيعجب النـاس مـن شيخ يتقن الفرنسيـة، ويتحدث عـن الأدب الفرنسي فنُدهش لعالم دين يعرف الأدب العالمي وشخصياته معرفة وثيقة»[٤].

---

(١) رجال من التاريخ «خطيب الدهر»، ج ١، ص١٣٢.

(٢) السابق، ج ٢، ص١٧٤.

(٣) رجال من التاريخ، ج٢، ص٢٣.

(٤) من كلمة بعنوان «السابقون إلى الدار الآخرة: الشيخ علي الطنطاوي في ذمة الله، الأستاذ/ أنور عبد المجيد الجبرتي (هاجر أم المسلمين) ص١٧، العدد ٥٠، أغسطس ١٩٩٩م.

المبحث الرابع

أسلوب الطنطاوي في مقالاته

إذا كانت حرية الأديب تستلزم تعدد المناهج التعبيرية، واختلاف الأساليب البيانية، تعدداً واختلافاً ناشئين عن استجابة فنية من الكاتب، لما يتطلبه الموضوع الذي تفاعلت به نفسه، من طرق تعبيرية، تبسّط الموضوع وتنقل صورته من مخيلة الكاتب إلى المتلقي!

فهي ليست حرية مطلقة - كما يتوهم بعض الدارسين - ولكنها حرية محدودة بأطر فنية، وواقعية، واجتماعية، ودينية، وفطرية، لا مفر من الالتزام بها وعدم الخروج عليها[١].

والمتأمل لمقالات الطنطاوي يلاحظ أنه يتناول في معالجة موضوعاته الأساليب البيانية المختلفة مستجيباً في ذلك لما يتطلبه الموضوع، وشعوره تجاهه، وملتزماً بالأطر الفنية، والإسلامية، والاجتماعية، والفطرية دون تكلّف أو اعتمال.

ففي مقالته (مناظرة قصيرة مع الأستاذ عارف العارف خليفة ميشيل عفلق)[٢] نراه يعتمد في تقديم رؤيته على الاحتكاك الحواري

---

(١) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٠٦.

(٢) مجلة الفتح، ص١٠، العام الثاني عشر، الخميس ١٦ ذي الحجة ١٣٥٦هـ، ١٧/٢/١٩٣٨م.

الناشئ مع طرف آخر له علاقة بموضوعه؛ لتتكشف من خلاله للمتلقي أبعاد رؤيته، دون حاجة إلى تصريحه المباشر عما يريد.

ودفع الطنطاوي لاختيار هذا الأسلوب ما كان من تعيين (ميشيل عفلق) مدرساً – وكان نصرانياً – لتدريس العلوم الإسلامية لطلبة الثانوية، وأظهر من الخلط والتلفيق ما لا يرضاه أحد، فثار حوله الكلام، وكتب الطنطاوي مقالين في بيان أغلاطه وبطلانها، مما أدّى في النهاية إلى قلعه، ونقله لتعليم الصغار، واستبدال الأستاذ (عارف العارف) المدرس المسلم القادم من كليات باريس به.

وكان أن جمعت المصادفة بين الطنطاوي وعارف، ودار بينهما نقاش حول (ميشيل عفلق) وكتب المستشرقين كمصدر لدراسة علوم الدين.

ونشر الطنطاوي هذا النقاش في تلك المقالة؛ ليطلعنا على رؤيته في ذلك، ويرينا طرفاً من أفكار هؤلاء «الجهلاء» الذين نلقي إليهم مقاليد التعليم في بلادنا منخدعين بشهاداتهم الغربية.

قال الطنطاوي كاشفاً عن ذلك الحوار؛ لتتضح أبعاد تلك القضية:

«... وكان من اللياقة أن أفتح له باب الحديث بهذا السؤال بعد الذي سمعت من أنه كان يسبح في الأرض يجمع الـ... شهادات! كما يجمع الناس الحشرات النادرة أو الحجارة الغريبة! وقد ألّف مجموعة طيبة من هذه الشهادات جمعها من أكبر الجامعات: في اللاهوت،

والتاريخ، وما لست أدري... فأجابني بأنه عُيّن في ثانوية دمشق بدل (ميشيل عفلق)...

فسألت الأستاذ عارف عن رأيه في ضلالات هذا الخواجة، وانتظرت بالطبع ما يُنتظر من كل مسلم،عالم، وهو إنكاره والبراءة من صاحبها؛ وإذا بالأستاذ يفاجئني بقوله: «أنا لست معك يا أستاذ فيما كتبت، ولقد كنت عازفاً على الرد عليك!

فورد عليّ من كلامه أعجب وارد، لا جزعا من رده، فأنا أعلم، والناس يعلمون، ماذا يصنع معي مثل هذا إذا ردّ عليّ، وأنا أعلم الناس ببضاعة هؤلاء الذين يعودون من أوروبا. وقد ركّبوا بين أكتافهم رأساً إفرنسيا، أو إنكليزيا، فلا يعجبهم شيء شرقي مهما كان، ولا يسوؤهم شيء غربي مهما يكن! ولكني جزعت -والله- أن يكون هو الخلف المرتقب لذلك السلف الخبيث، وأن يضيع ما كان لنا من أمل فيه، فسألته وقد كتمت غيظي:

ولماذا لا تردّ عليّ اليوم؟ إنه لم يفت الوقت، ومع ذلك فأنا أتحداك، ولعلي ـ إن شاء الله ـ ملحقك به، فإنك تعلم أي قلم في يميني!

فقال الأستاذ عارف: «إن ميشيل عفلق اعتمد على مصادر استقى منها ما قرره، وهو غاية ما يستطيع أن يصنعه ولم يجئ بها من بيت أبيه..

قلت: ولكن كتب المستشرقين يا أستاذ عارف ليست هي موارد دراسة القرآن، والسنة، والتشريع وأصوله، وإنما مواردها العذبة الصافية التي لا مورد قبلها ولا بعدها هي كتب أئمتنا وعلمائنا.

فلـم يسمـع الأستـاذ عـارف هـذه الكلمـة حتـى غضـب غضبـة «إفرنسيـة» وانتفض كمن لسعته عقـرب، وراح يقرر في هياج وصخب، أن المستشرقين أعلم بالقرآن والسنة من علمائنا كلهم.

ولـم يطق القوم سماع هذا الهذيان من مدرس محترم يحمل أكبر الشهـادات... فثـاروا به، وانبرى لـه فضيلة الأستـاذ العلامة الشيخ/ صالح المدهون فدمغ باطله بالحجج الثابتة، وأكله أكلاً، حتى صار بين يديـه مثل الأرنب بين يـدي الأسد، فاضطر إلـى التراجع، وذهب يلقي كلاماً طويلاً، لم يدع له الرعب رابطة ولا نظاماً...»[١].

ثـم قال الطنطاوي مفنّداً هذه الفريـة، وساخراً بتصورها: «لست أقـول لهـذا المدرس أنـت عاص، أو خـارج عن الملة، فـإن في الشبان اليـوم من يفتخـر بالعصيـان والخروج عـن الإسلام، ولكنـي أقول له الكلمـة الصادقة التـي تؤلمه ولا يجد لها دفعاً، أقول لـه: يا أستاذ أنت جاهـل برغم هذه الشهـادات، وهذه الورقـات المصدقات من كبريات الجامعـات... ولو لم تكن جاهلاً لعلمـت أن من العلوم علوم المعقولات كعلـوم الرياضة، والطبيعة، وهذه من العلـوم التي تُستنبط من التفكير والبحـث، وهي التي تفوّق فيها الأوربيون علينـا كما تفوقنا نحن عليهم فـي القـرون الوسطى، وأن مـن العلوم ما يكـون منقولاً، كعلـوم الدين والمـدار فيـه على تحرّي الصـدق والضبط في روايـة النص، ولا قيمة فيهـا لأي بحث أو فكر لم يستند إلى نص كالتاريخ، فهل يرتجل التاريخ

(١) «مجلة الفتح»، ص١٠-١٢ السابق.

ارتجـالا؟ فكيـف إذاً يكتـب المستشرقون فـي القرآن والسنـة وأصول التشريـع الإسلامي إذا لم يعتمدوا على هـذه النصوص، وإذا اعتمدوا عليها فما هو الجديد الذي يمكن أن يجيئوا به ولا يعرفه علماؤنا!؟ وإذا جـاؤوا بهذا الجديد فما هي قيمته العلمية فـي نظر المسلم الذي يعلم أن دينـه مستمد من الكتاب والسنة فقط، وما يلحق بهما ويؤخذ منهما من إجماع وقياس...»[١] إلى آخر ما جاء بالمقال.

وهذا الموضوع يدور حول أمر إسلامي علمي، تطلّب من الطنطاوي هـذا الأسلوب الحـواري الاحتكاكي؛ ليكشـف به عن رؤيتـه وإحساسه بالخطر تجاه هذه المعتقدات الزائفة التي تستهدف ثقافة الأمة وهوية أبنائها، وخاصة إذا صدرت ممن يتولون التوجيه والتعليم في بلادنا.

وفي مقالته «فن الكلام» يلاحظ أن الحوار غير مفروض من كاتب آخـر، ولكن الكاتب رأى أن ما لديه مـن رؤى قد يضل عنها المتلقي في غيابـات الذهنية إذا هي قدمـت مباشرة، فلجأ إلـى اصطناع شخص آخـر يواجهه برؤيته ويجري معه مـن الحوار ما يبرز في ثناياه الصورة التـي يراها؛ لتصل المتلقي مجسمة مشخصـة تتحرك الفكرة خلالها واضحة و تكون أسرع إلى قبوله إياها وأعمق تأثيراً فيه[٢].

يقـول: «زارني الليلة البارحة صديق لـي فاستقبلته، واعتذرت إليه بأني مشغول.. عندي مقالة، قال: كل يوم مقالة، أو حديث!؟ متى تنتهي هذه المقالات وهذه الأحاديث؟

---

(١) «مجلة الفتح»، ص١٢، السابق.

(٢) فن المقال في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٢٩.

قلت: حتى أنتهي أنا...

قال: إنك تنشر باستمرار من أربعين سنة فمن أين تجيء بهذه الموضوعات كلها؟

قلت: أسمع كلمة من تكلم، أو أبصر مشهداً في طريق فأدير ذلك في ذهني ولا أزال أولّد من الكلمة كلمة، ومن المشهد مشهداً حتى يجيء من ذلك حديث أو مقالة.

قال: أرني كيف تصنع حتى أتعلم!

فضحكت وقلت: إنها عملية تتم في ذهني لا في يدي، فكيف أريك ما لا يرى!؟

وكنا قد شربنا القهوة ولكني لا أكتفي بها، ووجدت أنها لا تزال بي رغبة إلى الشاي، وأنا كالإنكليز (في هذه فقط) أشرب الشاي في الصباح وفي الأصيل وفي الليل لا أنتهي منه حتى أعود إليه!.

فقلت للبنت: قولي لأمك: بابا يسألك: هل من آداب الضيافة أن نقدم الشاي بعد القهوة؟

فذهبت فقالت لها: بابا عاوز شاي!.

قلت له: أسمعت؟ هذا موضوع حديث!.

قال متعجباً: هذا!؟

قلت: نعم. لقد بعثتها لتنقل إليها عبارة معناها أني أريد شايا، ولكني جعلتها نكتة لطيفة، ليس فيها أمر، وليس فيها جفاء، فأضاعت

البنــت هذه المزايــا كلها حين بلغتها المعنى المجــرد جافاً قاسياً كأنه أمر عسكري!.

أفلا يوحي إليك هذا بشيء؟

فنظر وقال: لا..!

قلت: أما أنا فقد ذكرني بقصة الأمير الذي رأى رؤيا مزعجة فدعا بمن يعبّرها له، فقال لــه: تفسيرها أنها ستموت أسرتك كلها!. فغضب الأميــر، وأمر به فجلد عشر جلدات وطرد. ودعا بآخر، فقال له:...أيها الأميــر إن تعبير رؤياك واضح، إنك أطول عمراً من أسرتك كلها. فسر الأمير، وأمر أن يعطى عشرة دنانير.

والمعنــى واحــد، ولكن هذا قذف بــه في وجه الأميــر عارياً صلداً كأنه يقذفــه بحجر، فخرج مضروباً، وذلك لفّــه بثوب جميل من حسن التعبيــر، وقدمه إليه بيمينه برفق وتعظيم وخرج بالجائزة!. إن هذا هو الموضوع.

قال: إني لا أفهم شيئاً إلى الآن؟ فما هو الموضوع؟

قلــت: فن الــكلام. إن الإنسان كمــا يقولون: حيــوان ناطق، وليس النطــق أن يخــرج الحروف ويصــف الكلام، بل أن يعــرف كيف يتكلم، وربّ كلمــة تدخل الجنــة، وكلمة تدخل النــار! وكلمة أنجــت من القتل، وكلمة دفعت صاحبهــا إلى القتل! وربّ صاحب حاجة عند وزير أو كبير عــرف كيف يطلبها فقضيت لــه، وآخر طلبها فلم يصــل إليها!. وكثيراً

ما كان يقصدني أرباب الحاجات يسألونني أن أكلم لهم من أعرف من الوزراء والكبراء، وأنا أكره أن أسأل في حاجة لي أو لغيري، فكنت أعتذر إليهم، ولكني أفيدهم فائدة أكبر من وساطتي، هي أن ألقّنهم الكلام الذي يقولونه للوزير أو للكبير! ولولا أن الوقت يضيق عن التمثيل لضربت لذلك أمثالاً.

وفي كتب الأدب العجائب في هذا الباب، ولعلي أعود إلى الكلام فيها يوماً.

وهذا فن لا يتعلم تعلماً ولكن يوصل إليه بالقلب الذكي، وبأن تعرف خلق من تكلمه، والطريق إلى نفسه.

وكل نفس لها باب، وإليها طريق، لم يخلق الله نفساً مغلقة لا باب لها، فهذا يدخل إليه من باب التعظيم، وهذا من باب العاطفة، وهذا من باب المنطق، وهذا من باب التهديد والتخويف، وهذا يزعجه التطويل ويحب الاختصار، وهذا يؤثر الشرح والبيان! ولابد لك من قبل أن تكلم أحداً أن تعرف من أي باب من هذه الأبواب تدخل عليه.

ولا أذهب بك بعيداً، معك في الدار، أليس لك أولاد!؟

قال: بلى.

قلتُ: قد يجيئك ولدك وهو عابس مبرطم! (والكلمة عربية) فيقول لك بلا سلام ولا كلام: أبغي نصف ريال.

فتقول له: أما أخذت البارحة نصف ريال؟ أكل يوم نصف ريال؟ وتطرده.

ويجيء الولد الآخر فيقبّل يديك، ويسلم عليك، ويقول لك: بابا أنا أشكرك لأنك أعطيتني أمس نصف ريال، ولكني أنفقته وأنا أريد غيرها ولكني مستحي منك. وسأقتصد ولن أنفقها كلها مثل المرة الماضية.

فتقول له: لماذا تستحيي مني؟ هل يستحيي أحد من أبيه؟ خذ.. هذا ريال!.

إنك لا تفضل ولدا على ولد، ولا تبخل بنصف الريال، ولكن الأول أساء الأدب، فعاقبته بالحرمان، والثاني أحسن الأدب فأجبت له الطلب.

والمرأة الحكيمة التي تعرف خلق زوجها، وتعرف كيف تكلمه تصل إلى كل ما تريده منه، والمرأة الحمقاء تحرم نفسها من كل شيء!.

الأولى تعرف الوقت المناسب لعرض طلبها فلا تجيء زوجها وهو غضبان أو متضايق، بل تنظر ساعة رضائه، وانطلاق نفسه فتطلب منه. ولا يكفي الرضا منه بل يجب أن يكون مع رضا النفس امتلاء اليد، فإذا كانت تعلم أن الزوج ليس لديه من المال ما يلبي به الطلب لم يفدها حسن العرض ولا جمال القول. وليست العبرة بألفاظ الكلام فقط، بل باللهجة التي يلقى بها هذا الكلام، والتحية إن ألقيت بلهجة جافة كانت شتيمة، والشتيمة إن ألقيت بلهجة حب كانت تحية، والولد الصغير يعرف هذا بالفطرة..إن قلت وأنت ضاحك (أخ يا خبيث) سرّ وابتسم، وإن قلت وأنت عابس مهدد: تعال يا آدمي يا – منظوم– خاف وهرب!.

وإن قلت لصديقك في الدار: تفضل اقعد.. كانت مكرمة، وإن قالها رئيس المحكمة للمحامي في وسط دفاعه كانت إهانة!.

مع أن الكلمة واحدة وإن كتبت لم يكن بين حاليها اختلاف، وما نقلها من حال إلى حال إلا اللهجة...»[١].

وهكذا يمضي الطنطاوي إلى نهاية المقال، يجلّي لنا من خلال حواره الهادئ ما في نفسه، ويكشف لنا عن معاناته اليومية في تجهيز المقال وتأليف الحديث، وما يتطلبه هذا من دقة الملاحظة وسعة الثقافة وذكاء القلب الذي يمكنه من أن يبني من الكلمة موضوعاً، ومن المشهد حديثا أو قصة؛ لنعلم أنه كلما كان زاد الكاتب الثقافي كبيراً.. شرّق وغرّب، وأقام الحجج، وجمع الأدلة، وأتى بالعجائب. وكلما كان ذكي القلب، نافذ البصيرة كان مبدعاً طريفاً.

وقد عالج هذا الموضوع أمراً مهمًّا من خلال أسلوب الحوار، تمثل في أثر الكلمة وارتباطها بسعادة المرء وشقائه في الدنيا والآخرة؛ فكأنه بيان لقول رسول الله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»[٢].

---

(١) صور وخواطر «فن الكلام» علي الطنطاوي، ص٢٨٠ – ٢٨٣.

(٢) رواه البخاري من رواية أبي هريرة – رياض الصالحين، للإمام النووي، ص٣٨٧، حديث رقم ١٥١٥، ط٢، دار التراث العربي القاهرة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.

كما كشف الموضوع بأسلوبه الحواري عن تأثير الكلمة في النفوس ومسها شغاف القلوب إذا أحسن المرء تأتيها وأدرك أبعادها، فراعى طريقة عرضها، وإيحاءها، ومناسبتها، ووقتها، ولهجة نطقها، وقسمات الوجه عند التعبير بها، ونفسية المتلقي لها... وكل هذه الأمور المهمة التي تفيد في فاعلية الكلمة وهيمنتها على النفوس وإصابتها الهدف، والتي يحتاج لمعرفتها الناس عامة، والدعاة والمصلحون خاصة.

والطنطاوي لا يقف في عرض موضوعاته على الأسلوب الحواري، بل يكثر من الأسلوب السردي التحليلي في براعة وعذوبة تأخذ النفس بحسن الترتيب وقوة التدليل، وصدق الوجدان وطرافة الإيحاء، وذلك حين يقصد به تقديم صورة لما يحققه خياله من ربط بين تفكيره ومشاعره تجاه موضوعه[١].

من ذلك مقالته «التشجيع» التي يقول فيها:

«قرأت مرة أن مجلة إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت: إنه التشجيع! وقالت: إنها في تلك السن، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الأمام، وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير.

---

(١) فن المقالة في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٣٦.

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي، وانقطاع سبيل التأليف، هو فقدان التشجيع، ذلك «الاحتكار العلمي» الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم، وخنق كثيراً من العبقريات المتهيئة للظهور. فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها، هي: بيت العطار، والحمزاوي، والغزي، والطنطاوي، والشطي، والخاني، والكزبري، والأسطواني، والحلبي...».

«... وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و«الاحتكار العلمي» فإذا سمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت، وقدروا فيه النبوغ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم، والعدول به إلى التجارة؛ أو ليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت؟ أوليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه، تنحدر إليه الإمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً، فكيف إذا يزاحمهم عليها أبناء التجار، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على «حوانيتهم»؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القدر البسيط من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء؟...

حتى إنه لما نشأ محمد أمين «ابن عابدين» وأنسوا منه الميل إلى العلم، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد والعقل الراجح، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه -وكان أبوه امرأ تاجراً- ليسلك به سبيل التجارة، ويتنكب به طريق العلم، وجعلوا يكلمونه، ويرسلون إليه الرسل، ويكتبون إليه الكتب، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه، ولكن الله أراد بالمسلمين

خيــراً، فثبت الوالد، فكان من هذا الولــد المبارك ابن عابدين صاحب (الحاشية) أوســع كتاب في فروع الفقه الحنفي، بل أرادوا أن يصرفوا أستاذنــا العلامة (محمد كــرد علي) عن العلم، فبعثــوا إليه بشقيقين مــن آل... قد ماتا فلست أسميهما على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر مــن أربعيــن طالبا - فمــا زالا بأبيه - ولــم يكن أبوه مــن أهل العلم - ينصحانه أن يقطعه عن العلم، ويعلمه مهنة يتكسب منها، فما في العلم نفع، ولا منه فائدة... و يلحان عليه و يلازمانه، حتى ضجر، فصرفهما، فكان مــن ولده هذا الأستاذ (كرد علي) أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها، ووزير معارف سورية ومفخرتها..»[١].

ويستمــر الطنطاوي بهذا الأسلوب العــذب يسرد أمثلة عديدة لأثر التشجيع في بناء النفوس، وأثر التثبيط في هدمها ليقول:

«إن التشجيــع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها، وتؤتي أكلها؛ ورب ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخــذ بيده عالما من أكابــر العلماء، أو أديباً مــن أعاظم الأدباء! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد و الدأب والتشجيع من منوال الحياكة إلى منصب الإفتاء، وكرسي التدريس تحت القبة..»[٢].

ويسير الطنطــاوي في هذا المقال بأسلوبه الســردي سيراً حثيثاً، ينتقــل فيه من مثال إلى مثال، ومن تجربة إلــى تجربة يكشف بها ثمار

---

(١) فكر ومباحث «التشجيع» علي الطنطاوي، ص١٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

التشجيع الحسنة وأثره الواضح في ارتقاء النفوس واستنفار طاقتها الإبداعية، وكأننا بذلك نتلقى درساً تربوياً مهمًّا له أثره و خطره في واقع الحياة، ومن هنا لم يغفل الطنطاوي عن أن ينبه في نهاية المقال إلى عيب التشجيع الذي إذا سلم منه المشجع جنى ثمار النجاح فقال: «...على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور...»[١].

وهكذا يلاحظ أن الطنطاوي قد استخدم في مقاله هذا..أسلوب السرد التحليلي؛ لتبرز من خلاله فكرته في صورتها الكاملة بأدلتها الواضحة، وإيحاءاتها المبهرة؛ ليستقبلها القارئ بارتياح واقتناع نتيجة إحساسه بصدق الكاتب وثقته في إيمانه العميق بفكرته التي أحسن عرضها والتدليل عليها.

ويلاحظ أن الطنطاوي آثر في تصويره العبارات والجمل الخبرية بما تحدثه في الصور البيانية والإدراكات العقلية من ظلال اليقين والصدق المستمدين من الواقع[٢].

وتتضح معالجة الطنطاوي لموضوعه بهذا الأسلوب التحليلي في براعة تصوير، وجمال تعبير، وحسن استدلال، وصدق وجدان، و ترابط أفكار؛ منطلقا من وجهة إسلامية ومعارف تاريخية وذاتية؛ ليبين أثر التشجيع في دفع النفوس لاقتحام الصعاب و تحقيق الآمال، وأثر التثبيط في وأد النبوغ وقتل العبقريات؛ ليخط من بين ذلك صورتين

---

(١) فكر ومباحث «التشجيع» علي الطنطاوي، ص١٣٤.

(٢) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص١٤٧.

متقابلتين، ينشئ تقابلهما صورة ثالثة بكامل ألوانها وظلالها، هي التي كانت مقصده من مقالته[١].

والطنطـاوي لـم يقف فـي تنـاول موضوعاته على أسلـوب الحوار الكاشف أو التحليل الواضح فحسب، بل يلاحظ – أيضًا – كثرة اعتماده علـى أسلـوب التأمل كوسيلـة بيانية كشف بها عن حقائـق موضوعاته، واستجلـى بهـا كوامـن أفكاره، سـواء كانـت عقديـة، أو اجتماعية، أو سياسية، أو فكرية...[٢].

مـن ذلك حديثـه الإذاعي «حكمة القدر» الـذي نشره سنة ١٩٤٨م قال فيه:

«دخـل علينا أمس، وكنـا جماعة في المجلس، صديـق لنا، فقال: إن ابنـة الأستاذ/حبيب زحلاوي قد سقطت مـن الطبقة السادسة إلى الشارع! فارتعنا جميعاً، وأعظمنا الخطب، وكنا نعرفها طفلة حلوة ملء إهابها الطهر، والجمـال، والنشاط فلم نستطع أن نتصورها وهي مزق مـن اللحم قد اختلط بعضه ببعض، ووجمنا وكانت سكتة لم يقطعها إلا ضحك صديقنا المخبـر! فعرفنا أنها مزحة ثقيلة من مزحاته، وأقبلنا عليه نسبّه ونشتمه، فقال: والله ما كذبت عليكم، لقد وقعت من الطبقة السادسة ولكنها لم تصب بشيء، وهي سليمة...

---

(١) السابق، ص٢٤٧.

(٢) السابق، ص٢٤٩.

فصرخنا جميعا: سليمة! قال: نعم والله!. ألا تصدقون!؟ إنها وقعت على حبال الغسيل الممدودة بين الشرفتين حبال الطبقة الخامسة، فعاقتها قليلاً، ونفذت منها إلى حبال الطبقة الرابعة، وما زالت تمر من حبال إلى حبال، حتى إذا بلغت الشارع، كانت سقطتها على كومة من الرمال صبتها سيارة صباح ذلك اليوم، فلم تصب بأذى!.

ومضى يحلف ويؤكد الأيمان أن الذي يرويه هو الصدق والحق، وأن صبياً لصديق آخر لا أسميه لئلا أسوءه، وأذكره بمصابه، وقف على مكتب أبيه يلعب، فرأى صورة معلقة بالجدار، فوثب يريد أن يصل إليها، فوقع على أرض الغرفة، وكانت من البلاط، وكانت السقطة على يافوخه، فمات لساعته!.

وقال معلقاً ومتفلسفاً: ففيم إذاً نفكر وندبر، مادام لا ينفعنا فكر، ولا يفيدنا تدبير!؟ ولم لا ندع الأمور للقدر ونتركها تجري على أعنتها كما يريد لها مجريها!؟ ومادمنا لا نملك أنفسنا ولا نعرف مصائرنا، مادام هذا الكون كالمعمل الضخم المشتبك الآلات، المتعدد المتحركات، وما نحن إلا مسمار صغير فيه، نسير كما يسيّرنا «مهندسه» الأعظم...

وأسرع واحد منا، فقال مصدقاً: نعم، ولكنا خلقنا للشقاء، وأقمنا هدفاً للمصائب، ووضعنا في الدنيا ما فيها إلا الآلام، من سلم منها اليوم وقع غداً، ومن لم يمت ولده من سقطته مات من علته، أو مات وهو صحيح معافى، ما من الموت بد...

ولابد قبل الموت من البلايا والمتاعب...

وتكلم ثالث، يرى نفسه من كبار العقلاء، فأنكر القدر، وجحد المقدر، وزعم أن الحياة ليست إلا عجينة في يدك، أنت تديرها وتصورها، فإن صنعت منها تمثال غادة جميلة كان لك جمالها، وإن عملت منها هولة قبيحة كان عليك قبحها...

إن مرضت فمن إقلالك الغذاء وإهمالك التوقي، وإن دعست فمن تركك الحذر، وإن افتقرت فمن قعودك عن السعي... وأمثال هذا الكلام!.

فقلت له: فلم ولد هذا في دار علم وتهذيب؛ فتعلم وعرف سبل الوقاية، وخطر الأمراض، ونشأ ذاك في بيت جهل وفساد، فشب جاهلاً فاسداً، لا يعرف كيف يتقي الداء؟ ولماذا دعس هذا من قلة حذره، وسلم من هو أقل منه حذراً، وطريقه أشد خطراً!؟

ولماذا يسعى الرجل حتى تنقطع من السعي أنفاسه، ويرجع ولم يصل، ولا إلى مثل خفي حنين، وتأتي الأموال لآخر بلا سعي ولا طلب!؟

ولماذا يتاح لهذا النابغة أن يظهر نبوغه، حتى يكون اسمه تسبيحاً على كل لسان، وعنواناً في كل كتاب، ويُجهل من هو أحد منه ذكاءً، وأكبر موهبة، وأظهر استعداداً للنبوغ؟

ولماذا؟ ولماذا؟ وألف لماذا، لو شئت لسقتها لك فما استطعت الجواب على واحد منها. فما أنت في الوجود!؟

هـل تُسيّـر أنت الفلك على هـواك، وهل تسوق الكـون إلى غايتك، هـل أنـت إلـه؟ إنـك ماكوّنـت نفسـك، ولا شققـت بيـدك سمعك ولا بصرك...»[١].

فالطنطاوي – كما نرى – لفت نظره بعض أحداث الحياة المثيرة وتطلّـع أصدقائـه – أو من جردهم من نفسه – لمعرفة السر وراء هذه الأحـداث، ومـا تثيره فـي العقول من اعتقـادات متباينـة لها خطرها، وبُعدها الديني والاجتماعي.

فرأى الطنطـاوي أن يثير هذه الأسئلة التي تنقد هذه الاعتقادات، وتخلص العقل من رواسبها الأثيمة؛ ليفتح بعـد ذلك آفاقاً جديدة من تأملاتـه، تنكشف من خلالها رؤيتـه العميقة التي يطمئـن إليها العقل وتهتدي بها النفس من حيرتها واضطرابها.

قال: «فهل ترى أنت أن الإنسان مسير؟».

قلت: ما مسيّر؟ وما مخيّر؟ وما هذه الفلسفة الفارغة!؟ لقد اشتغل بها البشر من يوم بـدؤوا يفكرون واختلفوا عليها، وتجادلوا، ولا يزالون يختلفـون ويتجادلون، لم يصلوا إلى شيء، وإنما تاهوا في بيداء لا أول لهـا ولا آخـر، وهاموا علـى وجوههم فـي مَهْمهٍ متشابهـة الأرجاء، بلا أمـل ولا رجاء، فذهب هـذا ينكر القدر ويزعم أن الحياة ملك الإنسان، وأحداثهـا صنع يديه. وراح ذاك ينكـر إنسانيته ويجحد نفسه، ويراها

(١) صور وخواطر، ص١٢١ – ١٢٣.

مسماراً في آلة الكون، وحجراً في جبل يدور مع الأرض أنّى دارت. وكان هذا متشائماً لا يرى إلا الذي وقع عن الكرسي فمات، فاعتقد أن الدنيا دار المصائب، وكان ذلك مغروراً لم يبصر إلا التي وقعت من الطبقة السادسة ولم تمت، فحسب أنه يسلم من كل أذى!.

ونحن مع القدر بشر، لا آلهة ولا حجر، والدنيا ليست مسرّة كلها ولا مصائب، ولكنها مسرّة وكدر.

وأنا كلما فكرت، وذكرت ما رأيت من الحوادث بعيني ازددت يقينا بأن أكثر الناس لا يعرفون سر الإيمان بالقدر!

رأيت الترام مرة وقد انكسر مقوده، فانحط من المنحدر الهائل عند (الجسر) في دمشق وكانت امرأة واقفة بين خطيه بعد المنعطف، فلما رأته مقبلاً كالموت النازل، سمّرت رجلاها من فزعها بالأرض وجمدت، ولم يجرؤ أحد أن يدنو لإنقاذها فيموت معها، والوقت أضيق من أن يتسع لشيء، فأغمضوا عيونهم حتى لا يروا... فلما وصلت الحافلة إلى المنحنى تركت الخط وسارت قدماً، فصدمت جداراً من اللبن ضعيفاً، ومرت منه إلى قوم في دارهم فقتلتهم.

ورأيت مرة بعيني شباباً يمشون تحت فندق (عدن بالاس) في دمشق فرفع أحدهم رأسه فجأة، فرأى شيئا يهوي وقد صار حيال بصره فتناوله بيده، وإذا هو صبي رضيع وقع من شباك الفندق، وهبطت أمه كالمجنونة، وهي امرأة من (حماة) فرأته سالماً... ورأى غيري حوادث مثل هذه الحوادث!.

وفي كتاب (الفرج بعد الشدة) للقاضي التنوخي مئات من القصص عمن نجا وهو في لج الهلاك، وفي كتاب الحياة آلاف من الأخبار عمن هلك وهو على بر النجاة.

فما سر هذه العجائب؟ وكيف عاشت المرأة وقد فرطت وعرضت نفسها للموت بسيرها بين خطي الترام، ومات قوم اتخذوا كل أسباب الوقاية، فدخلوا دارهم، وأغلقوا بابهم، فشق الترام الحائط ودخل عليهم فدعسهم، وكيف وقعت البنت فلم تمت، وتموت كل يوم مئات من البنات من غير وقوع؟.

إن هذا هو السر الذي لا يعرفه أحد، فلا تحاولوا كشف سر القدر، ولكن استفيدوا من حكمة القدر، وهذا ما سقت له حديثي...»[1].

فالطنطاوي في هذا المقال عالج موضوع القدر من خلال تأملاته وسبحاته الفكرية، ذلك الموضوع الذي حيّر الفلاسفة، وشغل المتكلمين دون جدوى نافعة؛ ليقنعنا بأن الجهل بسر القدر ابتلاء، وإخفاءه عنا نعمة من اللّه تعالى، وقوة تدفع المسلم إلى الخير والجد والاجتهاد دون تقصير أو تواكل، فإذا لم يوفّق المسلم -بعد ذلك- إلى مراده استسلم لحكمة اللّه وقدره، مؤمناً بإرادته الغالبة، وحكمته البالغة في تقديره الخير لعباده المؤمنين، وإن توهموا غير ذلك، قال تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) صور وخواطر، ص١٢٤.

تَعۡلَمُونَ ﴾[١]، فإن آمن المرء بذلك قرت عينه، وسكنت نفسه، ونجا من سخط النفس، ووخز الضمير. وتلك هي حكمة القدر التي يريدنا الطنطاوي أن نعرفها ونستفيد منها فقال:

«والإيمان بالقدر راحة؛ لأنه لو كان الفشل من عملك وحدك، وكان النجاح من صنع يدك لقطّعت نفسك أسفاً إن فشلت، أو سبقت.

والإيمان بالقدر عزاء، لأنك إن قدر عليك المصاب بولد، فاحمد اللّه ففي الناس من أصيب بولدين، وإن خسرت ألفاً ففيهم من خسر ألفين.

فهل عرفتم الآن ما حكمة القدر؟

هي أن نجد ونعمل ونسعى، ونبذل الجهد، ثم لانحزن إن فشلنا، ولا نيأس إن لم نصل إلى ما نريد. وأن نكون مع القدر كمن يجتاز طريقاً فيه السيارات المزدحمات، فإن ذكر حوادثها وأخطارها وحدها لم يستطع أن يتقدم خطوة، وإن اعتقد من غروره أنه يستطيع أن يرد عنه السيارات المقبلة، ويدفع الخطر الآتي لم يسلم، ولكن إن انتبه وسار بحذر، فهذا هو العاقل، ثم إن نجا حمد اللّه إن قدر له النجاة، وإن أصيب ذكر أنه لم يقصر، وإنما هو حكم القدر»[٢].

فالأسلوب هنا وإن كان تأمليا إلا أن كاتبنا استعان بالحوار؛ ليقدم لمتلقيه أبعاداً أخرى أسهمت في اكتمال الرؤية المقصودة. وقد اعتمد

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦.

(٢) من مقالة حكمة القدر» صور وخواطر»، ص١٢٣ – ١٢٦.

الطنطاوي على معلوماتـه ومشاهداته التي عايشها بعواطفه واستقرت في وجدانه الإسلامي فنقلها إلينا بأبعادها الإسلامية كما يراها.

ويلاحـظ أن كاتبنـا قـد انتقل في تتبـع مستقص مـن الكلام عن القـدر، إلى الكلام عن الحكمة من الإيمـان به، مولداً الأفكار، ومقدماً الدلائل في سهولة لفظ، وجمال عبارة.

وإذا استخـدم الطنطـاوي الأسلوب الساخر تجسـدت براعته في موضوعاته التي تحتمل التناقض الذي يثير سخريته وسخرية الآخرين، لما فيها من فساد، مثل فساد الحاكم أو فساد السياسي أو فساد غيرهما ممـن يشبههما في دورهما الريادي، كالداعية، والمدرس، والأبوين...، أو لما تضمنه من ظلم المعتدين.. أو لما تكشفه من تناقض، مثل صنيع الثـري البخيل، والشيخ المراهق، والجاهـل المتعالم... أو لما فيها من خداع وضلال، مثل كثير مـن العادات الاجتماعية الضارة التي يتمسك بها الناس.. كما في حديثه الإذاعي «أنا والإذاعة» والذي قال فيه:

«أيها السادة:

إني أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة، فقد ظلموني وظلموكم معـي. جاؤوا بي لأحدثكم، فحسبت أني سأدخل ناديا فيه أناس أراهم، فأخاطبهـم على قـدر عقولهم، فإن كانوا علمـاء كلمتهم كلام العلماء، وإن كانـوا من العامـة خاطبتهم خطاب العامة، فـإذا هم يصعدون بي درجـاً بعد درج حتـى إذا كلّت رجلاي من الصعـود، وهممت بالرجوع، قالوا: قد وصلنا، فنظـرت فإذا نحن في أعلى طبقة من (عمارة البرق

والبريد) فتلفت أنظر أين النادي الذي سأخطب فيه!؟ فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة! وأين الناس!؟ وإذ هم يدخلوني من دهليز إلى دهليز حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة، فأشاروا إلى باب، وقالوا:

(هُس!) إياك أن تتكلم، أو تعطس، أو تسعل، أو تخبط برجلك، أو تخشخش بأوراقك..!؟

فقلت: فكيف إذاً أتحدث!؟ أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان!؟

قالوا: لا، ولكن إذا جاء دورك تكلمت.

وفتح الباب، ودخلنا غرفة صغيرة كأنها الصندوق المغلق، لا شباك، ولا باب، ولا نافذة، ولا كوة، ولا شق لدخول الهواء! ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة، وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه، وبعضها من صدره، وبعضها من بطنه، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزمرون، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ماذا يصنع هذا الرجل: أيغني أم يخطب أم هو مصروع معتوه يخلّط، أم يتكلم بلسان أهل مالطة!؟ فلم أهتد إلى حقيقته، ثم سكت وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة.

فقال: لقد انتهت الحفلة الموسيقية..

فقلت: إذاً هي حفلة موسيقية! سبحان القادر على كل شيء!..».

وبعد هذه المقدمة التي هيأ بها النفوس – كعادته – لموضوعه، ونبه الأذهان لاستقباله بذكر هذه الحوادث المثيرة قال:

«... لقد فكرت طويلاً وحشدت قوى نفسي كلها، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا: ما شاء الله كان! ما هذه المحاضرة؟ شيء عظيم جداً، ولكن لم أستقر على موضوع.

قلت: الدنيا الآن في رمضان، وخير الأحاديث حديث الدين، وما أسهل الكلام في الدين في هذه الأيام! وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً! وأن يرى الرأي المخالف لأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والليث بن سعد، والأوزاعي، وكل مجتهدي الأرض فيتمسك به، ويخطّئ المخالفين من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة.

ولـمَ لا؟! إنه رجل وهم رجال، والحداد والنجار والموسيقي رجال أيضاً، فلماذا لا يكونون أئمة مجتهدين، ومادام العلم بالعربية نحوها، وصرفها، وبلاغتها، والفقه أصوله وفروعه، والتفسير والحديث ليس شرطاً في الاجتهاد؟

ومادامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب وصفة دواء، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء، وتدع من شاء يتكلم في الدين والأدب بما يشاء؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل في هذه الأيام؛ ليكون واعظاً مرشداً يُقتدى به ويُستمع لقوله، وتقبل يده، ويُتمسح بذيله، أن يُعرّض

لحيتـه، ويُكوّر عمّته، ويوسّع جبّته، ويطـوّل سبحته، ويتكلم كلاماً تقبله العامـة ولـو خـرّف وخلّط وضلّـل، وأكل الدنيـا بالديـن، واستغل غفلة الغافلين، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول!.

لا.. لن أتكلم في الدين، فالكلام فيه شديد الخطر، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس، أو أقول الباطل فأسخط الله. ثم إني طلبت الليلـة مرضاة السامعيـن، وأكثـر السامعين لجهلهـم بالدين، ولطول مـا رأوا مـن أدعياء العلـم فيه، منصرفـون عنه زاهدون فـي حديثه، حتـى الأتقياء الصالحـون منهم، الذين يتمسكون فـي رمضان بدينهم فيقضـون نصـف النهار في (الأمـوي) نائمين يشخـرون وينخرون، أو متحلقين حلقاً يمزحون في الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون!

فلنتكلـم فـي الأدب، فالأدب أسلم عاقبـة، وأوسع حرية، وهو هين علـيّ وعلى غيري، وقد صـار الأدب الآن كوصل (ليلى) كل يدّعيه، وكل مـن يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة، ويجـد صفّافاً يصفّ له حروفه، وصاحـب جريـدة ينشره، فهو كاتـب بليغ. وكل من يأتـي بلفظ موزون، أو شبـه موزون فهـو شاعر مُفلّـق. وكل من يحفظ خبراً عـن أبي تمام والمتنبي، أوهوغو ولامارتين، أو شكسبير وملتون، فهو أديب أريب. وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق!. ومن عجز عن أن يفكـر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام ويتكلم كمـا يتكلمون، ففكر تفكيراً غير آدمـي، وتكلم كلاماً ليس بإنساني، فهو شاعـر رمزي! وإن في الرمزية متسعـاً لجميع الأغبياء والأدعيـاء؛ إذا شكا القراء أنهم لا يفهمون هذا الأدب الرمزي، فالقراء جاهلون رجعيون جامدون!

لا.. يا سادة! إن الأدب امتهن وابتذل، فلن أتكلم في الأدب!

أفأتكلم في السياسة؟ إن السياسة في بلدنا أن ينتقد الرجل قوانين الحكومة ويتكلم في رجالها، ويتهم كل أمين يكرهه بالسرقة، ويصف كل سارق يحبه بالأمانة، ويكون له رأي في الملك عبد اللّٰه، وابن السعود، وأتلي، ومولوتوف، وترومان! ويرسم أحسن الخطط لمحاربة الغلاء، وتنظيم ملاكات الموظفين، وحل مشكلة فلسطين، وإدارة ألمانيا المحتلة! ويقترح وجوه الإصلاح للجامعة العربية، وهيئة الأمم المتحدة، ولو كان تاجراً أمياً، أو سائق ترام، أو شيخ ضيعة، يضع بصمة إبهامه مكان التوقيع على دفاتر الانتخابات!

لا.. لن أتكلم في السياسة. أفأتحدث إليكم في الفلسفة؟ لقد اشتغلت بها حيناً، وأنا أستطيع أن أتفلسف متى أردت، ولا يكلفني ذلك إلا أن أقول ما لا أفهمه أنا ولا القراء! وأن أنظر إلى كل ما تواضع عليه الناس من أفكار وعادات، فأقيم لهم أدلة غامضة لا تدرك، على أنه خطأ، وأن الصواب هو عكسه!

وبعد – يا أيها السادة – فاعلموا أن وقت حديثي قد انتهى، وأني قد خدعت القائمين على المحطة فأطعتهم، وكلمت العلبة ربع ساعة، وقبضت الأجرة، ولم أقل شيئاً. وكذلك يكون الرجل الناجح في هذه الأيام، يأخذ الأجرة من غير عمل، ولنا في ساداتنا العلماء الأعلام مدرسي دائرة الفتوى قدوة غير حسنة.

ولا تعجبوا – يا سادة – فكل الناس تاجر يعرض بضاعته، ونحن

– معشر الأدباء – بضاعتنا الكلام، وكل كلام له ثمن، فهاتوا كثيراً تسمعوا جيداً، وإلا فالبضاعة كلها من هذا النوع»[(١)].

وواضح أن سخرية الطنطاوي هنا ليست سخرية بالأفراد، بل هي سخرية من أعمال سيئة، وسلوكيات منحرفة، قام بها بعض الناس، ولم يكن مبعثها خصومات شخصية، أو أغراض نفسية، وإنما كانت لرغبته في إصلاح الواقع وفق منهج الإسلام، وبذلك ابتعدت سخريته من السخرية التي حرمها الله ونهى عباده عنها بقوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾[(٢)].

وقد بدا هنا أن سخرية الطنطاوي سخرية موظفة، تهدف إلى التهذيب والتقويم من خلال تسفيه سلوكيات منحرفة، ومناهضة تقاليد باطلة، وإبراز نقائص الواقع وتضخيمها، والهزء بها في محاولة لاستهجانها، وتشويهها، واستبدالها بما هو صحيح[(٣)].

وقد تمكن الطنطاوي بهذا الأسلوب الساخر من إبراز المعايب، ولفت النظر إلى المثالب المتعلقة بتدني الأذواق، والتلاعب بالدين، ورخص الأدب، والتخليط في السياسة، والإهمال في العمل، بنقد مهذب مثير، وبطريقة طريفة بديعة، تحرك الفكر إلى المقارنة بين الواقع السيئ وما ينبغي أن يكون عليه هذا الواقع. ولهذا كثرت المفارقات

---

(١) صور وخواطر «أنا والإذاعة»، ص١٧٣ – ٧٨.

(٢) سورة الحجرات من الآية ١١.

(٣) الأدب الإسلامي «الذكريات أنموذجا» أحمد بن علي آل مريع، ص ٩٠، العددان (٣٤، ٣٥).

الواقعية، والمقابلات البيانية التي تثير الدهشة، وتدعو إلى الضحك، وتدفع إلى السخرية والاستهجان[١].

كما اتضح توظيف الطنطاوي لسخريته في طرح رؤيته بظرف وخفة مرحة، وسرعة بديهة، وبصر نافذ، وخيال خصب، ومقدرة فنية مكنته من الربط بين ما يرى وما يثير من هذا الذي يراه معتمداً في سخريته على ما يثير الدهشة؛ لمعرفته بطبيعة الإنسان الذي يُدهش بكل جديد وغريب. ومعتمداً ـ أيضاً ـ على الكلمة الرشيقة التي أدّت دورها في إثارة السخرية، وإصابة المعنى.

فألفاظه – كما يلاحظ – عذبة، وكلماته مألوفة موحية، وتراكيبه يسيرة، وصوره قريبة، ومعانيه واضحة بديعة، ينتقل بينها في تلطف حسن، وتشويق جميل.

ويلاحظ كثرة اعتماد الطنطاوي على الأسلوب القصصي في معالجة موضوعاته؛ ليتمكن من بث الحياة والحركة في أشخاص القصة، كي تنمو المواقف فيها، وتتوالى أحداثها بطريقة طبيعية، مع الحرص على تحليل ما قد ينشأ في أثناء ذلك من العواطف، أو الانفعالات التي يريد نقلها لمتلقيه[٢].

من ذلك مقالته «ثمرات درس الأخلاق»[٣] يقول فيها:

---

(١) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٦٣.

(٢) فن المقال في الأدب العربي الحديث، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٧٧،٢٧٨.

(٣) مقالات في كلمات، ج ١، ص٢٠٠.

«... ونظرت من الشباك أتسلى، وكان تحته كومة رمل أبيض وضعها جارنـا، ووكّل رجلاً وولده بنقلها إلـى حديقته، فأقبل تلاميذ المدرسة، فقال عفريت منهم: تعالوا نسرق من هذا الرمل! فقالوا: إن الولد يرانا. قال: نعمل مثل الراعي الكذاب الذي قال لنا المعلم قصته، حين نادى: الذئـب! فجاؤوا فلم يروا شيئاً، وضحك منهم، فلما طرق الذئب حقيقة ونادى لم يجئه أحد! قالوا: وكيف نفعل!؟ قال العفريت: انظروا!

وأقبـل كأنـه يريد أن يسـرق، فنادى الولـد أباه، فتـرك عمله في الحديقـة وأقبل، فلـم ير شيئا، ورأى التلاميـذ يضحكون فرجع، وجعل التلاميذ يأخذون من الرمل والولد ينادي فلا يردّ أبوه ولا يصدقه...

وكانت هذه ثمرة درس الأخلاق في المدرسة!!»[1].

فيلاحظ هنـا أن الطنطاوي قـدّم موضوعه فـي أسلوب قصصي استعـان فيه بالسـرد والحوار؛ ليكشف لنا عـن معاناته النفسية (بتلك القيمـة الأخلاقيـة فـي الدرس المدرسـي) حين عرضـت مجردة من مقاصدهـا الشرعيـة، وأبعادهـا الإسلامية التي ينبغـي أن تتبني على التخويـف من اللّٰه، ومراقبتـه، والإشعار بعظمته... قبـل التخويف من الناس، حتى لا تفقد القصة هدفها وتضر من حيث يراد بها النفع!

وقـد استطـاع الطنطـاوي من خـلال هـذا الأسلـوب القصصي المصـوّر أن يولّـد في نفـس القائمين علـى التعليـم والتوجيه الخوف

---

(١) السابق، ١/٢٠٠.

والحذر من عرض الأخبار مجردة من أبعادها الإسلامية، وأهدافها التربوية، منبهاً لخطورة ذلك، برسم تلك الصورة المعبّرة عما يريد، وقد كان يقول:

«يجب على المعلِّمين أن يدلّوا التلميذ على الطريق السويّ، والخطّة المستقيمة... أن يعلموه من هم أجداده، وما هي حضارتهم، وأن يصبوا في نفسه أخلاق العروبة، وآداب الإسلام، وأن يحببوا إليه العلم»[١].

وهكذا نرى الطنطاوي - بدافع من موهبته وإحساسه الفني يختار من الأساليب ما يتناسب مع موضوعه، ويتلاءم مع إحساسه به، سواء كان هذا الموضوع عقدياً، أو اجتماعياً، أو سياسياً، أو فكرياً... وسواء كان صحفياً، أو حديثاً إذاعياً على نحو ما رأينا.

وكما نوّع الطنطاوي في أدائه التعبيري نوع في مستوى أسلوبه جزالة وسهولة، وعمقاً وقرباً.

ومن هنا «يجب أن يفرق القارئ بين أحاديثه التي خاطب بها العامة، وأحاديثه التي قدمها للخاصة، فكل واحد من هذين له طبيعته الخاصة به.

وكاتبنا علي الطنطاوي - بدافع من توجّهه الإسلامي، وحرصه على توصيل رسالته - يعي قدرات السامعين والقارئين لكتاباته؛ ولذا فإنه لا يؤثر طبقة على حساب طبقة أخرى، بل يصنف وينوع أحاديثه، فتجيء مرة متفقة ومستوى العامة، وأخرى توافق الخاصة.

---

(١) من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص٥٢.

وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على كثرة سامعيه، وتنوع المتلقين لكل ما ينشئه[(١)].

ومن يتأمل ألفاظ الطنطاوي يراها - في عمومها - قريبة في بلاغتها، سهلة في فصاحتها، مختارة بعناية اختيار متذوق قوي الإحساس بمواطن الجمال، وأسرار اللغة.

وجُملُه تموج بالحركة والحياة والإحساس الذي يدل على أنها منتقاة بملكة قادرة تعرف وجوه اللغة، ومرامي الكلام.

وتراكيبه تتسم بانسيابية جاذبة، وإسهاب مطرب، وسلاسة آسرة، وبناء محكم بليغ من صدق إحساسه وقوة انفعاله التي يستشعر منها المتلقي عذوبة ورقة، وسمواً وإشراقاً، وخفة ومتعة، تهز النفس هزاً، وتدفعها إلى الإقبال والاستزادة دون ملل أو فتور.

ويلاحظ إسلامية أسلوب الطنطاوي من خلال عفة ألفاظه، وسمو عباراته التي تدل على تأثره بالأداء القرآني والبيان النبوي في سعيه لأداء رسالته الإصلاحية والدعوية التي ترتقي بأذواق الجماهير وأفكارهم، وتحافظ على مشاعرهم وأخلاقهم... ومن هنا رأيناه يتفنن في سوق الخبر، مبتعداً فيه عما يجرح العفاف، أو يخدش الحياء، أو يثير الاشمئزاز، معتمداً على موهبته في توصيل ما يريد باللفظ الموحي والعبارة الدالة، أو ترك مساحة منقطعة، وكأنه يقول شيئاً لا يستطيع

---

(١) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/ عبدالحميد شعبان، ص١٢.

أن يبــوح به، أو يطلب من متلقيه أن يتصــور ما يفضي إليه السياق من دلالة يمنعه حياؤه وذوقه من الإفصاح بها![١].

مــن ذلك تعبيره في مقالتــه «الحب والزواج» عما يريده الرجل في نفسه من المرأة بعبارة عفيفة نظيفة لها دلالة على ما يريد. يقول:

«... لا يــا أولادي، لا واللّه العظيــم، إنه لا يريــد جمالها لعينه، ولا حديثها لأذنه، ولكن يريد قفلها لمفتاحه!.»[٢].

ومن ذلك ما حكاه عن الشيخ الذي ثبط العلامة سليم البخاري عن التأليــف حين قدم له رسالــة صغيرة صنعها في المنطق فقال له: «أيها المغــرور! أبلغ من قدرك أن تصنف وأنــت... وأنت... ثم أخذ الرسالة فسجّــر بهــا المدفــأة.. فكانت هــي أول مصنفــات العلامــة البخاري وآخرها!»[٣] فالسياق يوحي بأن هذه المساحة المنقطعة شتائم وسباب أو سخرية واستهزاء، ينأى الطنطاوي عن ذكرها.

وتبــدو وجهــة الطنطــاوي الإسلامية فــي أسلوبه مــن خلال حبه للفصحــى، والتزامــه بهــا، واجتهــاده في بعض قواعدها بمــا يوافق الصواب، مصدراً في ذلــك أحكاما وآراء نقلت عنه، واستحسنها كثير من أساتذة اللغة ومحبيها[٤].

---

(١) دراسات في النص الشعري «العصر الحديث». د/ عبده بدوي، ص٧٢، دار قباء، القاهرة.

(٢) «الحب والزواج»، مع الناس، ص٥٣.

(٣) «التشجيع»، صور وخواطر، ص١٣٠.

(٤) مــن مقالــة قراءة فــي آثار الشيخ علي الطنطــاوي، ص١٠٠، أحمد بن مسفــر بن معجب، مجلة المنهل العدد ٥٦١، المجلد ٦١ رجب ١٤٢٠هـ. انظر مقالات في كلمات ٢/ ١٩٦ وما بعدها.

وبدافع إيمانه بقدرة اللغة العربية على احتواء كل جديد، فقد شارك في تعريب بعض المصطلحات الأجنبية منبهاً عليها في هوامش ما كتب.

من ذلك: كلمة (الراد) تعريباً لمصطلح (الراديو)؛ لأنه يرد الصوت على المستمع[١].

وكلمة (الرائي)، وضعها بديلاً لمصطلح (التلفزيون)، إذ إنه اسم فاعل بمعنى مفعول أي المرئي[٢].

وكلمة (التكنولوجيا) يرى أن نقول بدلاً منها (تقانة) على وزن نجارة، وحدادة، وطيانة، وهو شبه قياسي[٣].

ويلاحظ أنه - أحياناً في مخاطبة العامة - يجري لفظاً عامياً، أو عبارة متداولة، أو مثلاً سائراً، أو نحو هذا.. مما يخف وقعه على الأسماع، ويعين على بيان حقيقة المراد. وهذا من منهج الداعية الناجح، «وهذا هو النبي ﷺ كان يدخل في كلامه ألفاظاً أجنبية، ويعدل عن لهجته الأصلية؛ ليخاطب وفود القبائل بما يفهمون من اللهجات»[٤].

---

(١) راجع هامش «ذكريات علي الطنطاوي»، ج ١، ص٢٥١.

(٢) راجع هامش «ذكريات علي الطنطاوي»، ج ١، ص٢٥١.

(٣) السابق، ج ٦، ص٣٢.

(٤) راجع «تذكرة الدعاة» للبهي الخولي، ص٣٩٠، دار التراث، ط ٨، القاهرة ١٩٨٧م.

فمن سوقه العامي الفصيح «وعلا العياط والزياط»[١].

ومن سوقه المثل على سبيل الاستئناس وتأكيد المعنى: «وإلى متى تكرر هذه المهزلة «أوسعته ضرباً وأودى بالإبل»[٢].

ويلاحـظ أن هذه المظاهـر الإسلامية والخصائص الأسلوبية لا تختلف في مقاله الذي أعده للنشر عنها في حديثه الذي أعده للإذاعة؛ لذلك كان ينشر من مقالاته الإذاعية في المجلات.

ومع ذلك يمكن تلمس الفروق الدقيقة بينهما:

«فالمقال الإذاعي يبدو عليه طابع السرعة في التنسيق بين الأفكار، وترتيب النتائج على المقدمات، وأسلوبه فيه لا يرقى إلى أسلوبه في المقال المعد للنشر، أو البحث الذي يوفر له الوقت الكافي لترتيب الأفكار، واختيار مستوى أرقى من الأسلوب»[٣].

ولعل السبب في ذلك هو استجابة الطنطاوي لما يستلزمه الحديث الإذاعي من تقريب الفكرة، وسهولة العبارة؛ لأنه يقدمه لجماهير مختلفة الثقافة، متفاوتة الإدراك، أغلبها من العامة الذين لا تستهويهم جزالة الأسلوب، وعمق الفكرة بقدر ما يستهويهم قرب العبارة، وحسن الإشارة، وطرافة الفكرة ووضوحها.

---

(١) مقالات في كلمات، ص٢٢١.

(٢) السابق، ١٢٩/١. الفاخر لأبي طالب المفضل بن مسلمة بن عاصم، تحقيق عبد العليم الطحاوي، ج١، ص١٧٦، ط الهيئة المصرية العامة.

(٣) الأديب السوري علي الطنطاوي، د/ عبد الحميد شعبان، ص١٣.

كما أنه في حديثه الإذاعي كان ملزماً بأن يفرغ شحنته الوجدانية، أو يقدم رؤيته الفكرية، أوعرضه المصور في مساحة زمنية لا يتجاوزها، مما فرض عليه أن يكون في كتابته له دقيق العبارة، موجز الصياغة، مالكاً أدوات التأثير اللفظية؛ بحيث يكون لألفاظه إيقاع مخصوص، يبلغ به مناط التأثير في المتلقين، على اختلاف مشاربهم»[١].

ولقد كتبت لأحاديث الطنطاوي الإذاعية القبول والنجاح، مما جعله بحق من أفضل المحدثين الإذاعيين؛ حيث نجح في الاستفادة من موهبته الأدبية والإلقائية، وتوظيف ثقافته التي وسعت الماضي والحاضر، والشرقي، والغربي، والأدبي، واللغوي، والسياسي، والاجتماعي، والديني، والدنيوي.. في خدمة موضوعاته وتحقيق أهدافه، في قرب يلتصق بواقع الناس ويمس حياتهم.

كما كان لروحه المرحة التي لم تكن تفارقه، وبساطته العجيبة التي يواجه بها جمهوره، والتي تتناسب مع البساطة التي كان يطبع بها لغته وأفكاره ومعالجته لموضوعه أثر بيّن في أسر النفوس وإقبالها.

بالإضافة إلى ذلك، حركية أسلوبه، التي تبعث في مشاهده الحياة، وكأنها متحركة محسوسة، وقد أضاف إلى حركية أسلوبه حركية إلقائه وتحديثه، والتي تمثلت في تفاعله مع الكلمات، وإحساسه بها، واختياره لكل لفظة ما يناسبها من لهجة، وتعبير وإشارة، وأداء مؤثر، يصعب أن يتوافر لكثير من المتحدثين؛ ليبلغ بذلك ما يريد.

---

(١) فن المقال في الأدب العربي المعاصر، د/ إبراهيم عوضين، ص١٨٧.

فكيف لو أضفنا إلى المظهر الشخصي لعلي الطنطاوي تاريخه العجيب، الحافل بالوقائع الجريئة التي لا تصدر إلا عن مثله، والخطوب الجسام التي لا تقع إلا لمثله، والمغامرة المتشعبة الجوانب التي ندر أن خاضها أحد غيره.

إن تاريخ الرجل مضافاً إلى حاضره، وإلى شخصيته، وإلى خلقه المتفرد، وأسلوبه المميز، وفكره العميق، ومنهجه العقلي، وتجربته الإنسانية الفريدة، تتعاضد جميعاً؛ لتمنح أحاديثه عند المستمع أو المشاهد قوة تأثيرية نافذة، ولقد لمسنا هذا الأثر القوي من مجرد (قراءتها) فيما مرّ من نماذج[1].

وبهذا يتبين أن حس الطنطاوي الإسلامي، وحرصه على أداء رسالته الدعوية جعله يتخير الأسلوب الأنسب، والطريقة المثلى التي تفي بغرضه وتحقق أهدافه في سمو وإبداع.

ومن هنا كانت معانيه راقية صافية، بعيدة عن الخلط، والغموض والاضطراب، على أن معانيه هذه لم تكتسب صفاءها، وروعتها، وتأثيرها من سلاسة ألفاظه، وعذوبتها فحسب برغم براعته في ذلك، ولكن من قوة إحساسه بها، وصدق إيمانه وعواطفه في التعبير عنها.

لذلك قلما وقع في ضعف التعبير الذي يؤدي إلى اختلاط المعنى، أو قصوره.

---

(١) الأدب الإسلامي (حركية الحديث الإذاعي والبعد الرابع للأدب) د/أحمد بسام ساعي، ص٦٧ - ٧٠، العددان (٣٤، ٣٥).

كقولـه من مقالته «أنا والنجوم»: «حتى لم يبق لي أنا، وإنما صرت أنـا الكـون كله!»[١] فهذه العبـارة قد توهم في الأذهان غيـر ما أراده؛ لذلـك حاول استبعاد هذا الوهم بالتعليق في الهامش بقوله: «أي الكون المخلـوق لا الخالق، وأعـوذ بالله أن أقول بوحدة الوجـود التي قال بها أقوام فضلوا وأضلوا»[٢].

ومعلـوم أن الـكلام إذا احتاج إلى توضيح وأوهـم غير المراد فقد البلاغـة وخرج عن الفصاحة. وهذه الهنات القليلة لا تغض من أسلوب الطنطـاوي الذي يعد مـن أنقى وأقـوى الأساليب المنشـودة من أدباء المسلمين، والمعبرة عن عواطفهم ومشاعرهم وما يطمحون إليه[٣].

---

(١) من حديث النفس، علي الطنطاوي، ص٢١.

(٢) السابق، هامش ص٢١.

(٣) الأدب الإسلامـي «علـي الطنطـاوي كما يمثلـه لي الخيال مـن خلال كتاباتـه» د/محمد أحمد هيشور، ص ٦٥. العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢ م.

الفصل الثالث

مظاهر الاتجاه الإسلامي
في وجدان الطنطاوي

حين تمتزج العواطف مع ما بداخل الإنسان من آثار الفطرة، أو من آثار ما قد يحل محل الفطرة من العوارض الطارئة ينشأ الوجدان «الذي هو مزيج من الانفعالات والعواطف الدائرة في محور الفطرة الإنسانية، أو محور العوارض الطارئة عليها.

والأديب الموهوب هو الذي يستطيع أن ينقل ما في وجدانه من المعاني إلى صور يعبر عنها بما يمتلك من ألفاظ، وتراكيب، وصيغ فنية مشحونة بالأحاسيس، والمشاعر، والإيحاءات التي تلائم المتلقي، وتعبر في الوقت نفسه عما يجده الأديب في نفسه.

على أن هذا الخيال المعبر عن الوجدان من خلال الصور حين ينفلت من إطار الدين والعقل تحت أي عوارض، ويبتعد عن واقع الحياة الدينية، أو الاجتماعية، أو الذاتية، أو ما ينبغي أن تكون

عليه هذه الحياة، يسقط في مهاوي الشذوذ، ويستسلم لدواعي الانحراف[١].

ويمكن التعرف على الاتجاه الإسلامي في وجدان الطنطاوي من خلال أدبه في المباحث الآتية:

المبحث الأول: وجدان الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: وجدان الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: وجدان الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: وجدان الطنطاوي في مقالاته.

---

(١) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص ٢٥٦، ٢٥٩.

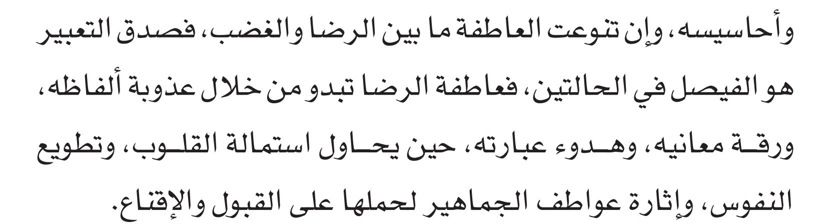
المبحث الأول

وجدان الطنطاوي في خطبه

إن مـن يتأمل وجـدان الطنطاوي فـي خطبه يراه صادقـاً، منفعلاً بالإسـلام في عطائه الشعـوري، والتعبيري، والفكري، ممـا أضفى على صـوره، وألفاظه قوة وجمالاً، وإبداعـاً وشعوراً كشف الخفايا المجهولة، والأحاسيس المبهمة في صور آسرة، استهوت القلب، وامتلكت النفس.

وليس السر في هذا هو جمال الأسلوب، أو قوة العبارة، أو حسن الأداء فحسـب، وإن كان لكل ذلك دوره الفاعل في إصابة الهدف، ولكن السر الحقيقـي يكمن في تحرر الطنطاوي فـي خطبه من التكلّف، والتصنّع، وإرسالـه نفسه علـى طبيعتها؛ لتعبر عـن أحاسيسهـا، وعواطفها التي مبعثها الإيمـان الصادق، ودافعها الاستجابة لنـداء ضميره، وعقيدته الإسلاميـة في تجاوبها مـع أحداث عصره، وأصداء واقـع أمته، والتي ألهبـت مشاعره، وحركت قلبه، وأفاضـت موهبته حتى انثالت خواطره بالألفـاظ المعبـرة، والمعاني المؤثـرة، التي وقعت في قلـوب سامعيه؛ لأنها خرجت من قلبه.

ويُلمس هـذا الصدق الوجداني المؤثر عنـد الطنطاوي من خلال إيمانـه، وانفعاله بما يقول، وكذلك من تناسب ألفاظه ومعانيه لعواطفه



وأحاسيسه، وإن تنوعت العاطفة ما بين الرضا والغضب، فصدق التعبير هو الفيصل في الحالتين، فعاطفة الرضا تبدو من خلال عذوبة ألفاظه، ورقـة معانيه، وهـدوء عبارته، حين يحـاول استمالة القلـوب، وتطويع النفوس، وإثارة عواطف الجماهير لحملها على القبول والإقناع.

وتبـدو تلك العاطفـة واضحة فـي افتتاحياته ومقدماتـه لخطبه، والتـي كان حريصاً فيها على تقديم ما يستأنس به متلقيه، وما يزيل به وحشتـه؛ تهيئة لاستقبال موضوعه واستمالـة قلبه؛ بذكر حادثة خاصة وقعـت له، أو خبر سمعـه، أو ملاحظة لاحظها في أثناء عمله.. متوخياً فيهـا ارتباطها بالموضوع، وتلوينها بلون نفسه، من استبشار، أو مزاح، أو سخرية أو غير ذلك..

وهـذا لا يكـون إلا مـن وحـي الطبـع الصـادق، وإلهـام الـذوق اليقظ[١].

وذلك كقوله في مقدمة خطبته في تأييد الانفصال:

«وبعـد فلقد كدت أثني على القائمين بهذه الثورة، وأذكر لهم أنهم اتبعـوا فيها طريق العقل، وسلكوا سبيل الإخلاص، وأنهم ضربوا للناس مثـلاً ما سمعنا به من قبـل حين نفضوا أيديهم من الحكم، وعادوا إلى ما كانوا عليه من قبل، خاضوا المعركة، وعفوا عن الغنائم...»[٢].

---

(١) تذكرة الدعاة. البهي الخولي، ص٣٨١.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي، ٦/ ٨٤.

فهـدوء العبارة هنا ورقـة المعاني، وعذوبة الألفـاظ عكست ـ كما هـو واضـح ـ عاطفة الرضا والإعجاب بما قام بـه الضباط في ثورتهم، كما يلاحظ انفعال الطنطاوي، وعاطفته الغاضبة المتجاوبة مع وجهته الإسلاميـة من خلال قوة ألفاظه، وشدة وقعها، وقرعها للسمع، وتهويل معانيها، وتلاحق عباراتها، وذلك حين يريد التنفير من شيء، أو نقده، أو تغييره، والثورة عليه.

من ذلك تعبيره الساخط، وعاطفته الغاضبة على المحتل البغيض، وأمته المتراخية في مواجهته. يقول من خطبة «أسبوع الجزائر»:

«وتعـود جيوشـ الاستعمار معقـوداً بنواصيها العـار؛ لأنها ظفرت بالأطفـال والنساء، وأصلتهم نـار المدافع والرشاشـات، إنهم يمحون القرى محواً، ويبيدون أهلها إبادة...»[١].

وقوله: «الجزائر تناديكم، المجاهد الذي نفدت ذخيرته يناديكم، المرأة التي أرادوها على الخنا... تناديكم»[٢].

وقوله: «فهل سمعتم بأمة تعين عدوها على نفسها؟ هل سمعتم بأمة تنـام على دويّ المدافع؟ هل سمعتم بأمـة تغنّي على أنين المحتضرين من أبنائها، وترقص على قبور شهدائها»[٣].

---

(١) «أسبوع الجزائر» هتاف المجد، ص٢٢١.

(٢) السابق، ص٢٢٦.

(٣) السابق، ص٢٢٦.

فهـذه الألفاظ الصاخبـة، والعبارات الغاضبة بمـا تحمله من دلالات ومفارقات عجيبة، تنطق بالأسى، والحزن، وتجسّد المرارة، واللوعة، وتعكس الاستنـكار والعتاب، اللذيـن يعتملان في صـدره، ويستوليان على وجدانه، ويحملانـه علـى إثـارة النـاس لأحاسيسـه، وتجاوبهم معه فـي انفعالاته؛ ليحرك همتهم، ويثير غيرتهم بهذا الأسلوب الاستنفاري القوي.

ومن ذلك تظهر مهارة الطنطاوي الخطابية، وعاطفته القوية المستجيبة لأحاسيسه الإسلامية في استعمال كل لفظ في موضعه المناسب.

فاستعمل الجزل منها ـ أي: اللفظ المتين على عذوبته في الفم، ولذاذته في السمع ـ في التخويف والتهويل، والتقريع ووصف المخازي والأهوال.

والرقيـق منهـا أي اللطيف الرقيـق الحاشية الناعـم الملمس في موضعـه في المدح واستعطاف النفوس، واستجلاب المودة، واستمالة القلوب مستلهماً في ذلك الأداء القرآني في إلباسه لكل معنى ما يناسبه من الألفاظ[١].

كما يبدو إسلامية وجدان الطنطاوي في خطبه من خلال اتزان أفكاره، وأساليبه، والتزامها بمنهج الإسلام في تقبيح القبيح، وتحسين الحسن.

بالإضافـة إلى أنه كان يتكلم عن إيمان عميق، ووجدان صادق لوّن ألفاظـه وصـوّره بلون نفسه في تـوازن واعتدال؛ ولذلـك لم يسرف في

(١) المثـل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، ج١، ص١٥١، ط المكتبة العصرية، بيروت ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

المدح ولـم يتزيّد في الهجوم، ذلك الذي ينفّـر من الخطيب، ويضائل من مصداقيته.

ومن هنـا كانت كلمات الطنطاوي حية تستمـد قوتها من صدقها، وشدة إيمانه بها.

كما كان لسيرة الطنطاوي الحسنة وما عرف به من جرأة وشجاعة في إنـكار المنكر دعمًـا قوياً لتأثيـر كلمته ومصداقيتها فـي النفوس، بالإضافـة إلى أن استجابة الطنطـاوي الوجدانية لإسلامه في اتصاله بالناس جعلته قريباً جداً منهم، لا يكلمهم من برج عاجي كما يفعل بعض الخطباء، وإنما ينـزل إليهم ويلمس جراحهم، ويفرح لأفراحهم، فترى لكلماتـه أثراً بينهم، قلّ أن يصل إليه خطيـب أو متحدث. فهو يخاطب الحاكـم، والعالـم، والأديـب، والأمـي، والصغيـر، والكبيـر، والرجل، والمـرأة، ومن ثمّ فهو خطيـب الشعب يستلهـم موضوعاته من الشعب بهدف النهوض والارتقاء به[١].

وإذا كان الخطيب ـ كما يقول الجاحظ ـ مثل الطنطاوي يريد إصلاح شأن الأمة ومصلحة حال الخاصة، وكان ممن يعمم ولا يخص، وينصح ولا يغشـ، وكان مشغوفا بأهل الجماعة، شَنِئـاً لأهل الاختلاف، جمعت له الحظوظ من أقطارها، وسيقت إليه القلوب بأزمتها، وجمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته، وجبلت على تصويب إرادته..[٢].

---

(١) الأدب الإسلامـي «الشيخ علي الطنطاوي الخطيب الأديب، عبد الباسط أحمد، ص٩٨ العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(٢) البيان والتبيين ـ الجاحظ ٤/٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

المبحث الثاني

وجدان الطنطاوي في قصصه

أما وجدان الطنطاوي في قصصه، فتبدو ملامحه الإسلامية في تصوير شخصياته، ورسم أبعادها الإنسانية والفكرية حين تسعد بالإسلام، وتحيا بقيمه، أو تشقى بالانحراف وتتكسر بذُلّه.

ففي قصة «قضية سمرقند» نلاحظ وجدان الطنطاوي الإسلامي الذي أبرز الحالة النفسية للكهنة، وما تضمره من كيد للمسلمين، وتخطيط لإضعافهم.

وكذا في تصويره لانفعالات السمرقندي تجاه حاكم المسلمين بعدما رأى من اتساع ملكه وعظمة سلطانه. فقال:

«وأقبل على أول إنسان لقيه يريد أن يسأله عن القصر، فاعترته هيبة شديدة، وخاف من مواجهة الرجل الذي يحكم نصف الأرض، والذي يبلغ مُلك (شاهنشاه العظيم) ولاية واحدة من ولاياته، يحكمها أمير من أمرائه... وذكر كيف كانت تتصدّع الأفئدة خوفاً من لقاء كسرى، وتقف الملوك على بابه، وكيف كان يقتل على الظنة، ويأمر بضرب عنق الرجل يقول كلمة لا تعجبه، أو يأتيه في ساعة يكون فيها لقس النفس، ضيق الصدر! وتلمّس عنقه، وتخيّله من الفزع مضروباً.

وتصـور رأسه طائراً عن جسده فطارت معه حماسته، وشجاعته، وكره لقاء الخليفة، وفكـر في العودة إلى بلده سالماً قبل أن يحيق به مصاب لا ينفعه معه مجد يناله، ولا وطن يحرّره ولا كاهن يرضيه...

وغرق فـي مخاوفه وأفكاره وجعل يسير علـى غير هدى، وكلما مرّ على قصر من قصور دمشق، ورأى بهاءه، وعظمته، ظنه قصر الخليفة، فخفق قلبه، واضطرب...»[١].

فوجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام بدا في إبراز هذه المخاوف التي تجسـدت للسمرقندي، والتي عكست وضـع المسلمين الحضاري، وما له من وقع وهيبة ومخاوف في قلوب أعدائهم.

وكـذا بـدا هذا الوجـدان في إظهـار شخصية المسلـم - الذي دلّ السمرقنـدي على دار الخليفـة - في حلمه وعلمـه، وتعاونه على الخير، وتلطّفه في تبليغ الدعوة والهداية إلى طريق اللّه حتى أسلم الرجل على يديه، وظل يمده من الإسلام بما يمكنه في قلبه.

ثـم في تصويـره لشخصية الخليفة عمر بن عبـد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تواضعه، وعدله، وزهده، ورفقه، وسعادة الناس به...

وكذا في إبرازه إعجاب السمرقندي بالإسلام وجمال تعاليمه - بعدما تعرّف عليه - قال مصوراً هذا الإعجاب:

«... وتبعـه يفكّر في جمال هـذا الدين، وسموه، وقد زالت الغشاوة

---

(١) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٧٤ – ٧٥.

عـن عينيه، فأدرك الآن سـر هذه الفتوحات، وهذه القـوة التي لم يقم لهـا شيء. أين هذه الديانـة السافرة الواضحة التي تجعل كل واحد من أتباعهـا كاهناً لها، ورجل دين... مـن تلك الديانة المجهولة الخفيّة... أين!؟»[١].

ويبدو وجدان الطنطاوي بملامحه الإسلامية في إبرازه شخصية القاضـي المسلـم في تواضع هيئتـه، وكمال عدالته، ونفـاذ كلمته التي خرجت انتصاراً للحق الذي كان لأعدائه وأعداء أمته في تلك القضية؛ إذ إنـه يدور مع الحق حيـث دار، ويستسلم للإسلام بما حكم وعلى من حكم.

وفي إبرازه ما للعدل من أثر في النفوس، وفتح للقلوب، حيث فُتحت (سمرقند) ودخلت في الإسلام ببركة العدل لا بقوة السيف.

وفـي قصة «تـاج كسرى» يُلاحظ إسلامية وجـدان الطنطاوي من خلال ما رسمه لأشخاصه من أبعاد وملامح.

فهـذا سُـراقـة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قبـل إسـلامـه بملامحه؛ حيـث يدفعه الطمـع والغـرور ـ وهـو الفارس القـوي ـ لمطاردة النبـي ﷺ وصاحبه، واللحاق بهما؛ لنيـل الجـائـزة التـي رصـدتها قريـش لمـن يـأتي بهما، فمـا كاد أن يصـل إليهمـا حتى أحس بقـوة هائلة تمنعه مـن الوصول إليهمـا، فركبته المخاوف، ورجع من حيث أتـى مكتفياً بوعد النبي ﷺ

(١) قصص من التاريخ، ص٧٦.

لـه بلبس سواري كسرى، هذا الوعد بالذات وفي هذه الظروف الحالكة كان لـه وقعه على نفس سراقة، وبُعده في وجدان الطنطاوي، فعبّر عنه وأبرزه بقوله:

«ورجـع سراقـة، وقـد اجتمعـت عليـه المتناقضـات مـن الأفكار والعواطـف، وهاج فـي نفسه الطمع، والخوف، والأمـل، واليأس، فجعل يقهقـه في هـذه البادية ويصرخ كمـن به جنّة! ولم لا يجـنّ!؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى، ففاته ما كان يأمل، وقد فتحت فاها لتبتلعه الأرض، فنجا، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد، وخرق النار، وخوض البحار.

مـاذا!؟ أيعدني محمد سواري كسـرى.. شاهنشاه ملك الملوك... وهـو يقطع الصحراء هارباً من قومه مختفياً في غار ليس معه إلا رجل واحد!؟

أيبتلع هذا الغار مُلك كسرى، وجبروته، وجلاله!؟

أتنتصـر هذه الصحراء على ملك كسـرى وجنّاته وأنهاره؟! أيغلب هـذان المهاجران كسرى علـى خزائنه وجنوده وبـلاده؟ ولو أن العرب اجتمعـت كلهـا، ورمت عن قوس واحدة ما نالت مـن كسرى منالاً، على أنهـا لن تجتمع العرب أبداً، ومـن ذا الذي يجمع مضر وقحطان، وبكراً وتغلب، وعبساً وذبيان!؟ وأين يذهب ما بينهما من دماء!؟

أمـا إن قريشاً كانـت أدرى بصاحبها حين قالت عنه ما قالت، فما أراه ينجـو مـن قريش، ويفلت من أذاهـا حتى يكون له ملـك كسرى..

وإنـه والله ما يريد إلا أن يتركنا -نحـن أيضاً- مجانين! وانطلق يقهقه ويصرخ![1].

ويُلاحظ هنا أن الطنطاوي أجاد في إبراز تلك المشاعر والأحاسيس التـي تولّدت في نفسه من خلال هذا الوعـد، كما أوضحت لنا بُعد هذا الوعد، وكثرة عوائقه؛ لتظهر لنا بعد ذلك عظمة تحقيقه، وصدق نبينا ﷺ في الإخبار عنه.

كما بدا وجدان الطنطاوي الإسلامي في إبراز شخصية النبي ﷺ في حسن توكّله، وكمال إيمانه بالله، وحب أبي بكر رضي الله عنه له وشدّة خوفه عليـه. وكذا في استجابة عمـر رضي الله عنه لرغبة النبـي ﷺ وتصديق نبوءته بإلباس سراقة رضي الله عنه سواري كسرى بعد فتح فارس.

فـي قصة «بنات العرب في إسرائيل» يتضح وجدان الطنطاوي في تجاوبـه مع الإسلام في رسـم شخصياته؛ حيث نـراه نكّر شخصياته؛ لتكـون شخصيـات نموذجية غير مسماة؛ لتفيد الكثـرة والعموم؛ حيث إن الفتاة ليست وحدها التـي تعرضت لذلك، والشاب الفلسطيني ليس وحده الذي تخلّى عن قضيته وهرب من مسؤوليته خوفا على حياته.

فالفلسطينـي في هذه القصة شاب مثقّف تضطرم نار الشهوة في صـدره، ونـار الحقد على اليهـود في قلبه، لكنه ضعيـف النفس، جبان القلب.

---

(١) قصص من التاريخ، ص٢٢٤، ٢٢٥.

والفتــاة.. مسلمة، عفيفة، جميلة، أُجبرت علــى الرذيلة والهوا ن، بعدما فقدت أهلها، وهي تتمنّى الخلاص بأي وسيلة، وترغب في الطهر والعفاف.

والأب.. رجل مسلم، غيور، فضّل الموت على الذلّة والعار.

واليهــود.. قساة القلوب، عُدمــوا الإنسانية، وحُرموا الشفقة، حتى تاجــروا بأعراض فتياتنا، وقتلوا نساءنا وأطفالنــا، واتخذوا كل وسيلة توصّلهم إلى أغراضهم الدنيئة.

وفي قصة «طبق الأصل» يُلمح توجّه الطنطاوي الإسلامي، ووجدانه المتّــزن فيهــا من خلال سخريتــه بالتبرج، والمنخدعيــن به، وتقبيحه للحرية غير المنضبطة، ولعواقبها الوخيمة.

فهــو يصوّر في تلــك القصة رجــال الشرطة متكاسليــن، عقولهم قاصرة، وهمومهم متدنّية؛ ليكرّه إلينا هذا السلوك الشائن.

وكــذا فــي تصويره الفتــاة المتبرّجة، ومــا تثيره فــي النفوس من رغبات آثمة، وما تتعرّض له من أحداث قاصمة... يقول عن تلك الفتاة بعدما تعرّضت لمضايقة شاب وقح، فذهبت تشكو إلى الشرطة:

«ووقفــت الفتــاة تصوّب فيهم نظــرات متعالية، ثــم قالت عابسة، زاوية مابين عينيها، ضامة شفتين، كذر الورد على فم لا يتسع للكلمات، ولا يصلح إلا للقبل: أمام باب المخفر شاب وقح، لا يزال يلاحقني كلما مشيت في الطريق، فأرجو سؤاله عما يريد مني!

وعرفوا الذي يريده منها، وكانوا في قرارات نفوسهم يريدون مثله، وكانوا قوماً همجاً متأخرين، ذوي عقول قديمة رجعية، لا يفهمون من تكشّف البنات إلا ذلك المعنى العتيق جداً... لا يعلمون أن الدنيا تقدّمت.

وأن الفتاة تتكشف على الساحل للسياحة، وفي المدرسة للرياضة، وفي الطريق، وفي الترام للصحة وحدها فقط... لا غير»[١].

وكما سخر الطنطاوي بهذه الانحرافات والسلوكيات، رأيناه يسخر بسلوك ذلك الشاب الذي كان يتعقب هذه الفتاة، فيقول:

«وكان مخنّثاً، خليعاً، تحسّ إذا نظرت إليه أن رجولته كورقة النقد المزوّرة، لها لونها ونقشها، ولكن ليس لها قيمتها، ولا تشتري لصاحبها إلا مكاناً في السجن، كما أن رجولة هذا الشاب لا تكسبه إلا موضعا في جهنم...»[٢].

كذلك يبدو هذا الوجدان بمظهره الإسلامي في تقبيح تصرفات وأفكار ذلك الأب الجشع المنخدع بشعارات العصر الزائفة، والأخ العابث وراء شهواته.

كذلك بدت إسلامية وجدان الطنطاوي في إبرازه النهاية المفجعة لهؤلاء المنحرفين، والتي جاءت وفق القانون الإلهي في قوله تعالى: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[٣].

---

(١) قصص من الحياة، ص٧٠.

(٢) السابق، ص٧١.

(٣) سورة النحل، آية ٣٤.

فالطنطـاوي هنا وإن تناول تلك الرؤى الشـاذة لهذه الشخصيات عـن الإسلام، فإنما تناولها ليرينا من خـلال الواقع الحيوي نهاية مثل تلك الرؤى، لا ليبشّر بها، أو يحضّ عليها.

مما يؤكّـد أن الأديب الإسلامي ليس مُلزماً بنهج مباشر، أو غيره، وإنما تميّزه الفني، هـو الذي يتجه به الوجهة المناسبة التي قد يختلف فيها عن غيره مع استقامته في الانطلاق من الوجدان الإسلامي[١].

وفـي (قصص الأطفـال) نـرى الطنطـاوي مستجيبـاً لوجدانه الإسلامـي، في تقبيحه للشّرِّ والباطـل والتخويف من عواقبه، وتمجيده للقيم الإسلامية التي اتسمت بها شخصياته، وسعدت بعواقبها الحسنة وحققت منجزاتها الخيّرة.

لذلـك حرص علـى إبـراز شخصيـة (ابـن هبيـرة) بملامحها الإسلاميـة ومـا تحلّـى به من صبـر، وتواضـع، وأمانـة، وإخلاص في مراحل حياته المختلفة، طالباً وعالماً، غنياً وفقيراً، وإن كانت تتنازعه –لبشريتـه – وساوس الشيطـان، وتتناوشه أهـواء النفس، فهو في النهاية دائماً المسلم الـذي ينتصر للفضيلة، ويستجيب لدينه، وقيمه، وضميره؛ لذلك كان له من اللّه العون، والتوفيق، والرزق الحسن.

كمـا بـدت شخصيـة الأخ الكبير غاية فـي الأمانة والوفـاء، وحفظ العهـد؛ لذلك كان له عنـد اللّه حسن الجزاء، ومن أخيـه الدعاء والحب والذكر الحسن.

---

(١) انظر في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٤٠.

لكن لو أتى الكاتب بكل شخصياته على هذا النحو من الطهر والصفاء؛ لترددنا في قبولها! فالحياة لا تصفو على حال، ولا تخلو من انحرافات النفوس.

لذلك رأينا شخصية البائع الجشع الذي ينتهز الفرص ويستغل المحتاج.

والأخ الصغير: الذي كان ضيق الأفق ضعيف الإدراك – فظن بأخيه السوء – قبل أن يخبر بأمره – ووقع في شرك الشيطان وانقاد لوساوسه فيما حاكه حول أخيه من اتهامات وشكوك رغم أن ما وقع معه كان ينبغي أن ينفي عنه هذه الظنون ويطرد عنه تلك الوساوس!

وفي قصة «التاجر القائد» نرى شخصية القائد المتغطرس الذي يستعين بسلطانه على الباطل.

وشخصية التاجر المسكين وصديقه الأمين الذي أخذ بيده إلى من يوصله لحقه ويفرج عنه كربه.

وشخصية الخياط.. ذلك المسلم الغيور على أعراض المسلمين، الثائر على الباطل، المتحمل في إنكاره المنكر الضرب والتعذيب، فكافأه الله لإخلاصه بنفاذ كلمته، وتصديق شهادته، وتلبية رغبته بأمر الحاكم المسلم الذي أبصر غيرته وصدق أمانته.

وشخصية الحاكم المسلم الذي ألجم الظلم ونشر العدل؛ لأنه لا يحابي في الحق أحدا. حتى إنه قتل أحد قواده لزيغه وانحرافه، وقرّب أحد العامة لاستقامته واعتداله.

فالوجـدان الإسلامي للطنطاوي هو الـذي أسرع بهذه المقابلات؛ ليقـوي الخير في النفوسـ ويرغب فيـه، ويُكرّه الظلم والغـرور ويحذر منه.

ومـن كل هــذا يتضح لنا وجدان الطنطاوي فـي قصصه، بمظهره الإسلامـي، والذي نجـح من خلاله أن يبرز لنا مشاعـره المحبة للقيم الإسلامية، ويولّد فينا عواطف الميل والرغبة الشديدة في التحلي بهذه القيم والتمسك بها.

واستطـاع أن يستثير فينا بوجدانه الإسلامــي المعبر عنه بصوره وألفاظـه؛ مشاعـر السخـط والبغض، والنفـور والكراهيـة للسلوكيات المنحرفـة والعـادات الشـاذة، والأفـكار الباطلـة التي عرضـ لها في قصصه.

واتضح من خلال هذه القصص توظيف الوجدان بمظهره الإسلامي فــي الكشف عن خفايا النفوس ومشاعرها تجاه ما تواجهه من أحداث؛ ليتسنــى للكاتب بذلك تهيئة النفوس إلى التوجـه نحو ما يريد الكشف عنــه، والإحساس بـه في جلاء ووضوح، ولعل هذا هو غاية ما يطلب من الوجدان الإسلامي في تفاعله مع الحياة من خلال الأدب.

المبحث الثالث

وجدان الطنطاوي في تراجمه

(أ) تراجم الطنطاوي الشخصية الذاتية:

يظهر ملامح الوجدان الإسلامي في ترجمة الطنطاوي الشخصية لنفسه من خلال مقصده منها وتناوله لها.

حيث كان ينشد بذكرياته ارتقاء الفكر ومعرفة سبل السعادة للفرد والمجتمع فتناولها برؤية إسلامية، عرضت الفضائل وأشادت بها، وقبحت الرذائل وبينت خطرها؛ ليحقق من ورائها رؤية إسلامية تستضيء بها أمته في سيرها الطويل[١].

لذلك نراه في ذكرياته يعرض أحاسيسه ويظهر عواطفه نحو قضايا الحياة، وما استفاده منها بصدق وصراحة. من ذلك قوله في تلخيص تجربة عمره وما استفاده منها:

«فما الذي استفدته من عمري؟! طلبت المجد الأدبي وسعيت له سعيه، وأذهبت في المطالعة حدة بصري، وملأت بها ساعات عمري،

---

(١) بين النقد والأدب، د/ محمد رجب البيومي، ص٣٠٢، الطبعة الأولى ١٩٩٧، المطبعة الفنية.

وصرمت الليالي الطوال أقرأ وأطالع.. حتى لقد قرأت وأنا طالب كتباً، من أدباء اليوم من لم يفتحها مرة واحدة؛ لينظر فيها.

وكنت أرجو أن أكون خطيباً يهز المنابر، وكاتباً يمشي بآثاره البريد، وكنت أحسب ذلك غاية المنى وأقصى المطالب، فلمّا نلته أو نلت بعضه زهدت فيه وذهبت مني حلاوته، ولم أعد أجد فيه ما يشتهى ويتمنى!.

وما المجد الأدبي!؟ أهو أن يذكرك الناس في كل مكان، وأن يتسابقوا إلى قراءة ما تكتب وسماع ما تذيع، وأن تتوارد عليك كتب الإعجاب، وتقام لك حفلات التكريم؟ لقد رأيت ذلك كله! فهل تحبون أن أقول لكم ماذا رأيت فيه!؟

سراب قبض الريح! أغلق يدك على الريح ثم افتحها لا تلق فيها شيئاً!.

لا.. والله ما أقول هذا كلام أديب يتخيل! ولكن - وأحلف لكم لتصدقوا- ما أقول إلا الحقيقة التي أشعر بها. أنا من خمسين سنة أعلو هذه المنابر، وأحتل صدور المجلات والصحف، وأنا أكلم الناس في الإذاعة، ويسمعونني ويرونني في الرائي من يوم جاءنا الرائي. ولطالما خطبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وإندونيسيا وكثير من بلاد أوربا خطباً زلزلت القلوب، ومحاضرات شغلت الناس، وكتبت مقالات كانت أحاديث مجالسهم، ولطالما مرت أيام كان اسمي فيها على كل لسان في بلدي، وفي كل بلد عشت فيه أو وصلت إليه مقالاتي!.

وسمعت تصفيق الإعجاب، وتلقيت خطب الثناء في حفلات التكريم، وقرأت في الكلام عني، ولي، وعلي مقالات ورسائل. ودرّس أدبي ناقدون كبار، ودرّس ما كتبت، وما قالوا عني في المدارس. وترجم كثير منه إلى أوسع لغتين انتشاراً في الدنيا الإنكليزية والأردية، وإلى الفارسية والفرنسية! إي والله! فما الذي بقي في يدي من ذلك كله!؟ لا شيء، صدقوني إن قلت لكم: لا شيء! وإني إن لم يكتب لي بعض الثواب من الله على بعض هذا أخرج صفر اليدين.

إنني أقف في مطلع العام لأحاسب الحياة على ما أعطتني، وعلى ما أخذت مني، فأجد أنها أخذت مني عمري الذي هو رأسمالي! فإن لم أخرج من هذا العمر بعمل صالح، ومغفرة من الله أكن قد خسرت كل شيء.

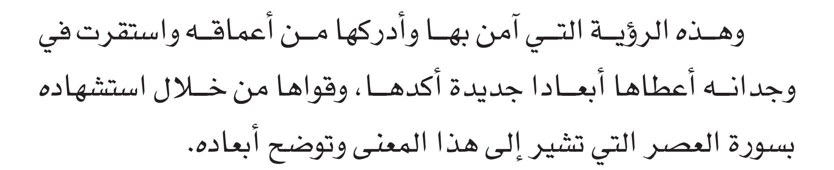
إن كل ما في الدنيا يذهب إن ذهبت، لا يبقى لي إلا ما قدمت لآخرتي.

﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[1].

فالطنطاوي يعرض علينا تجربته في الحياة وقد انكشفت له حقيقتها وزيفها وخداعها؛ ليعلمنا أنه لا نفع فيها إلا بما كان لله، ولن يبقى للمرء منها إلا ما قدم لآخرته، وأن السعادة الحقيقية في الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) سورة العصر، (١-٣).



وهــذه الرؤيــة التــي آمن بهــا وأدركها مــن أعماقــه واستقرت في وجدانــه أعطاها أبعــادا جديدة أكدهــا، وقواها من خــلال استشهاده بسورة العصر التي تشير إلى هذا المعنى وتوضح أبعاده.

وهــي أيضا لمحة مــن خواطره الكثيرة في ذكرياتــه التي بدا فيها وجدانه المنفعل بالإسلام وإيمانه الصادق بما يقول عن واقعه وتجاربه، حتــى لا يستطيــع القــارئ إلا أن يستشعر هذه الحقائــق التي تكمن في أعماقه الفطريــة، ولتتضاءل بذلك أمامه متع الحيــاة ويتوجه لعمل ما ينفعه في الآخرة.

فالوجدان في ذكريات الطنطاوي عنصر مهم وفاعل ولّد من خلاله في نفوسنا الإحساس العميــق بالمعاني الإسلامية السامية، ودلها على سبيــل سعادتها من خلال واقع حي لتجاربــه الثرية وخواطره الصادقة حول ما عرض له في حياته.

كما استخدمه كوسيلة قوية للتنفير من سلوكيات خاطئة، وأمراض اجتماعيــة، وفكرية، وعقديــة، مستوطنــة تحتاج إلــى استئصالها من الجذور.

(ب) تراجم الطنطاوي الذاتية الغيرية:

تبــدو مظاهــر إسلامية وجــدان الطنطــاوي في تراجمــه الذاتية الكلية، من خلال شعورنا بحبه للصحابة - رضوان الله عليهم - وتعظيمه لقدرهم في تناول يملؤه الإعجاب والتقدير.

يقول في مقدمه كتابه عن أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

«ولقد قلت في مقدمة (أخبار عمر): إني قرأت سير آلاف العظماء من المسلمين، وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره، ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها، فهو عظيم الفكر والأثر والخلق والبيان.

وأقول اليوم: إن أبا بكر كان أعظم من عمر في كل شيء. حتى في القوة التي كانت شعار عمر، وكانت عنوان شخصيته، فإن أبا بكر الضعيف الجسد، الرقيق العود، لما بارى عمر في القوة كان هو الأقوى.

إنّ عمر عظيم لكن لا يعدل أبا بكر!.

إن أبا بكر هو أعظم العظماء بعد الأنبياء. لقد أقر عمر بذلك بلسانه على منبر رسول الله ﷺ وتاريخه كله إقرارات بذلك، ولا يعرف الفضل إلا ذووه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وحسبكم أن أبا بكر كان أسبق الرجال إلى الإسلام، وأنه كان أحبهم إلى رسول الله، كما خبّر بذلك ﷺ.

الفريق المتماسك في الرياضة الجماعية يعمل معاً الواحد للكل، والكل للواحد، تجد فيه نخبة من الأبطال لا تستطيع أن تحكم أيهم أقوى، إلا إن تنازل في مباراة ودية اثنان منهم.

كذلك كان الصحابة الكرام ﵃ وأرضاهم - وكان الخلفاء الراشدون والعشرة المبشرون خيار الصحابة، وكان الشيخان أبو بكر وعمر.. كما كانت خديجة وعلي خيار الخيار وأبطال الفريق.

ولقد تواجه أبو بكر وعمر لا مواجهة المتباريين، فما كانا يختلفان، ولا في المزاح، بل مواجهة المتنافسين على درجة الامتياز، في السباق إلى رضا الله، تواجها يوم قبض رسول الله ﷺ ويوم السقيفة، ويوم بعث جيش أسامة، ويوم الردة، وكلها نوازل نزلت بالمسلمين، وفي النوازل الثقال توزن أقدار الرجال! فكان أبو بكر ﵁ وعن عمر- أثبت في الشدائد، وأشجع في اقتحام الأهوال، وأكثر علماً بالله، وكان هو الأرجح في الميزان...»[١].

فهذا الشعور الراضي الذي دفع الطنطاوي لإبراز عظمة الصحابة –رضوان الله عليهم – والإعجاب بهم، هو انعكاس لوجدان الطنطاوي الإسلامي الذي صبغ صيغه التعبيرية بهذه المعاني الروحية التي منحت الألفاظ الحياة وأثارت فيها النبض والحركة[٢].

وهذا مظهر من مظاهر إسلامية وجدان الطنطاوي في تناول تراجمه الغيرية، والدال على امتلاء نفسه بعظمة هؤلاء الصحابة - رضوان الله عليهم - وإفاضته من هذا الإحساس علينا.

---

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص٩ -١٠.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص٢١٤.

ويبدو وجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام في تراجمه من خلال استلهاماته من المعاني القرآنية وتاريخ المسلمين ما يستضيء به في عرض آرائه وطرح قضاياه.

من ذلك ما ذكره تحت عنوان «عمر مع غير المسلمين» يقول:

«اليهود: اختلف المؤرخون في يهود المدينة هل هم عرب تهودوا، أم هم يهود تعربوا! والذي يغلب على ظني أنهم يهود؛ لأن اللّه عز وجل كان يدعوهم (يابني إسرائيل) وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام وأولاده اليهود؛ ولأن المتتبع لما وصف القرآن من أخلاقهم، والناظر في تاريخهم، يرى الاختلاف البين بين أخلاقهم وأخلاق العرب، وأدل الدلائل على هذا الاختلاف أن العرب في مكة لما حاربوا الإسلام حاربوه من أمام، فعل الرجل الشريف، وهؤلاء حاربوه بالدس والمكر، فعل المحتال المخادع الضعيف، وهم علّموا العرب النفاق، وما كان من قريش منافقون، إنما نجم النفاق في المدينة بعد الهجرة من تأثير اليهود.

وكان تاريخهم مع المسلمين تاريخ الغدر والخيانة والعدوان منهم، والصفح والصدق والإنصاف من المسلمين، واستمر ذلك حتى أنقذ اللّه المدينة منهم واجتمعت بقيتهم في خيبر»[(١)].

فالطنطاوي كما رأينا يستلهم رأيه من معطيات القرآن الكريم، والواقع التاريخي للمسلمين مع غيرهم، مما يقوي حجته، ويرجح رأيه، ويعكس انفعال وجدانه بالقرآن الكريم والتاريخ الإسلامي المجيد.

---

(١) أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، للطنطاويين، ص١٦٣.

ويلاحظ إسلامية وجدان الطنطاوي في تراجمه من خلال تفسيره لما يصدر من شخصياته، تفسيراً روحيا، يرفع فيه القيم، ويمجد البطولة، وينفي فيه ما توهمه ظاهر الأخبار من نقص أو انحراف يتعارض مع معطيات الشخصية التاريخية ومكانتها في النفوس.

من ذلك فهم الطنطاوي لدلالة هذا الحدث، وتعليقه عليه، بما يتوافق مع طبيعة الشخصية العمرية. يقول:

«وقال أسلم: مرّ بي عمر أنا وعاصم بن عمر نتغنى غناء النصب، فقال: أعيدا فأعدنا، فقال: مثلكما مثل حماري العباديّ، قال: أي حماريك أشر؟ قال: هذا ثم هذا!».

يقول هذا ممازحاً»[(١)].

فالطنطاوي عقب على قول عمر رضي الله عنه بقوله: «يقول هذا ممازحاً» ليصرف بذلك الوهم الذي قد يؤدي إليه ظاهر الخبر من أن عمر رضي الله عنه سبّ أسلم وعاصما وأهانهما دون داع، وهذا يتنافى مع ما أثر عن شخصية عمر رضي الله عنه فلابد أن يخرج ذلك منه على سبيل المزاح.

وأوضح من هذا تناول الطنطاوي لدلالة هذا الحدث الذي حرص فيه على إبراز الصورة المثلى للصحابة رضي الله عنهم حفاظاً على تعظيم القدوة، وتمجيد الرموز التي لو اهتزت صورتها في الأذهان؛ لزلزلت ضعاف النفوس، وأوجدت لهم مدخلاً للتساهل والانحراف.

---

(١) السابق، ص٢٩٩.

يقول الطنطاوي تحت عنوان «يقيم الحد على ولده»:

«عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال يوماً وقد ذكر عمر فترحم عليه – ما رأيت أحداً بعد نبي الله ﷺ ـ وأبي بكر رضي الله عنه أخوف من عمر! لا يبالي على من وقع الحق؛ على ولد أو والد.

ثم قال: والله إني لفي منزلي في مصر إذ أتاني آتٍ فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر وأبو سروعة[١] يستأذنان عليك. فقلت: يدخلان. فدخلا وهما منكسران فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فسكرنا، فزجرتهما وطردتهما.

فقال عبد الرحمن: إن لم تفعله أخبرت أبي إذا قدمت عليه. فعلمت أني إن لم أُقم عليهما الحد غضب علي عمر وعزلني، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد. ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية في الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود! والله ما كتبت لعمر بحرف مما كان حتى جاءني كتابه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عمر إلى العاصي بن العاصي.

عجبت لك يا ابن العاص، وجرأتك علي، وخلافك عهدي فما أراني إلا عازلك، تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك، وقد

---

(١) أبو سروعة هو: عقبة بن الحارث، أسلم وروى عن الرسول ﷺ وأخرج له البخاري ثلاثة أحاديث (الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني. تحقيق علي محمد البجاوي ٥١٩/٤، ط١، دار الجيل. بيروت ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م. أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر، للطنطاويين، ص١٦٣.

عرفـت أن هـذا يخالفني، إنما عبد الرحمن رجل مـن رعيتك تصنع به مـا تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلـت: هو ولد أمير المؤمنين! وقد عرفت أنه لاهوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب عليه، فإذا جاءك كتابي هذا، فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع!.

فبعثت به كما قال أبوه، وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه أني ضربته في صحن داري. وباللّٰه الذي لا يحلف بأعظم منه إني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم.

وبعثت بالكتاب مع عبد اللّٰه بن عمر، فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة، ولا يستطيع المشي من سوء مركبه.

فقـال: يا عبـد الرحمـن فعلت وفعلـت!؟ فكلمه عبـد الرحمن بن عوف.

وقـال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد فلم يلتفت إليه، فجعل عبد الرحمـن يصيح: إني مريض، وأنت قاتلـي! فضربه ثانية وحبسه. فمرض ثم مات ـ رحمه اللّٰه»[1].

وبعـد أن نقل الطنطاوي هذا الخبر نراه علق عليه في الهامش بما ينبغـي أن نفهمه لا ما قد يوهمه ظاهر الخبر، وبما يثبت ما يليق بمقام الصحابة ـ رضوان اللّٰه عليهم ـ أجمعين. فيقول:

---

(١) أخبـار عمـر وأخبار عبـد اللّٰه بن عمر، للطنطاويين، ص٣٠٠ -٣٠١، والخبر فـي تاريخ بغداد لأحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ٥/ ٤٥٥، ط دار الكتب العلمية، بيروت.

«لما ضربه وأرسله لبث شهراً صحيحاً ثم أصابه قدره، فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر ولم يمت من جلده، ثم إنه لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر، وإنما شرب النبيذ متأولاً يظن أن الشرب منه لا يسكر. وكذلك أبو سروعة وهو من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السكر طلبا التطهير بالحد، وقد كان يكفيهما مجرد الندم على التفريط، غير أنهما غضبا لله سبحانه وتعالى على أنفسهما المفرطة فأسلماها إلى إقامة الحد! وأما كون عمر ضربه مرةً ثانية، فليس ذلك حداً، وإنما ضربه غضباً وتأديباً، وإلا فالحد لا يكرر. وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدؤوا فيه وأعادوا، فتارة يجعلونه مضروباً على شرب الخمر، وتارة على الزنا، ويذكرون كلاماً مرققاً يبكي العوام لا يجوز أن يصدر عن مثل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ»[1].

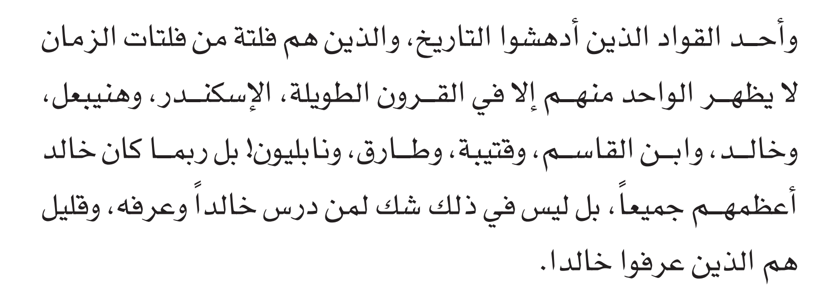
والطنطاوي صادق مع نفسه، مستجيب لوجدانه الإسلامي في دفع كل شبهة تنشأ عن فهم خاطئ، أو نفس مغرضة.

من ذلك رؤيته الكاشفة لحقيقة عزل عمر لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، والتي تأولها المغرضون بتفسيرات أبانت عن جهلهم بعظمة أولئك الرجال.

يقول الطنطاوي عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«... ثم التفت إلى الشام فعالج شؤونها، ورتب أمورها، وولى أباعبيدة قيادة جيوشها، ونحَّى خالداً. لقد كان خالد نابغة الحروب،

(١) أخبار عمر وأخبار عبدالله بن عمر، ص٣٠١.



وأحـد القواد الذين أدهشوا التاريخ، والذين هم فلتة من فلتات الزمان لا يظهـر الواحد منهـم إلا في القـرون الطويلة، الإسكنـدر، وهنيبعل، وخالـد، وابـن القاسـم، وقتيبة، وطـارق، ونابليون! بل ربمـا كان خالد أعظمهـم جميعاً، بل ليس في ذلك شك لمن درس خالداً وعرفه، وقليل هم الذين عرفوا خالدا.

فلماذا يعزله عمر؟

هـذا ما خاضـت فيه ألسنـة تنطق بغيـر المنطق، وتهـرف بما لا تعرف، وتحركت فيه أقلام تتبع الهوى وتخبط في ظلمات الجهل...

لا، لم يعزله عن موجدة، ولا خيانة، ولا بغض، ولا انتقام! ولقد كان عمـر يحب خالداً ويكرمه، وكان عارفاً بمنزلته، وعالما بمقدرته، وإنما ضحى به في سبيل الإسلام»[١].

وهـذا تفسير أحـس بغرابته، ولكنـه حين كشف مـا وراءه بالأدلة الواضحة أزال هذه الغرابة، و أقنعنا بأنه الحق والصواب، حيث قال:

«ولقـد يبدو هـذا القول غريبـاً ولكنه الصـواب! إن الإسلام يقوم على مبـدأ التوحيد، على اعتقاد أن الله هو النافع الضار، وأن كل شيء بيده، وأنه لا يعطي غيره، ولا يمنع سواه، فخاف أن يتكل المسلمون على خالـد، أو يعتقدوا أنهم ينصـرون به، فيفتنوا ويضلوا، وإذا غاب عنهم غلبوا وذلوا، فعزله!.

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص٢٧.

ولقـد صرح عمر نفسه بهذا في مرسوم بعث به إلى الأمصار حين قـال: «إني لـم أعزل خالداً عن سخطـة ولاعن خيانة، ولكـن فتنوا به! فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصـانع، وأن لا يكونوا بعرض فتنة».

ومـن استعظم عـزل خالد، وعده كسراً لخاطـره، وجحوداً لفضله وعقوقـاً، ورآه شر جزاء لـه على أعماله، فإنما رأى ذلك لجهله بأخلاق المسلميـن الأولين، وظنـه أن خالداً كان يقاتل من أجـل الإمارة، فإذا تركته الإمارة ترك القتـال؛ أو أنه يقاتل من أجل الخليفة، رغبة بوسام ينالـه، ورتبة يحظى بهـا، فإذا عزله الخليفة انصـرف عن الحرب، أو ثـار وعارض، كما قد فعل القواد من غيـر المسلمين، لم يدر أن خالداً كان يقاتل لله، ورغبة في ثوابه، فكان سواء لديه أكان جندياً صغيراً، أو قائداً عاماً، ولم يبلغ هذا الناقد قول خالد حين وصل إليه العزل: والله لو ولّى علي عمر امرأة لسمعت وأطعت!!

الله أكبر! ما هذه النفوس؟

أما إنه لا عجب إذا لم نفهمها، ولم ندرك كنهها!.

فلقـد كانت تحلق في سمـاء لا تبلغها نفوسنا و لا بالخيال، ولا غرو إن لـم نستطـع أن نفهم كيف آثر عمـر المصلحة العامـة فعزل خالداً وهـو يقسم أنه يحبه، وهو صادق في قسمـه. وكيف رضي خالد بالعزل وقاتل جندياً كما كان يقاتل قائداً، ولا غرابة إن لم يفهم مؤرخو الغرب

والمستشرقــون سر هــذه المسألة، فإنها مسألــة رجال هم من طراز لا يعيش في أوروبا!»(١).

وهكذا يتضح وجدان الطنطاوي الإسلامي وأثره في تناول أحداث التاريــخ وتفسيرها تفسيرا روحياً قويــاً يستمد قوته من معطيات مادية حقيقية، تتفق والوجهة الإسلامية التي التزمها منهجاً وفكراً وأسلوباً.

كما يتضح وجدان الطنطاوي المنفعل بالإسلام من خلال إعجابه بالسلوك الإسلامي المتزن، وإشادته بالخلق الإسلامي الملتزم.

يقــول في ترجمته لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وآخى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيــن كل اثنين، فــكان أخا عبد الرحمن بن عــوف (المهاجر) سعد بن الربيــع (الأنصاري) فلم يكف سعدا أن أنزله في بيته وأكرمه بضيافته وأراه من بره حتى قال له:

إنــي أكثر الأنصار مــالاً، ولقد قسمت مالي نصفين فخذ أفضلهما يكــن خالصاً لك، وإن لي زوجتين فاختر منهما خيرهما عندك أطلقها وتتزوجها أنت بعدما تنقضي عدتها!.

أرأيتــم مثــل هذا الإيثــار أو سمعتم به؟ هل رأيتــم في المجتمعات الخياليــة التــي تصورهــا الأدبــاء والفلاسفــة، مثــل هــذا المجتمــع الحقيقي!؟

---

(١) قصة حياة عمر، ص٢٨ - ٢٩.

فقال له عبد الرحمن:

بارك الله عليك في مالك، وفي أهلك، لا أريد منك شيئاً ولكن دلني على السوق!.

إنه يريد أن يعيش بكده، ويغنى بعمله، ولا يكون كلاً على أحد.

وكذلك يكون المسلم الحق»[١].

فوجدان الطنطاوي المتزن بالإسلام يثير إعجابنا بإيثار سعد بن الربيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكرم نفسه، وسخائه، كما يشيد بعفة عبدالرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وسعيه، واجتهاده؛ ليبين لنا أن تلك هي صفات المسلم الحق، أي الذي اكتمل إسلامه قولاً وعملاً واعتقاداً.

ومن ثم يتبين دور الوجدان الإسلامي في تناول التاريخ، للسعي به نحو تصحيح المفاهيم وتقويم السلوك وبناء القيم والأخلاق.

ويلاحظ أن تراجم الطنطاوي، كانت ترجمة عن وجدانه، وتلبية لإحساسه بعظمة الإسلام وقيمه التي يهفو من خلالها إلى الاقتداء بمن تمثلت فيهم هذه القيم من الصحابة والأعلام.

كما كانت تعبيراً وتنفيساً عن ضيقه وتبرمه بمعاناة الأمة وترديها في مستنقع التخلف والضعف الاجتماعي والخلقي والفكري والعملي وتجرعها لغصصه، بضياع الحقوق، وفقدان الحرية، واستبداد

(١) عبدالرحمن بن عوف، علي الطنطاوي، ص١٣.

الحكام، واستغلال الطامعين، وتخريب (المستعمرين) المخربين... مع ما لها من دين عميق، وتاريخ عريق يعانيان الإقصاء والإهمال.

فكانت هذه التراجم رسائل موجهة ومعبرة عما يتمناه في نفسه من إيقاظ الأمة وتوعيتها، وإحياء دينها وقيمها، واستعادة عزها ومجدها على أسس حضارية إسلامية كتلك التي كانت لأسلاف المسلمين الأوائل.



المبحث الرابع

وجدان الطنطاوي في مقالاته

مقالات الطنطاوي:

مـن يتأمـل مقالات الطنطـاوي يلاحظ أنه إسلامـي في وجدانه، منضبـط في رؤيتـه، لا يغفل عن واقـع الإنسان، ولا يزيّـف في علاقته بنفسـه أو علاقتـه بأخيـه الإنسـان، أو بخالقه وكونـه، ولا في علاقته بالمـرأة والطبيعة والحياة... ولعـل فيما مر من نماذج دليل على اتزان وجدان الطنطاوي وسلامة عواطفه.

ومـن مظاهر هذا الوجدان الصادق المنفعل بالإسلام ما نراه في مقالاته التي واجه بها (الاحتلال)، وما تحمله من ألفاظٍ ومعانٍ مترعة بالسخط والكراهية والوعيد والتهديد.

يقـول الطنطـاوي من مقالتـه «يا أمـة الحرية» التي نشـرت سنة ١٩٣١م:

«وأنـا لا أجمجم الكلام، ولا أديره على وجوهه التي ترضون عنها. فقـد يئست حتى ما في نفسي مـكان لأمل، ولا متسع لخوف. واليائس لا يخيفـه شـيء. وإن نحن عجزنا أن نعيش أحـراراً فلن يعجزنا أن نموت أحراراً، وما بعد الذي كان يوم الأحد، أمل ولا خوف.

لقد قضي علينا أن نهبط من عليائنا، وأن نسلب حريتنا، ونفقد استقلالنا، ولكن لم يأت بعد ولن يأتي أبداً اليوم الذي نخسر فيه إيماننا وكريم خلالنا...»[١].

فهذا وجدان صادق منبعث عن دوافع ذاتية، حرّكه تسلط المحتل ومفاسده، فانطلق يعبر عن هذا الوجدان بألفاظ ساخطة، ونفس ثائرة تتخذ من الإيمان سلاحاً لها، ومن تعاليمه رائداً لمسيرها في القضاء على عدوها.

وهكذا يسير الطنطاوي في مقاله على هذا النحو بعبارات قوية، ومشاعر جياشة، تثير الهمم، وتحرك العواطف، وتصب العزم والتضحية في الأبدان، وتملأ النفوس قوة وصلابة؛ لأنها كلمات صادقة استمدت قوتها من صدق صاحبها، وإيمانه بها، وخروجها من قلبه الملتاع بجراح (المحتلين)، وجرمهم. يقول:

«لقد قاسينا منكم الظلم، وعايشنا الفقر، وشاهدنا الخراب، وأصبحت مدينتنا أطلالاً، وأهلها مشردين، ونساؤها ثاكلات، فماذا نخاف بعد هذا!؟

عندكم أشد من الرصاص؟ فقد فتحنا له صدورنا! والقنابل؟ قد أعددنا لها دورنا! هل عندنا أغلى من الأرواح؟ لقد بذلناها ثمناً للاستقلال»[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي، ج٣، ص٥.

(٢) السابق، ج٣، ص٦.

ثــم تزفــر نفس الطنطــاوي -وقد هالها ما حــدث- بكلمات تخرج وكأنها طلقــات نارية تزلزل بنيــان (المحتل) وتهــدم أحلامه الباطلة فــي توعد وتهديد، كلمــات خرجت في صياغة محكمــة، وكأنها تجارب إنسانية، وقوانين كونية تقنع العقل، ولا تقبل النقد أو الشك. يقول:

ثمن المجد دم جـدنا بـه   فانظروا كيف دفعنا الثمنا

كيــف سقينــا بدمنــا وادي ميسلــون، وجنــان الغوطــة، وبطــاح حمــاة، وحمصــ وأرجاء حلب. والأرضــ التي تسقى بالــدم لا تنبت إلا الاستقلال.

فاملــؤوا المرجة دبابــات، واقتلوا منــا المئات، واكذبــوا فانشروا ماشئتم من بلاغات، فكل ما هو آت آت.

إن الهــرة إذا حبســت وضويقــت انقلبت لبؤة، والبــركان إن سدت فوهته كان الانفجار، والشعب إذا استذل ثار، والنار ولا العار، وللشهداء عقبى الدار»[١].

وكمــا رأينا لــم يكن الطنطــاوي سلبياً ولا مخادعــاً لأمته، بل كان إيجابيــاً يقظــاً، فغــزا القلوب بكلماتــه الصادقة، فكانــت دفقات عزم صبّها في وجدان الأمة، ودفعات عزم وأمل في طريقها الطويل ضد هذا (المحتل) الغاشم الذي هال الأمة بقوته وسلاحه وتنظيمه ومخترعاته، فأفقدها التوازن وثقة النفس.

---

(١) السابق، ج٣، ص٦.

ومـن هنا حاول الطنطاوي بهذه الكلمات قتل اليأس، وإعادة الثقة بالنفس عن طريق الإيمان وبعث قوته في القلوب.

ومـن مظاهر قوة عاطفة الطنطاوي الدينيـة غيرته الشديدة على الإسـلام، حتـى إذا رأى من يغمز الدين، أومن يخـرج على منهجه ثار غضبـه، واشتعلت غيرته، وصبّ على هؤلاء مقـالات من النقد اللاذع، الـذي يدفع الشبه، ويزيـل الأباطيل، ويخرس الأقـلام بالشدة والعنف حيناً، وبالسخرية والتندر أحياناً.

من ذلك مقالته التي رد فيها على الأستاذ - أمين الخولي لتضامنه مع الباحث/ محمد أحمد خلف الله الذي تقدم برسالة عن القصص في القرآن الكريم، والتي كانت تحت إشرافه مع ما حملته من خلط وادعاء مـن أن القصص القرآني مستمد من مصادر أخرى غير عربية... وأن فيه أساطير لا أساس لها...!![1].

قـال الطنطاوي: «... مقالنا اليوم تذكير لهذا الشيخ بأنه ليس من أصحـاب العقول الكبيرة، والبحث العلمي، ليزعم أنه يكفر إذا كفر عن بينـة، ومـا له إلا أنـه رأى أديباً زل من عشرين سنـة وأي أديب لا يزل؟ فقال كلاماً مثل هذا الكلام، فملأ اسمه الدنيا وشغل الناس، فأحب أن يكون مثله، وشتان مابين الرجلين!.

(١) السابق، ج٦، ص١٨٢.

وإلا فهل ثبت له بعد البحث والتحقيق أن قصص القرآن مأخوذ من التوراة، ومن الأدب الفارسي، واليوناني؟ وأن فيه أساطير لا أساس لها؟ وهل وقعت له النسخة المخطوطة بخط مؤلف القرآن - الذي هو اللّه- إذا كان فضيلة الشيخ لا يزال يعتقد أن القرآن من عند اللّه، فعض عليها بالنواجذ؛ ليفضح المؤلف ويكشف عن سرقاته ويشفي غيظه منه!؟ أستغفر اللّه كثيراً، وتعالى عما يقوله الكافرون علواً كبيراً!.

ولندع الكلام في الدين مادمت يا مولانا الشيخ تحسب أن الخروج عليه مدنية وتقدم، وأن الأخذ به رجعية وتأخر، وأنك أعلنت الكفر، وجهرت به، واخترته والعياذ باللّه لنفسك، ولنأخذ هذا العلم، والمنطق والتاريخ!..

فهل في العلم والتاريخ شيء يؤيد ما جاء في الخبر أن الأطروحة اشتملت عليه؟ وأعلنت أنك مع المؤلف في كل حرف منه؟ وبأي دليل من أدلة العلم، وفي أي كتاب من كتب التاريخ ثبت لك ولصاحب الأطروحة أن اللّه قد قبس قرآنه من أدب فارس ويونان، ومن هذه الأساطير!؟ أستغفر اللّه، وتعالى عما يقول الكافرون علواً كبيراً!.

وإذا لم يكن القرآن كتاب اللّه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا من جهة فارس، ولا من جهة يونان، وكان من تصنيف محمد، وكان قد اقتبسه من آداب الأمم ومن أساطيرها، فكيف خفي ذلك على أسلافك من أنصار حرية الفكر، أعني حرية الكفر! من اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة!؟ وكل عدو للإسلام خصم

للقــرآن، فلم يؤلف فيه أحد، ولم يثبته، حتى جــاء تلميذك هذا فكتبه؛ لتكافئــه الدولة على كفره بدينهــا الرسمي، وطعنــه بقرآنها، بإعطائه شهادة الدكتوراه...»[١].

وهكــذا نرى أن الكاتب عند مــا يبلغ الإيمان بفكرتــه إلى الأعماق تبدو في كلامه وكأنها جزء منه، فتحصل لديه بذلك قوة جديدة تجعله يتدفـق كالسيل، فتواتيــه المعاني سهلة دون كد أو عناء، وتتسلسل لديه الأفـكار من غيــر تناقض أو اختــلاط، وتكسبه صدقاً معبــراً، وانفعالاً مؤثراً[٢].

فهــذه العبــارات التــي أفصحت بوضــوح عن وجــدان الطنطاوي المنفعــل بالإسلام، الغيور على قرآنه، الثائر على الخارجين عليه بقوة تزلــزل أركانهم، وتردهم عــن غيهم. وقد آتت هــذه المقالة جدواها؛ لأن الباحــث المتعجل ـ بعد هذه المعركة ـ حيــن طبع الرسالة في كتاب مستقــل حذف كثيراً ممــا كان موضع الاعتراض، وعمــل على ظهورها فــي وضع أقــل اعتسافــاً! وأقول: أقــل اعتسافاً؛ لأنها حملــت كثيراً من الأخطــاء التي قام بتصحيحها نفر من الفضلاء على صفحات الرسالة وغيرها...[٣].

---

(١) مجلة الرسالة، ص١٠٣٤، عدد ٧٤٢، ٧ ذي القعدة ١٣٦٦هـ، ٢٢ سبتمبر ١٩٤٧م، السنة ١٥، جـ٢.

(٢) مقدمة في النقد الأدبي، د/ على جواد الطاهر، ص١٤٥.

(٣) الأدب الإسلامــي «الطنطاوي في صحافة مصر» د/محمد رجب البيومي، ص١٦ العددان (٣٤، ٣٥).

وليست ثورة العاطفة هي الدليل على صدقها فحسب، بل قد نرى العاطفة هادئة وصادقة ومع ذلك مؤثرة؛ لصدورها عن إيمان صادق، ووجدان حي يناسب الغرض. يقول الطنطاوي:

«يا أهل مصر! اثبتوا على جهادكم فإنا جميعاً معكم، قضيتكم قضيتنا، وعدوكم عدونا، ما ضرنا أن تفرّق بيننا الحدود على الأرض، والألوان على المصور مادام يجمعنا القرآن، وتوحد بيننا الضاد، وتربطنا الآلام والآمال، وذكر الماضي وأماني المستقبل...»[١].

فهذه العبارات تعكس وجدان الطنطاوي الصادق الذي تخير للتعبير عنه هذه النبرة الهادئة، والكلمات الليّنة التي تناسب إعلان تضامنه وتضامن شعبه مع أهل مصر، ومشاركتهم الشعور والآلام، إيماناً منه بأخوة الدين ووحدة جميع المسلمين.

ويتضح وجدان الطنطاوي الإسلامي في حرصه داعية، وصاحب رسالة، على إقامة علاقة وثيقة بينه وبين جماهيره تضمن له ثقتهم فيه، واقتناعهم به، وقربه منهم، ومن هنا خلا أسلوبه من التجافي والاستعلاء والتجهم، بل يلاحظ في مقالاته أنه يبوح لمتلقيه عن مكنون نفسه؛ ليقبلوا عليه ويأنسوا به؛ لأن الإنسان يحذر من يجهله ويألف من يعرفه.

فالبوح إذن سلاح عظيم لفتح القلوب وتهيئة النفوس إذا أحسن استخدامه، وقد أجاد الطنطاوي توظيفه، فكان ببوحه عن آماله،

(١) هتاف المجد «إلى الشعب المصري». لعلي الطنطاوي. ص٨٢.

وأحلامـه، ووصفـه لآلامه وأحزانـه يقربنا إليـه، ويزيـد محبتنا فيه، وبذلك استطاع أن ينفذ إلى شغاف القلوب ويسلس قياد النفوس.

وكان مـن مظاهـر هذا الود الحنون: شعورنا معـه برفع التكاليف، وإزالـة الحواجز بيننا وبينه؛ يستشعر القارئ لمقالاته بقربه منه، حتى كأنـه يتلمسه بجواره، ويشاركه في حـواره، يسمع همساته، ويجيب على تساؤلاته.

يقـول مـن مقالـة «بيـن العلـم والأدب»: «... ودع هـذا... ولنأخذ الاختراعـات النافعة؛ لنأخذ المواصـلات مثلاً، لا شك أن العلم سهّلها وهوّنهـا؛ فقـرّب البعيد، وأراح المسافر ووفر عليـه صحته ووقته ولكن هل أسعد البشرية؟

أحيلك على «شبنكر» لترى أن البشرية قد خسرت من جرائها أكثر من الذي ربحته»[١].

ومـن مقالـة «الأدب العربي فـي مدارس العراق» قولـه: «وسأتكلم عـن كل درس من هذه الدروس بإيجاز واختصار. الإنشاء: أستأذن أولاً زملائـي الكرام في عرض هـذه الآراء؛ فلست ألقـي عليهم دروساً، ولا أزعم أن ما أقوله هو الصواب، ولكني أعرض تجاربي..»[٢].

على أن الطنطاوي قد أضاف إلى هذه القيمة التعبيرية الوجدانية

---

(١) فكر ومباحث، علي الطنطاوي، ص٢٣.

(٢) السابق، ص١٥٣.

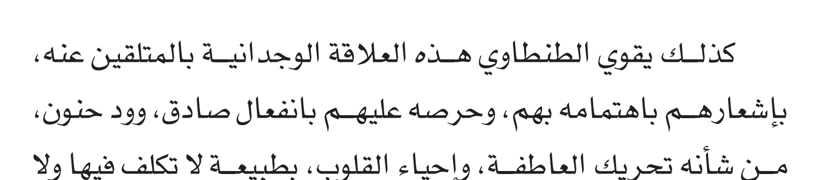
فـي حديثه الإذاعي أو المرئـي أبعاداً أخرى، تتمثل فـي حسن الإلقاء، وطريقة الأداء التي لها دور مهم في جذب النفوس، وارتباط القلوب.

ولذلـك يقـول الدكتـور أحمـد بسـام ساعـي: «ولا أشـك فـي أن (بساطـة) الطنطاوي موهبـة أحسن استخدامهـا، وتمكن من تثقيفها معـاً؛ فلم تعـد لهجتـه التحديثية القريبة إلـى النفس، وحـركات يديه التوضيحيـة المعبّـرة، وتنقلات رأسـه بين ارتفـاع وانخفاض، وتقدم، وتأخـر، أو تحريكه لنظارتيه بيـن الحين والآخر صعوداً وهبوطاً، فيرى إلينـا من فوقهما حيناً، وإلـى الأوراق بين يديه من خلالهما حيناً آخر، ثـم الجـو الواقعي الذي يحيط به نفسه، وهو يتوجـه ـ أحياناً ـ بالحديث إلـى المصور أمامـه، أو يفاجئنا بالتفاتة سريعة إلـى ساعته خشية أن يدركـه الوقت، أو يمد يـده إلى آلة التسجيل التي وضعها بجانبه؛ ليقلب شريطها، لم تعد كل هذه الأمور الجزئية الصغيرة مجتمعة، مما يخطط له الطنطاوي قبل دخوله (المنفرد الإذاعي) بل أصبحت جزءاً عضوياً مـن موهبتـه التحديثيـة على مر الزمـن، يبعدنا به عن الجـو الإذاعي الرسمـي (المتأنق)؛ ليشعرنا وكأننا معه في جلسة منزلية خاصة ترفع فيها كل قواعد التكلف، والتأنق و«الرسميات».

لقد استطاع أن يقيم توازناً رائعاً في استعماله لكل هذه الجزئيات التي تسم شخصيته التحديثية بالبساطة والواقعية الآسرتين»[١].

---

(١) «الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد»، د/ أحمد بسام ساعي، ص١٤٢.



كذلـك يقوي الطنطاوي هـذه العلاقة الوجدانيـة بالمتلقين عنه، بإشعارهـم باهتمامه بهم، وحرصه عليهـم بانفعال صادق، وود حنون، مـن شأنه تحريك العاطفـة، وإحياء القلوب، بطبيعـة لا تكلف فيها ولا اصطناع.

يقول من مقالة «يا ابنتي»: «هذه نصيحتي إليك يا ابنتي، وهذا هو الحق فلا تسمعي غيره، واعلمي أن بيدك أنت لا بأيدينا معشر الرجال، بيـدك مفتاح بـاب الإصلاح، فـإذا شئـت أصلحت نفسـك، وأصلحت بصلاحك الأمة كلها...»(١).

ومن مقالة «نداء إلى أدباء مصر» يقول: «... فخبروني ماذا يصنع هـذا الكتاب بنفوس الناشئة إن هم قـرؤوه؟ أي قدوة لهـم في الحياة تكـون لهم فيه؟ أي نمط من العيش يحبـب إليهم؟ أما والله إنه لخطب داهـم.. ليس خطب هذا الكتاب وحده، فإن له لأمثـالاً، وإنا من أمثاله لكثير كثير»(٢).

ويضاف إلـى هذا قدرة الطنطاوي في كثير من مقالاته على تهيئة جو مـن الارتباط العاطفي بمتلقيه من خـلال الافتتاحيات التي يستهل بهـا المقـال؛ ليقدم إلى متلقيه مـا يستأنس به، ويزيـل وحشته، ويتهيأ بـه لاستقبال موضوعه بذكر حادثة خاصة وقعـت له، أو خبر سمعه، أو ملاحظـة لاحظها في أثناء عمله... متوخياً فيهـا ارتباطها بالموضوع،

---

(١) صور وخواطر، ص١٥٥.

(٢) صور وخواطر، ص١٥٨.

وتلوينهـا بلون نفسه في موضوعه، من مزاح، أو سخرية، أو استبشار... إلخ.

وهذا لا يكون إلا من وحي الذوق، وإلهام الطبع اليقظ[١].

مـن ذلك قوله فـي بداية مقالـة «استعدوا للحـرب»: «أحلف بالله ليصدق القـراء أن ما أكتبه اليوم قد وقع البارحة، وأنه ليس خيالة من خيالات الأدباء...»[٢].

وقوله فـي بداية مقالة «الموضة»: «كنت أعـددت لهذا العدد كلمة غير هـذه، وحملتها إلى الجريـدة فلقيني عند باب العمـارة صديق لي مـن الموظفين، له مرتـب جيد، وزوجـة متعلمة بنت أكابـر، وقال لي: أستحلفك بالله أن تسمع ما أقول لك وتنشره غداً...»[٣].

فهذه المقدمات الجاذبة من شأنها تهيئة العقول، وتشويق النفوس؛ لاستكمال الموضوع، والانتباه لجزئياته، وترقب نهايته.

وهـذه الأمور كلهـا تمنح الموضوع روحاً محمـودة، وعواطف حية، تولد فـي النفوس الانتبـاه، والقبـول، والاستجابة، والإعجـاب، الذي يحتاجه كل داعية صادق في إصابة هدفه وتحقيق غرضه.

وإذا كان مـن التعـرف على وجدان الأديب التعـرف على من ينقل عنـه، أو يقتبس منـه، فإن وجدان الطنطاوي متعلـق بالإسلام، منطلق

---

(١) تذكرة الدعاة، البهي الخولي، ص٣٨١.

(٢) مقالات في كلمات، ج ٢، ص١٢٩.

(٣) السابق، ج ٢، ص١٦٠.

من منهجه؛ لذلك كان يطالعنا في مقالاته بين الحين والحين مقتبساً، أو مستشهداً بآية، أو حديث، وقد يجتزئ من الآية، أو من الحديث بما يؤكد معناه ويقويه.

فمن استشهاده من القرآن الكريم قوله: «أليس عجيباً أن يقول الله في كتابه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[١] ثم يكون في المؤمنين من هو ذليل في نفسه!؟»[٢].

ومن استشهاده بالحديث القدسي قوله: «وروي - أيضاً - أن رسول الله ﷺ قال في الحديث القدسي: «ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا (أي مات من هو عزيز عليه) ثم احتسبه (صبر ورضي بالقضاء) إلا الجنة»[٣]. فيا أيها المصابون المتألمون! هذه بشارة من رسول الله ﷺ لكم، فاصبروا حسبةً؛ لتكون لكم الجنة قبل أن تصبروا سلواً ونسياناً»[٤].

ومن اقتباسه من القرآن الكريم قوله: «لقد كان أعداؤنا يخربون بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين؛ فرحنا نخرب طرقنا بأيدينا، وأيدي الإنكليز ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[٥].

(١) سورة المنافقون، من الآية ٨.

(٢) من مقالة المثل الأعلى للشباب، علي الطنطاوي، ص٦٠.

(٣) صحيح البخاري «كتاب الجامع الصحيح المختصر» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ج٥، ص٢٣٦١، حديث رقم ٦٠٦٠ تحقيق د/ مصطفى ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، دار ابن كثير، دمشق.

(٤) فصول إسلامية «الصبر» علي الطنطاوي، ص٢٢٥.

(٥) من مقالة المدينة، من نفحات الحرم، علي الطنطاوي، ص١٢٦، والآية من سورة الحشر، آية: ٢.

ومـن اقتباسـه مـن الحديث قولـه: «... فصـار إلى بلـد يرى فيه حيثمـا تلفـت أسـراب الحسان المثيـرات كاسيـات عاريـات مائلات مميلات...»[١].

كمـا يلاحظ توظيف الطنطاوي للتاريـخ الإسلامي واستلهامه من حيـاة أعلامه، ما يؤكـد فكرته، ويحمل على الاقتنـاع برؤيته، من ذلك قولـه: «... ألم يكن الصحابة رهباناً بالليل جناً في النهار!؟ ألم يقتنوا الأمـوال، ويشتغلوا بالتجارات، ويقبلوا علـى الصناعات، ألم يكن كبار العلماء تجاراً، وأصحاب أعمال ضخمة!. أبو حنيفة كان له بيت تجاري كبيـر يديره بنفسه، وابن المبـارك كان يستورد البضائع من خراسان، والليـث بـن سعد كانت وارداته في السنة عشريـن ألف دينار من كسبه وعملـه، لا من احتـراف الوعظ، وتقبيل اليـد، وإطالة اللحيـة، وإمالة العنق!»[٢].

وهذا بلا شك يعكس انفعال وجدان الطنطاوي بالإسلام، وصدوره عنه، وارتباطه به في أفكاره، وعواطفه، وتعبيراته.

ولـكل ذلك رأينا وجدان الطنطاوي صحيحـاً سليماً متزناً بميزان الإسلام الذي جنبه انحراف الرؤيـة، وشطط الخيال، وتدني الأسلوب فـي كل ما كتبـه وصدر عنه، إلا أنه قليلاً ما رأينـاه ـ كأي إنسان خاصة

---

(١) مـع النـاس «رسالة» علي الطنطاوي ص١٦٦. والحديث في صحيـح مسلم، جـ٣، ص١٦٨١، رقم الحديث ٢١٢٨.

(٢) فصول إسلامية «كتاب في الدين الإسلامي» علي الطنطاوي، ص٢٤٣، ٢٤٤.

في شبابه وهي مرحلة تقلب العواطف ـ عندما يتعرض لظروف خاصة، وعوارض طارئة تؤثر في وجدانه، ويستسلم لها؛ فتبدو رؤيته لذلك بعيدة عن اتزانه وانضباطه المعهود.

من ذلك نبرة السخط واليأس في مقالة «زفرة أخرى» التي منها قوله: «يا رحمة الله على الأيام التي كنت فيها غراً مغفّلاً، أصدق كل خدّاع كذّاب، يزعم أن في الدنيا فضيلة وخلقاً، وأن قيمة الإنسان بما يملك منهما.

لقد خدعني المعلمون والأدباء فلماذا أخدع تلاميذي؟ لماذا لا أقول لهم: إن المكر والكذب، والنفاق هي في شرع الحياة فضائل، فأعدوا قواكم لإصلاح المعوج من شرائعها، أو فانزلوا على حكمها، فخاطبوهم بلسانها وادخلوا من بابها؟»[١].

ويستمر بتلك الرؤية المتشائمة إلى أن يقول: «وكنت أرى الحب أساس الحياة، عليه قام الكون، وبه استمر الوجود، وكنت أؤمن به، فغدوت لا أؤمن إلا بالبغض، وصرت أحب أن أبغض، وأبغض أن أحب...»[٢].

فهذه العبارات التي تحمل السخط واليأس تعكس مدى انفعال الطنطاوي بعوارض طارئة أفقدته توازنه، وشوهت رؤيته، فبدت الحياة في عينيه مظلمة لا خير فيها ولا فضيلة...

---

(١) من حديث النفس «زفرة أخرى» علي الطنطاوي، ص٩٢.

(٢) السابق، ص٩٢.

وهــذه الرؤيــة بعيدة عــن الإسلام الــذي يحارب اليأســ، ويبغض السخط والقنوط، ويدعو إلى الأمل في الله والرضا بحكمه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)].

على أن هذه النظرة كانت غريبة على الطنطاوي، وهذا الإحساس طــارئ عليه؛ ولعله كان انعكاســاً لحادث أثّر في نفســه، أو أثر لمذهب سرعــان مــا تخلص منه، بل دعــا الكتاب إلى نبــذه والتخلص منه بعد ذلــك، فقال: «حسـبنــا بكاءً، ويأسًا، ورثاءً للماضــي، وفزعاً مما يخبئ لنــا المســتقبل! كفى تبرماً بالحيــاة، وشــكــوى منها، ودعــونا من أدب «لا مارتين وموسيه»[(٢)].

ولهــذا فقلما نجد الطنطاوي في وجدانــه مستجيباً لمثير خارجي كهــذا، فتختلــط به رؤيته ويبتعد عــن وجهته. كقولــه: «... لما كنت في العــراق كنــت أرى بعضــ العراقييــن يظهــرون الكراهيــة للمدرسيــن السوريين وينفسون عليهم رواتبهم التي يأخذونها...»[(٣)].

هذا الحدث أثر فــي وجدانه فرأيناه بسببه يخرج عن إطاره الذي عرفنــاه به، فــي دعوته للوحــدة، وثورته على الحدود والقيــود الدولية؛ حيث قال:

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٣٩.

(٢) ذكريات علي الطنطاوي «الأديب القومي»، ج٢، ص٢٩١.

(٣) في سبيل الإصلاح من مقالة «وكم في مصر من بنات أميات»، ص٤٦.

«... فعلى كل قطر ألا يدع في أبنائه فقيراً، وألا يترك فيه رجلاً بلا عمل، وأن يمنع الغرباء عنه من مزاحمة أهله في زراعته وتجارته وصناعته، حتى إذا اشتغلوا جميعاً، وبذلوا قواهم كلها، وبقي فيه بعد ذلك فراغ لأيد غير أيديهم، وأموال غير أموالهم استعانوا بأبناء الأقطار العربية الأخرى، ولم يفتحوا لهم الباب إلا بمقدار الحاجة، أما أن يجيء السوري ليعمل في مصر، ويجيء المصري ليشتغل في الشام، ويترك أهل البلد بلا مال ولا عمل، فتفسد البطالة أخلاقهم، ويذل الفقر نفوسهم، ويعلمهم هذا وذاك كره أخيهم العربي، فليس من مصلحة العرب أن يكون!. هذا رأيي أعلنه بلا جمجمة ولا مداراة»[1].

فإذا كان هذا من مصلحة العرب فمتى يشعر المسلم إذاً بوحدة أمته الإسلامية وهو لا يستطيع أن ينتقل بين أقطارها أو ينال من حلال خيراتها، وقد جعل الله من الانتقال والهجرة ما يكون سعة للفقير، ونجاة للضعيف!؟

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾[2].

وإلا فالمشكلة لم تعد في الحدود فقط، وإنما في تفاوت الأجور، واختلاف قيمة «العملات» تلك التي دعت إلى الإقبال والتزاحم على بعض البلدان، وتولد السخط والضجر في بلدان أخرى، ولو عولج هذا،

---

(١) السابق، ص٤٧.

(٢) سورة النساء من الآية ١٠٠.

فتقاربت الأجور، واتفقت العملات ما طمع الناس في الانتقال والترحال إلا للضرورات؛ لأن الله فطر الناس على حب أوطانهم وأماكنهم التي نشؤوا فيها، وحينها لو أزيلت الحدود لهدأت النفوس، وصارت أقوى في تضامن الأمة ووحدتها؛ إذ يشعر المسلم حقيقة أن وطنه هو العالم الإسلامي الواسع لا قطره المحدود.

أما في ظل الحدود وتفاوت الأجور ومنع الغرباء، فإن المشكلة تتفاقم والشقة تتباعد، فتنمو الفرقة، وتظهر الأنانية، وتبدو السلبية، وعدم الانتماء.

والأديب مطالب بأن تتسع نظرته في الإصلاح إلى آفاق إسلامية بعيدة؛ ليدفع الناس إلى التطلع إليها والسعي نحو تحقيقها، لا أن يجهد نفسه في ترميم بناء متهالك يوشك على الانهيار!

ولعل الذي دفع الطنطاوي إلى هذه الرؤية استسلام وجدانه لهذا العارض السابق الذي غير وجهته، وبدت من خلاله نظرته؛ وبهذا تتضح خطورة استسلام الأديب للعوارض الطارئة التي تصبغ نفسه بصبغة يلام عليها.

وبعيداً عن هذه الهنات فإن عاطفة الطنطاوي القوية، ووجدانه الصادق قد أضفى على منهجه الاعتدال، وعلى ألفاظه وصوره الحيوية والقوة والاتزان؛ حيث إن وجدانه منفعل بالإسلام، متزن بقيمه وتعاليمه، مما أكسبه إقناعاً وثقة بين جماهيره الكثيرة؛ ولذلك كانت كلمته تستمد قوتها من صدقها، وإيمانه بها.

يقـول الأستـاذ / سيد قطب – رحمـه الله: «إن الكلمة لتنبعث ميتة وتصل هامدة مهما تكن طنانة رنانة متحمسة إذا هي لم تنبعث من قلب يؤمن بها، ولن يؤمن إنسان بما يقول حقاً إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لمـا يقول، وتجسيماً واقعياً لما ينطق، عندئذٍ يؤمن الناس، ويثق الناس ولـو لم يكن في تلك الكلمة طنين ولا بريـق... إنها حينئذ تستمد قوتها مـن واقعها لا من رنينها، وتستمد جمالهـا من صدقها لا من بريقها... إنها تستحيل يومئذ دفعة حياة؛ لأنها منبثقة من حياة»[1].

فـإذا كان الطنطـاوي لا يتكلـم إلا بمـا يعتقـده بانفعـال صادق، ووجـدان حي، بعيداً عن الزيف والادعاء والتمويه حتى كان في أحاديثه الإذاعية «يقص الحكاية الطريفـة فيضحك لها ببراءة الأطفال، وكان يسرد الحكاية الحزينـة، فيبكي لها بكاء الخاشعين»[2]، علمنا مدى ما كان لكلمته من أثر في النفوس وسيطرة على القلوب.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج١، ص٦٨، الطبعة ١١. دار الشروق ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

(٢) هاجـر أم المسلمين، من مقالة السابقون إلى الدار الآخرة الشيخ علي الطنطاوي في ذمة الله، للأستـاذ/ أنور عبد المجيد الجبرتي، صـ١٧، العدد٥٠، السنة العاشرة، ١٥ جمادى الأولى ٢٦ أغسطس ١٩٩٩م.

الفصل الرابع

مظاهر الاتجاه الإسلامي
في خيال الطنطاوي

اختلط مفهوم الخيال عنـد أصحاب المذاهب المختلفة[1]، ولكنه مـن المنظـور الإسلامـي وبعبارة موجـزة مجملـة كما يقـول أستاذنا الدكتـور/ إبراهيـم عوضين: «هو القـوة الفنية التي يحـوّل الأديب بها المعانـي صـورًا يعبر عنها بما يملـك من ألفاظ وتراكيـب، وصيغ فنية مشحونـة بالأحاسيس والمشاعر والإيحاءات التي تلائم المتلقي، والتي تعبر في الوقت نفسه عما يجده هذا الأديب»[2].

وعلى ذلك «فالخيال وسيلة فنية يتمكن بها الأديب من رؤية الجوانب المثيـرة فـي الموقف أو الحـدث، والوقوف على ما تحدثـه تلك الإثارة الانفعاليـة في نفسه، وما تولّد عنها مـن عواطف... كما يتمكن بها من إعـادة ترتيـب ما رآه ووقف عليه، ليهيئه في الصـورة التي تحدث الأثر نفسه في المتلقي أو تنقل إليه صورة مما وجده الأديب المبدع»[3].

(١) النقد الأدبي الحديث، د/ محمد غنيمي هلال، ص ٣٨٨ وما بعدها، ط دار نهضة مصر، ١٩٩٦.

(٢) في النقد الأدبي الإسلامي، د/ إبراهيم عوضين، ص٢٥٧.

(٣) السابق، ص٢٦٦.

ولا يقوم هذا الخيال بدوره الفطري الصحيح، ولا يؤدي وظيفته الفنية السديدة إلا إذا كان يلبي دواعي الفطرة القائمة على مزج عنصري الإنسان»[١].

وأما عن خيال الطنطاوي ودوره في أدبه، فيبدو بمظهره الإسلامي من خلال المباحث الأربعة الآتية:

المبحث الأول: خيال الطنطاوي في خطبه.

المبحث الثاني: خيال الطنطاوي في قصصه.

المبحث الثالث: خيال الطنطاوي في تراجمه.

المبحث الرابع: خيال الطنطاوي في مقالاته.

---

(١) السابق، ص٢٨٨.

المبحث الأول

خيال الطنطاوي في خطبه

الخيال الطنطاوي في خطب الطنطاوي

إن مـن يتأمل خطب الطنطاوي يلاحظ أنه استخدم الخيال وسيلة فنيـة تجسد المعانـي وتبرز الخواطر، وتكشف عـن انفعالاته وعواطفه التـي تعتلج في صدره، والتـي يريد نقلها إلى الآخريـن وإشعارهم بها؛ لتتضح فـي أذهانهم على حقيقتها القائمة فـي نفسه، وكأنما يريد بها «إثبات الغرض المقصود في نفس السامـع بالتخييل والتصوير، حتى يكاد ينظر إليه عيانا»[١].

من ذلك هذه الصورة التي قالها «في مساندة الجزائر» التي نقلت أحاسيســه تجـاه (المحتل) البغيض، وجسدته بوحي الألفـاظ وأبعاد الصورة، قال الطنطاوي:

«... أعرض عليكم لوحة صغيرة من لوحات الثورة... كنت يوما في بسيمة في أواخر الثورة، وبسيمة جنة من الجنان في وادي بردى... وكان

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير ٧٨/١، ط المكتبة العصرية، بيروت.

فيها البطل عزالدين الجزائري... وكان في عدد قليل من المجاهدين، فكانت تخرج له الحملة الضخمة من الجنود، معها السلاح والعتاد فيربط لهم فم الوادي، فيصيد جنودها ويهزمها ويردها، فتعدو فرنسا على القرى الآمنة تنتقم لعجزها منها، فتسوق البرآء من أهلها إلى الموت، وتذيقهم العذاب قبله ألوانا وتهدم البيوت وتنهب الأموال»(١).

يلاحظ هنا أن الطنطاوي في خياله وتصويره متوجه بتوجه الإسلام وقيمه؛ حيث لم يزيّف في تصويره على مستمعيه بتهويل وتضخيم قوة الأعداء حتى لا يدخل في نفوسهم اليأس والقنوط، كما لم يهون من شأنهم حتى لا يدفعهم إلى التراخي والكسل، وإنما صور الجنود الفرنسيين في صورتين:

الأولى: صورتهم الضعيفة الهزيلة التي لم تمكنهم من الثبات أمام قلة من المجاهدين؛ ليبث بتلك الصورة الأمل في القلوب والرجاء في النفوس بتحقيق النصر عليهم.

والصورة الأخرى: صورة الجنود الفرنسيين في حمقهم ونذالتهم وقوتهم المتغطرسة والمتجبرة في مواجهة العزل والمساكين؛ ليشحن بهذه الصور النفوس بالكراهية والسخط الذي يدفعها للحركة والعمل والثورة والانتقام.

وقد استطاع الطنطاوي من خلال هذه الألفاظ والتراكيب في تلك الصورة أن يكشف لنا عن انفعال نفسه، وينقل إلينا أحاسيسه

---

(١) هتاف المجد، علي الطنطاوي، ص٢١٩.

تجـاه هـؤلاء (المحتلين). فرأينـا بهـذا التصوير تجسيـدًا حيًّا لتلك المأسـاة، واستحضار الماضي المؤسف الـذي يمازجه الأمل، ويعانقه الرجاء.

وقد اعتمد الطنطاوي في تعميق صورته على المفارقة بين أمرين: بيـن وادي بسيمة وهو جنة من الجنـان، وما توحيه كلمة جنة من بهجة وحيـاة وخضرة، وبين وادي بسيمة بعد العـدوان وما أصابه من خراب ودمار ونهب وقتـل...، وكذا بين شجاعة المجاهديـن وبأسهم الشديد، وضعف الفرنسيين أمام المجاهدين وبطولتهم على المساكين.

كمـا يلاحـظ أن الطنطاوي توجـه بهذه الصورة إلـى شتى منافذ الإدراك لـدى الإنسـان لتشتـرك كل حواسه في التعـرف على صورته؛ ولتنتقل إليه حية كاملة كما استقرت في وجدانه.

فكلمـة «جنة» تحرك الخيـال إلى لون الخضرة والـزروع والروائح والعطور، ومناظر الأزهار، وأشكال الغصون والثمار.

وفـي تعبيره عـن كمـال سيطـرة المجاهدين ومـدى تمكنهم من الـوادي بقولـه: «فيربط فم الـوادي» وما يحركه فـي الخيال من حركة الضم والربط الذي يوحي بكمال السيطرة وشدة التمكن.

وكلمـة «فتسـوق البرآء من أهلهـا إلى الموت» كلمـة تسوق تجسيد للحركـة الشديـدة فـي مدافعة البـرآء، والعنـف في دفعهم فـي إهانة وإذلال، كما تساق الماشية بالزجر والضرب.

وكلمة البرآء، تعكس مدى الإحساس بالظلم والشعور بالألم، كما تحرك الشفقة عليهم «خاصة أنهم من النساء والأطفال» والسخط على أعدائهم الجبناء. وإسناد السوق إلى الموت فيه تشخيص للموت في صورة وحش كاسر تساق ضحيته إليه في عنف وقوة لا مهرب منه ولا حيلة معه.

وكلمة «تذيقهم العذاب قبله ألوانا» تحرك الخيال إلى طعم العذاب الذي يتجرعونه، وتغص مراراته في حلوقهم قبل أن ينزل على أجسادهم، وكلمة ـ ألوانا ـ توحي بشدة وقع العذاب وتنوع صور التعذيب الجسدي والنفسي والروحي.

وكلمة «تهدم البيوت وتنهب الأموال» تحرك الخيال إلى صورة الهدم البشعة وسرعة الحركة في الاستيلاء والسرقة، كما تعكس مدى الاستباحة والخراب والتشرد والضياع، الدال على التوحش والتجبر.

وجاءت الأفعال مضارعة، مع أنها وصف لحدث مضى؛ لتدل على استحضار الصورة واستمرارها بكل جوانبها وظلالها.

فهذه الصورة الكلية قد عكست صلابة المجاهدين أولاً، وكشفت عن الطبيعة الأخلاقية والنفسية للفرنسيين كما هي قائمة في نفس الطنطاوي ثانيًا.

وللجزائريين بعد ذلك صورة قائمة في نفسه تبعث على الأمل يقول: «لكن الجزائر اليوم أوعى منا يومئذ، لقد تقدم الزمان. إن الجزائر تقف صفا واحدا...»[1].

---

(١) هتاف المجد. علي الطنطاوي، ص٢٢٠.

فهـذه الصـورة عكسـت إحساس الطنطـاوي وإيمانـه بترابـط الجزائريين ووعيهم وتماسكهم؛ ليؤكد بهذا على أن الجزائر اليوم تستنفد كل ما في طاقتها، وتسعى في ترابط لخدمة قضيتها، فهي لذلك جديرة بالمساعدة وتستحق المعاونة، فهي ليست مفككة ميتة الإرادة، ولا متكاسلة متراخية؛ ليقطع بهذه الصورة الطريق على من يصرف العبء عن نفسه ويلقي بالتبعة عليها.

ويلاحظ تعانق الصور الأدبية مع الصور المجازية في ارتباط قوي مؤثر، يحمل في تلافيفه إيحاءات تهز النفس وتثير الخواطر، وتجسد المعاني؛ ليتحقق بذلك أعلى قدر من الإثارة والإقناع؛ لأن الأساليب تقدر بمقدار ما توقظ وتثير وتحرك، حتى إن أقواها ما ينقلنا إلى حالة نحس فيها أحاسيس جديدة ونعيش بها أجواء جديدة»[١].

وعلى ذلك فقد وظّف الطنطاوي الخيال توظيفا إسلاميا في تقريب المعاني البعيدة، وإبراز العواطف والأحاسيس التي تحرك النفس وتوقظ الحس بصورة خلابة، متسقة العناصر، مستمدة من الحقيقة الذي يجمّلها الخيال ويعمّق الإحساس بها، بعيدا عن الغموض والإسفاف، وصنع الأساطير والأوهام.



---

(١) التصوير البياني، دراسة تحليلية لمسائل البيان، د/محمد أبو موسى، ص٣٥٤، ط٢، دار التضامن، القاهرة ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.

المبحث الثاني

خيال الطنطاوي في قصصه

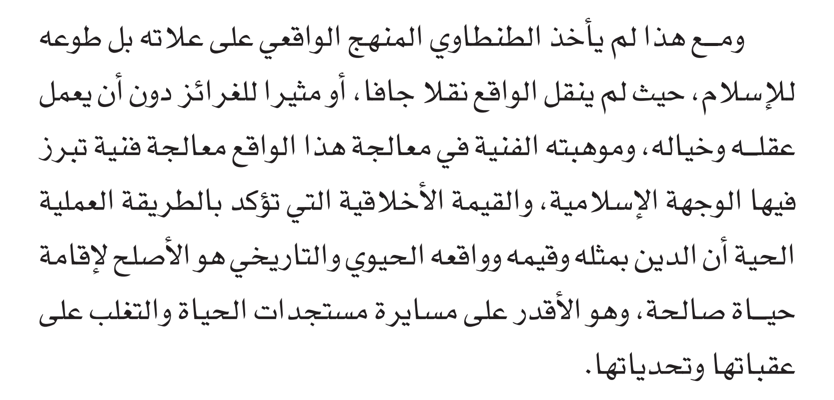
الخيال في قصص الطنطاوي:

الملاحظ على خيال الطنطاوي في قصصه أنه خيال إسلامي وثاب، متزن باتزان الإسلام ومنضبط بقيمه؛ حيث كان بعيدا فيه عن الشطحات والتهويمات التي تغرق الإنسان في أوهام بعيدة عن الحق والواقع، وبعيدا فيه عن الخلط والتشويش والخداع، ومتجنبا فيه ما يثير الغرائز ويشعلها بتصويرات شاذة ومنحرفة.

وإنما نراه استخدم الخيال وسيلة كشف وتشويق، أو عرض وتصوير لوقائع الأحداث والربط بينها بصورة تجعلها تقع في نفس المتلقي كما وقعت في نفسه.

ومن هنا رأيناه في قصصه التاريخية، قد استمد مادتها من التاريخ، وأمدها بالخيال المعتدل في تنسيق وترابط رائع، وعرض وتشويق جذاب، فبث فيها بذلك الحركة والحياة.

وفي قصصه الاجتماعية، نراه اتخذ من الواقع مرجعا له يستمد منه موضوعه، فقصصه إما أن تكون عن واقع اجتماعي حدث، أو يمكن حدوثه في الواقع.



ومـع هذا لم يأخذ الطنطاوي المنهج الواقعي على علاته بل طوعه للإسلام، حيث لم ينقل الواقع نقلا جافا، أو مثيرا للغرائز دون أن يعمل عقلـه وخياله، وموهبته الفنية في معالجة هذا الواقع معالجة فنية تبرز فيها الوجهة الإسلامية، والقيمة الأخلاقية التي تؤكد بالطريقة العملية الحية أن الدين بمثله وقيمه وواقعه الحيوي والتاريخي هو الأصلح لإقامة حيـاة صالحة، وهو الأقدر على مسايرة مستجدات الحياة والتغلب على عقباتها وتحدياتها.

فمـن مظاهر اعتدال خيال الطنطـاوي واتساقه في توازن مع العقل لاكتمال الصورة المقصودة، اصطناعه الحيلة في قصة «قضية سمرقند» التـي تمثلت في اصطـدام السمرقندي بالمسلـم الدمشقي في المسجد ليدور بينهما هذا الحوار الكاشف على نحو ما جاء في القصة من وصف لأميـر المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعرض مزاياه، وبعض أخباره التـي استقاها من مطالعة التاريخ ووظفها هنا في حوار شائق على لسان الدمشقي ردا على أسئلة السمرقندي وتطلعه؛ لتتضح الصورة التي كانت لأمير المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والتي يريد بعثها فينا من جديد.

وقد أحسن الطنطاوي بخياله في إيجاد هذه الشخصيات وتوظيفها توظيفـا يخدم هدفـه في عرض عظمـة المسلمين دون شعـور بإقحام لوجودهم، أو قلق أو خروج عن طبيعة القصة وأحداثها.

وفي قصة ـ تاج كسرى ـ نرى دور الخيال الإسلامي واضحا في كشف ما تمـوج به نفس الطنطاوي مـن أحاسيس وانفعـالات تجاه الأحداث؛ ليعمق إحساسنا بها من خلال شخصياته وعواطفهم. قال:

«ورجع سراقة وقد اجتمعت عليه المتناقضات من الأفكار والعواطف، وهاج في نفسه الطمع والخوف، والأمل واليأس، فجعل يقهقه في هذه البادية، ويصرخ كمن به جنة، ولم لا يجن!؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى ففاته ما كان يأمل، وقد فتحت فاها لتبتلعه الأرض فنجا، ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد، وخرق النار، وخوض البحار.

ماذا!؟ أيعدني محمد سواري كسرى، كسرى شاهنشاه ملك الملوك.. وهو يقطع الصحراء هاربا من قومه، متخفيا في غار ليس معه إلا رجل واحد؟»[1].

فهذه الصورة أظهرت لنا مدى الاضطراب الداخلي والحيرة النفسية لسراقة رضي الله عنه وتردد هذه النفس بين الطمع والخوف، والأمل واليأس.

كما عكست صورة وجهه في تعجبه ودهشته، وأسمعتنا صوته في قهقهته وصراخه، وأبانت لنا عن حركة فم الأرض في ابتلاعه المماثلة لحركة فم الجائع في التهام طعامه.

وأظهرت لنا مدى صعوبة تصور صدق هذا الوعد في ذهن سراقة، فضلا عن تحققه وحصوله في ظل هذا الواقع الذي يراه.

وبهذا يتضح دور الخيال الإسلامي في كشف مكنون النفوس وإدراك أبعاد الأحداث وإحيائها.

---

(١) قصص من التاريخ، علي الطنطاوي، ص٢٢٤، ٢٢٥.

وخيــال الطنطــاوي فــي قصصــ الأطفال خيــال إسلامــي يربط الأحداث ويعرضها عرضا جذابا مشوقا بعيدا عن الخرافات وما يفسد العقول من حكايات الجن والعفاريت.

والخيــال فيها قائــم على إبراز قيمة الخيــر وتجميله وتقبيح الشر وتجريمــه. وهي مستمدة من التاريخ، أعمــل فيها فكره وخياله؛ لتخرج في هيئة فنية دون خــروج على أصلها التاريخي، وبذلك كان معتدلا في خيالــه لا يجنح إلى الحد الذي يخرج به عــن الإقناع إلى الشك بل كان حريصا على تأكيد واقعيتهــا وصدقها لغة وشخصيات، وزمانا ومكانا. كمــا كان قريبــا في تصويــره ليتناسب مــع إدراك الطفــل؛ ولذلك كثر اعتمــاده على الصــور الأدبيــة ذات الألفاظ المثيــرة للمعاني الحسية؛ لصعوبة إدراك الطفل للمعاني المجازية التي تحاشاها، وإن أتى بشيء منها فسره بالهامش.

مــن ذلك قولــه حكاية عــن الأخ الصغير: «رجعنا مــن تجارة لنا، فتظاهر بالورع، وقسم المــال بيني وبينه، ولكنه أبقى مالي معه، يزعم أنــه يحفظه لــي، وواطأ جماعة من اللصوص، فطرقونا ليلا، وهجموا علينا ذبحا وجرحا، ثم هربوا وهرب معهم وتركني ملقى مع الأموات لا مال لي ولا ظهر»[١].

فيشير في الهامش إلى أن المقصود بالظهر: الدابة.

---

(١) وزارة بعنقود عنب، علي الطنطاوي، ص٣٤،٣٥.

وفــي قصصــ الطنطــاوي الاجتماعي يبرز دور الخيــال في كشف انفعــالات النفوســ ومشاعرها اعتمــادا على التصويــر والإيحاء الذي يسهم في رسم ملامح الشخصيات وأبعاد الأحداث.

من ذلك هذه الصورة في قصة «بنات العرب في إسرائيل» لموقف الفتــاة في مدافعتهــا اليهود وعجزها عن ذلك بما لهــا من مرارة وألم وحرقــة عكستهــا دلالات الألفاظ بالحركــة واللون والصــوت والإيقاع. يقول الطنطاوي حكاية عنها:

«قالــت: وجعلــت أعــدو حافية وقد سقــط الحذاء مــن رجلي على التراب والشوك حتى لحقوا بي وأعادوني.

ورجعــت أدافــع فأحسســت غــرز إبرة في يــدي ثم لم أعــد أشعر بشيء!.

وسكتــت لحظة؛ وكادت من الحيــاء يدخل بعضها في بعض، وصار وجههــا بلون الحمرة، ثــم تكلمت بصوت خافت كأنــه آهات مكتومة لم أتبينها حتى دنوت منها، ولفحت أنفاسها الحرى وجهي»[١].

فهــذه لوحة تصويرية غــزت كل منافــذ الإدراك الحسية للمتلقي؛ لتنتقــل حيــة إلى وجدانه، وتقع مــن نفسه موقعها فــي نفس الأديب في انفعاله وإحساسه بها.

---

(١) قصص من الحياة، علي الطنطاوي، ص٢٥.

فكلمــة «أعدو» تجسد سرعة الحركة بلفظها وإيقاعها قبل مدلولها ومعناها، لما في اللفظة من خفة وجريان على اللسان حيث يتبع السكون الحركة مباشرة.

وكلمــة «حافية» تؤكد حرصها علــى هذه السرعة؛ حيث تكون أخف وأسرع بعيدا عن إعاقة الحذاء وثقله.

وكلمة «على التراب والشوك» تعكس صلابة هذه الفتاة، وإصرارها على الهرب، وتحملها في سبيله الألم.

و«حتــى لحقــوا بي» تفيد «حتى» الجهد والتعب مــن جانبهم، فلم تكن غاية سهلة. و«لحقوا بي» تفيد كثرتهم واستهدافهم لها مما يزيد من مشقتها وخوفها، فليس من يلحق بها واحد أو اثنان يسهل الخلاص منهما.

وكلمــة «ورجعت أدافع» تدل كلمة «رجعــت» بإيقاعها وجرسها قبل مدلولهــا على الثقل وصعوبة الرجوع إلى المدافعة ثانيا بعد فقد الجهد في المدافعة الأولى. كما تعكس استماتتها في الدفاع المرة تلو المرة.

وإيقــاع كلمة «رجعت» نفسه وتتابع الحــركات وحشرجة الجيم في الفــم أثناء النطق يعكســ ثقل هذه اللفظة في النطــق[١] بالإضافة إلى الثقل الملقى على النفس من معناها هنا في الرجوع إلى شيء مكروه.

وجملــة «فأحسست غرز إبرة في يدي» توحي بظلالها إلى ما كانت

---

(١) مخــارج الحروف وصفاتها، للإمام أبي الإصبغ السماتي الإشبيلي، ت ٥٦٠هـ، تحقيق د/ محمد يعقوب تركستاني، ص١٣١، ١٣٥، ط الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.

عليــه الفتاة من الانشغــال بالمدافعة، والانهماك فيهــا حتى إنها لم تر الإبرة، ولم تدر متى جهزت، وإنما أحست بغرزها في يدها مباشرة.

«وسكتــت لحظــة» توحي بالمــرارة والحــرارة التي جففــت حلقها فمنعتها الكلام، كما تعكس حياءها في التعبير عما حدث، وحيرتها في التعبيــر عنه. «وكادت من الحياء يدخل بعضها في بعض، وصار وجهها بلون الحمرة، ثم تكلمت بصوت خافت».

هــذه كلمــات معبرة بظلالهــا ومدلوها عما يعتلج فــي نفس الفتاة مــن حياء وخجل، بدت دلالته في هذه اللوحة الحسية المعبرة بالحركة واللــون والصــوت حتــى غدا الحيــاء والخجــل ناطقا بتداخــل النفس، وانكماش الجسم واحمرار الوجه وخفوت الصوت.

ثــم نراه يشبــه خفوت الصــوت وثقــل الإفصاح باللفــظ المخزي «بالآهــات المكتومــة» التي خرجت محملة بلفح من بــركان النفس التي تغلي بحرارة ما حدث حتى لفحت بحرها وجهه.

وهكــذا تعانقــت العناصــر الفنيــة مــن الصــور الأدبيــة بأبعادها الشعوريــة التخيلية والإيحائية للوصول إلى الغاية التي قصدها أديبنا؛ لتعميــق الإحساس فــي النفوس بمأساة هؤلاء الفتيــات وما يتعرضن له من تعذيب وإذلال.

كمــا أن الخيال جسد لنا صورة تلك الفتــاة في مدى حرصها على شرفهــا ودفاعهــا عنه، وأوقفنا علــى آلامها وعذابها بفقــده في صورة تقطر أسى وحرقة وألم.

المبحث الثالث

خيال الطنطاوي في تراجمه

يقوم الخيال في ذكريات الطنطاوي وسيلة لكشف انفعالاته تجاه ما مر به من أحداث، وتلوينها بلون نفسه دون زيف أو ادعاء؛ لنشاركه الشعور والإحساس بجمال ماضيه أو آلامه.

ويلاحظ أن خيال الطنطاوي في ذكرياته خيال خصيب موظف توظيفا إسلاميا يرفع به من شأن القيم ويجملها ويقبح به الرذائل ويهجنها؛ ولذلك كان يحمل صوره توجيهات، ويلتقط من الأحداث دلالات ومعاني إسلامية تعكس حرصه على نقل تصوره الإسلامي لمتلقيه.

من ذلك تصويره لما رآه في مدينة «سورابايا» بأندونيسيا[١].

يقول: «إذا عددت الأيام التي مرت عليّ صفوا بلا كدر كان من أول ما أعد منها يوم نزهة «سورابايا». وهي نزهة أعدتها لنا وأكرمتنا بها الحكومة الأندونيسية، وهاكم بعض خبرها:

(١) هي مرفأ في جاوة، ثاني مدن إندونيسيا (المنجد في اللغة والأعلام، ص٣١٤).

خرجنـا من «سورابايا» فما جاوزنـا البيوت حتى رأينا على جوانب الطريـق حقولا مغرقة بالمياه، ممتدة على سيـف البحر، مقطعة قطعا محـددة بسـدود من التـراب علـى هيئة الجـدران، وظـلال أشجارها طبقـات فوق طبقات، وعلى الطريق سقف مـن أغصانها المتشابكات، يمنـع الشمس أن تصل إلينـا، إلا نظرات تختلسهـا اختلاسا من فرج الأغصان، وتسمح للنسيم أن يمسح وجوهنا بيد لينة معطرة، كأنها مس يد الحبيب عند غيبة الرقيب!.

وأخذنـا نصعد، والطريـق يستدير ويلتوي، والقـرى المنثورة على السفـوح تظهر ثـم تختفي كصبية تلاعـب فتاها، يلحقهـا فتزوغ منه، ويهـم بـأن يدعها فتتـراءى له، فهي تطمعـه، ولا تطعمه! ثـم غاب عنا الجبل الأعظم، فسرنا علـى حافة الوادي الضيق، ندور بأكمة مخضرة محمرة، كأنها لوحة في بهو، وأين لوحات الأبهاء مما صوره بارئ الأرض والسماء؟

وأين الصورة الميتة من الحقيقة الحية؟»[1]

فالطنطـاوي هنا وصـف لنا هذا المشهد الرائـع في بيان عجيب، أبـرز المعاني والأحاسيس المجردة في صـورة حية متحركة، تجسدت فـي الخيال بحركتها ولونهـا وشكلها الجميل؛ لنـرى بذلك جمال صنع الخالق في الكون، ويلفتنا إلى قدرة المصور البارئ سبحانه وتعالى.

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٦/١٦٦، ١٦٧.

«.. وكانت المشاهد تمر بنا متعاقبة، إذ نمر بها مسرعين، فننتقل من نشوة إلى نشوة، ومن متعة إلى متعة، فلا أدري أيها أجمل في العين وأحلى في القلب! ولكل مشهد قصة تدور بها الألسنة..».

«ومررنا بعده ببلدة قديمة، كانت عاصمة جاوة الإسلامية يوما، اسمها «سنفو ساري» أي الأسد الشجاع، ولها قصة، وكنا نسير بين هضاب متجاورات كلها مكسو بالأشجار المثمرة، والبيوت قد تناثرت عليها بسقوفها المائلة الملونة كأنها بيوت الأطفال عند بياع اللعب، وكل منها لها قصة. والأنهار تجري خلالها صغيرة وكبيرة، مستقيمة وملتوية، رائقة وعكرة، هادئة وهادرة، قد اختلفت طبائعها وغاياتها، فكأنها أصناف البشر إذ يمشون على طريق الحياة.

ولكل واد في العين منظر، ولكل بقعة في النفس أثر، وكنا كالطفل المحروم دخل مخزن اللعب، كلما رأى لعبة ظنها تحفة التحف، فقال: هذه التي أريد، فإن رأى غيرها وجدها أحلى منها، فعدل إليها عنها!.

كنت كلما أبصرت مشهدا قلت: قف بي هنا، إن هذا هو أجمل المشاهد، ثم أجوز إلى غيره فأنسى لروعته الأول، وهم يقولون لنا: هذا كله ليس بشيء، فأقول: وما هو الشيء؟ فيقولون: أمامكم.

ورأينا النساء في كل مكان من جاوة - إلا المدن الكبار - يحجبن الرأس بخمار أبيض أو ملون، فلا يظهرن إلا ما أذن بإظهاره، وهو الوجه والكفان، وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما.

ثـم انحدرنا كما صعدنا، وهذه سنة الحيـاة، ما علا عال إلا نزل، ولا طـار طائر إلا هبط، وسلكنـا على سهل بيـن سلسلتين من الجبال: السلسلـة التي كنا فيهـا، والأخرى التي كنا نراها مـن أمامنا في سهل كأنه سهل البقاع في بلاد الشام، لولا أنه أوسع سعة، وأجمل جمالا.

وجزنـا ببلدة كبيرة، اسمها مدينة «باتـو: أي الحجر» جالسة على ذيـل الجبل الـذي نزلنا منه، ممتـدة شوارعها في السفـح، كأنها فتاة اقتعدت حافة نهر، ودلت فيه ساقيها..»[١].

فالطنطاوي حين يتصل بالطبيعة ليجسد لنا مشهدا من مشاهدها بخياله الخصب ينقل إلينا أحاسيسه ومشاعره بجمال الطبيعة وروعتها، ويقـف بنا ليشعرنا بدهشتـه وإعجابه بما أودع الله فـي هذا الكون من أسرار؛ ليوجهنا إلى عظمة الخالق لهذا الكون المصور لما فيه.

ولا ينسـى الطنطـاوي في تصويره الفنـي أن يلتقط من كل مشهد دلالاتـه ومعانيه الإسلامية التي تدل على تفاعله بالإسلام وتأثره به في فكره وخياله وتصويره.

من ذلك قوله: «والأنهار تجـري خلالها صغيرة وكبيرة، مستقيمة وملتويـة، ورائقة وعكرة، هادئة وهادرة، قد اختلفت طبعائها وغاياتها، فكأنها أصناف البشر؛ إذ يمشون على طريق الحياة»[٢].

---

(١) ذكريات علي الطنطاوي ٦/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) السابق، ٦/ ١٦٨.

وقوله: «... ورأينا النساء... يحجبن الرأس بخمار أبيض أو ملون، فلا يظهرن إلا ما أذن الله بإظهاره، وهو الوجه والكفان، وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما»(١).

وقوله: «ثم انحدرنا كما صعدنا، وهذه سنة الحياة، ما علا عال إلا نزل، ولا طار طائر إلا هبط»(٢).

فهذه صور حية متحركة أحياها الطنطاوي بخياله الخصب؛ لترتسم في الأذهان بأبعادها الأدبية والتخيلية كما ارتسمت في نفسه؛ ولتوحي إلينا بما وقع في نفسه من أسرار الكون؛ حيث لفتنا إلى تغاير مظاهر الطبيعة وتلونها؛ ليشعرنا بعظمة الخالق، وطلاقة قدرته، وكمال إبداعه وحكمته في هذا الاختلاف والتلون والتنوع الذي تستقيم به الحياة، ويظهر جمالها ويقوي الإحساس بها.

تلك هي آية الله في كونه التي لفتنا الطنطاوي إليها من خلال صورته، كما لفتنا إليها الخالق سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(٣).

---

(١) السابق، ٦/١٦٩.

(٢) السابق، ٦/١٦٩.

(٣) سورة فاطر الآيتان: ٢٧، ٢٨.

وقولـه تعالـى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[١].

وفـي الصـورة الثانيـة يلفتنا الطنطاوي فـي أثناء وصفـه للنساء إلـى الحكم الفقهي في حجاب المرأة المسلمـة، والذي يعكس عاطفته الإسلاميـة، ويعلن عـن هويته الفقهية التي يميل فيهـا إلى التيسير بما فيه سعة من أقوال العلماء مع أخذ الحيطة والحذر.

حيث نراه هنا قد أخذ برأي ابن عباس رضي الله عنه ومن وافقه في تفسير المـراد بقـول الله تعالى ما ظهـر منها في قولـه تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ بالوجـه والكفيـن[٢]، ثم احتاط الطنطاوي بعـد ذلك بقوله «وإن وجب سترهما إن كانت فتنة بهما»؛ ليقترب بذلك مـن الرأي الآخر، الذي يقول بوجوب ستـر الوجه والكفين مطلقا، وهو رأي ابن مسعود رضي الله عنه ومن وافقه.

وفي الصورة الثالثة يستشف الطنطاوي من مشهد الصعود والهبوط... مـا يوحيه من التعرف على حقيقة الحياة في تقلبهـا وتحولها؛ ليلفتنا إلى زيفها وخداعها فمن عرف حقيقة الدنيا لم يأمن لها ولم يفرح بها.

قال الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾[٣].

---

(١) سورة الروم آية: ٢٢.

(٢) مختصـر تفسيـر ابن كثير، محمـد علي الصابونـي ٢/٦٠٠، ط دار التـراث العربي، القاهرة ١٤٠٧هـ.

(٣) سورة آل عمران من الآية: ١٤٠.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[١].

فإذا انكشفت الدنيا للإنسان على هذا النحو وتيقن تلك الحقيقة، هانت عليه، فلم يبال بها أقبلت أم أدبرت، طالت أم قصرت، وعزت عليه الآخرة؛ لأنه يراها دار الأمان ودار السعادة والاطمئنان، التي تتوق النفوس المؤمنة إليها، وتشتاق إلى التنعم فيها.

وبهذا يتضح دور خيال الطنطاوي الإسلامي الذي قاده إلى استخدام الكلمات الوصفية الموحية ببراعة أفادت في جمال الأسلوب وقوته، تلك التي صورت مشاهد لافتة للنظر مثيرة للإعجاب، دالة على ما في الموصوف من إبداع عجيب، وإيحاء إسلامي جميل؛ ليفتح بذلك أمام القارئ آفاقا جديدة من التفكير والتخيل، أثرت معانيه، وقوت صوره، وأبانت عن عواطفه[٢].

ويأتي الخيال في تراجمه الذاتية الغيرية وسيلة لإبراز المعاني الإسلامية، وتجسيمها في صور حسية تغزو منافذ الإدراك؛ لتستقر في وجدان الإنسان وعقله عن اقتناع ويقين.

ويأتي - أيضاً - وسيلة لنقل وإسقاط الماضي بعبره ودروسه على الحاضر الذي مازال تتكرر فيه أخطاء الماضي وويلاته.

---

(١) سورة العنكبوت آية: ٦٤.

(٢) الأسلوب، د/أحمد الشايب، ص١٩٥، ١٩٦، ط٨، مكتبة النهضة المصرية ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

وبجانب أن هذا الخيال يكشف عن وجهة الطنطاوي الإسلامية، ويبرز عواطفه تجاه القيم أو غيرها، فإنه يضفي على الأحداث والأخبار الحياة، ويبعث فيها الحركة والجدة، فيشعر المتلقي لها أنه أمام شخصية حية بكل أبعادها ـ تناولها كاتب يقظ ـ لا أمام ركام من الأخبار الجامدة والأحداث الميتة.

فمن المواقف التي يتجلى فيها خيال الطنطاوي لإبراز القيم، والإشادة بالبطولة والمثل.. ذلك المشهد الذي صور فيه موقف أبي بكر رضي الله عنه من بعث جيش أسامة رضي الله عنه في الوقت الذي ثار فيه المرتدون، وحار فيه الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أجمعون. فقال:

«قلت وهذا فتح في الإسلام عظيم... فتحه الله على أبي بكر؛ ليكون معجزة من معجزات النبوة، أمده الله أبا بكر بقوة من عنده، فاستطاع أن يقف وحده أمام هذه الجزيرة الهائجة المائجة التي لم تخضع مذ بسط الله أرضها لمخلوق، والتي أعجزت الفاتحين منذ أول الدنيا، وأطمعتهم حتى إذا طمعوا بها أطعمتهم رمالها المحرقة، فلبثوا فيها إلى الأبد، والتي لم تحن رأسها إلا لمحمد بن عبد الله ﷺ.

وقف وحده أمام هذه القبائل المرتدة... وقد انفجرت كما ينفجر البركان، وأخذت عليه كل سبيل، وهتفت به متمردة ثائرة تقول:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبي بكر

أيورثها بكرا إذا مات بعده؟   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

وحار الصحابة وجزعوا، وقالوا: يا أبا بكر! لا ترسل أسامة بجيشه إلى الشام، فإن معه وجوه الناس وشجعانهم، فاستعن بهم على قتال هؤلاء الذين نقضوا عرى الإسلام، أطفئ به هذه النار التي اندلع لسانها من كل جانب وعمت وانتشرت، ثبت به هذه الأرض التي زلزلت زلزالها واضطربت ومادت... وما نقدر على شيء إذا أخلينا المدينة من هذا الجيش، وما لنا بقتال الروم من حاجة.

وواجه أبو بكر الخطر برأسه، واستقبل التبعة العظيمة، وأنصت الدهر وأمسك كتاب التاريخ بأقلامهم، وعلقوا أنفاسهم ليسمعوا جواب أبي بكر، وكان المستقبل متوقفا على جوابه! فما كان إلا أن قال: ثكلتكم أمهاتكم! أنا أحل لواء عقده رسول الله ﷺ!؟ والله لو جرت السباع برجلي ما فعلت ذلك.

ثم أمضى الجيش وزوده بوصايا ما عرفتها الإنسانية من قبل، كأنما نظر بنور الله إلى المستقبل البعيد الذي تتقدم فيه الإنسانية حتى تعرف قواعد الحرب وتسعى لتطبيقها.

ولم يكن إرسال الجيش مغامرة من أبي بكر كما قال من قال!

فالمغامرة هي الإقدام على أمر مشكوك في نجاحه، وليس عند أبي بكر شك في نجاح شيء فعله رسول الله ﷺ.

ذلك سر من أسرار الإيمان لا يعرفه إلا من ذاقه!.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

واشتد البلاء، وانتفضت الأرض وزلزلت، وتجرأ المرتدون من العرب على مهاجمة المدينة، وازداد الصحابة حيرة وجزعا حتى لقد حار عمر ـ القوي ـ وجزع وقال: يا خليفة رسول الله! تألف الناس وارفق بهم... ولكن نفس أبي بكر ـ معجزة الله في النفوس ـ لم تعرف الحيرة ولا الجزع. فقال أبو بكر:

ماذا يا عمر؟ رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك! أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام!؟ لقد تم الدين وانقطع الوحي، أو ينقص وأنا حي؟.

ثم قال الكلمة الحاسمة في التاريخ الإنساني.

الكلمة التي أنشأت الحضارة الإسلامية، الكلمة التي بنت دولا وهدت دولا، وثبت الله بها الإسلام، فكانت من آيات الله المبهرة على نبوة محمد ﷺ ومر عليها إلى اليوم ألف وثلاثمائة وواحد وأربعون عاما، ولم تفقد بعد روعتها، بل هي جديدة حية في نفس كل مسلم كأنما نطق بها الصديق الأعظم أمس! قال: والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف، ولو تخليتم عني لجاهدتهم وحدي.

ثم خرج إليهم بنفسه، ورتب الجيوش لقتالهم، فلم تكن إلا هنيات حتى خضعت الجزيرة المرة الثانية في التاريخ، ثم أخضعت ـ إذ خضعت للحق ـ العالم.

أما إني لست أعرف فيما قرأت من كتب التاريخ عظيما من العظماء في أمة من الأمم وقف مثل موقف أبي بكر، وقد يقف رجل

أمام أمة يقاتلها وتقاتله باللسان والقلم، ثم لا يبالي أظفرت به أم ظفر بها، وقد يقدم فارس شجاع على جيش كبير فيقاتل مستميتا ثم يقتل ولا يصنع شيئا، أما أن يقف رجل واحد أمام أمة ثائرة على مبدأ من المبادئ تدافع عن عقيدة استقرت في نفوسها، وخالطت دمها ولحمها، وجردت للدفاع عنها سيوفها وألسنتها، وباعت في سبيلها حياتها، ثم تكون له الغلبة على أجسامها حتى تخضع له، وعلى قلوبها حتى ترجع عن عقيدتها... فأمر لم يقع - بعد الأنبياء والمرسلين - إلا لأبي بكر.

وقد يكون في أمة رجال أشداء ذوو صلابة وعزم، ومضاء وحزم، يقدمون على العظائم، ويصمدون للشدائد، ولكني لا أعرف عظيما من العظماء في أمة من الأمم ينازل وحده أمة، ويغلبها ويقوى عليها، وينزل به ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، فلا ينال منه ولا يميله، حتى إذا زالت الشدة، وأصبح سيد الشام والعراق غدا فرعى غنم أهله، وحلب للحي أغنامهم، وقال للجارية التي ظنت أنه لن يفعل: بلى لعمري لأحلبنها لكم، وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه.

رحمك الله يا أبا بكر ورضي عنك! فإنك عظيم من العظماء، وإنما العظيم عظيم في الناس»[١].

فهذه الوقفة التحليلية من الطنطاوي لموقف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المرتدين تحمل في ثناياها قيما عظيمة وتجسد معاني جليلة، لعل من

---

(١) أبو بكر الصديق، علي الطنطاوي، ص١٨١، ١٨٣.

أبرزهــا التأكيد على قوة النفس بإيمــان القلب، تلك القوة التي لا تخضع لحسابات العقل، ولا تأبه بمخاطر الدنيا في سبيل إقامة الدين والعدل.

وقــد جسد الطنطاوي هــذا المعنى في صورة أدبيــة وتخيلية حية سمــت في سماء البيان؛ لتجسد تلك القيمة، وتبرز قوة ومضاء العزيمة فــي مواقف أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النابعة من عمــق الإيمان وكمال الامتثال للّه، ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كمــا ظهر من خلال عرض الطنطاوي لهــذا الموقف وتعليقه عليه شــدة انفعــال نفسه به وقــوة عاطفته المحبــة للإســلام ورجاله، هذا الإحساس الــذي نقله إلينا ومــلأ نفوسنا به، والــذي كان مبعثه فضلاً عن جمال الصورة، صدق الانفعال وقوة الإحساس، والإيمان بما يقول، والذي عبر عنه الأستاذ/ محمد سعيد المولوي بقوله: «على أن أكثر ما يثيــر الانتباه في عرض الصورة الفنية عند الطنطاوي أنه يشرك نفسه فــي الصورة ويجعلها جــزءا منه، وهو بذلك يختصــر مسافات التأثير فلا ينتظر أن تبلغ الصورة غايتها، بل يطرح عواطفه ومشاعره وأفكاره ضمنهــا، فيقدم الغايــة وردة بين الورود، ولكنها تتميــز عما سواها في أنهــا متفتحة طيبــة الأريج، فحين يدخــل الطنطاوي عواطفــه يستثير عواطفنا، فنحس إحساسه، ونشعر شعوره فلا ننتهي من قراءة الصورة حتى تكون قد بلغت غايتها التي صاغها المؤلف من أجلها»[١].

---

(١) الأدب الإسلامــي «الصورة الأدبية الفنية في أدب علــي الطنطاوي» ص٤٨، العددان (٣٤-٣٥) ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

والطنطـاوي بخياله الإسلامي الوثـاب يجسد المعاني الإسلامية، ويبرز الأحاسيسـ الداخلية لشخصياته، فتبـدو من خلال عرضه بكل ملامحها وأبعادها النفسية والجسدية والأخلاقية واضحة، وكأننا نطل عليها من قريب؛ لنراها في بيئتها وعصرها بأقوالها وأفعالها وحركاتها وسكناتها دون حجب أو ستار.

مـن ذلك، هذا المشهـد النـاطق بعظمة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في انتظاره خبر الجيش في معركته مع الفرس، والمجسد لقلقه وإحساسه بالمسؤولية، وتواضعه وورعه. يقول الطنطاوي:

«أرسـل عمر الجيشـ مع سعد، وأقـام ينتظر خبره علـى أحر من الجمـر، وأحد من السيـف، فأبطأ عليه خبر الفتـح، وجزع عمر القوي واضطـرب، وأضحـى كالأب المدلـه يستخبـر عـن ولـده، والأم تسأل عـن وحيدها، فكان يخـرج كل صباح إلى أطراف الحـرة، ثم يوغل في الصحـراء، يرقب الأفق، عله يرى رسولا فيعلم منه علم القوم، وينتظر إلى أن تلتهب الأرض، ويتسعر النهار، فيعود إلى المدينة ينظر الصباح الآتي؛ ليخرج فيأخذ خبرًا، أو يرى مخبرا، لم يكن يطيق البقاء وجيوش المسلميـن تغامر أعظـم مغامرة حربية، تهاجـم إمبراطورية الفرس؛ لتفتـح بلادهـا، وما ذلـك بالشيء القليـل، ولا هو بالأمـر السهل، إنها تحارب أقوى قوة عسكرية وأعز حكومة وأشدها، فهل أظفرها الله بها، أم نالهـا منهـا سوء؟! هـذا ما كان يفكر فيه عمـر ولا يقر له قرار حتى يعلمه.

وبينما كان عمر على شاطئ الصحراء ينتظر كما ينتظر كل يوم، إذا هو يرى راكبا يطلع عليه من الأفق البعيد من جهة العراق، أهو البشير الذي يحمل نبأ الفتح، أم هو الناعي الذي يجيء بخبر الهزيمة؟! لم يتمالك عمر أن يقف مكانه، فسعى إليه، حتى إذا بلغه سأله عن الخبر، فقال: هزم الله العدو. فأشرق وجه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وخالط السرور حبة قلبه، فجعل يسير إلى جانبه يسأله وهو يخب، والرجل راكب، يجيبه جوابا مقتضبا، لا يحفل به، ولا يأبه له، وما له ولهذا السائل! إنما جاء البشير ليبشر أمير المؤمنين!.

فلما دخلا المدينة، ورأى الرجل الناس يسلمون على عمر ويهنئونه، انخلع قلبه من الخوف، ونزل يعتذر إلى أمير المؤمنين، فلا يطاوعه لسانه على الكلام، يرتقب أن يأمر به عمر، فيضرب أو يعاقب على ما أتعبه وأعرض عنه، وإذا بعمر العظيم يطمئنه ويؤنسه، ويقول له: لا عليك يا أخي!»[١].

فبهذا الخيال المصور والعرض المشرق ظهرت العواطف الداخلية لعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ممتزجة بصورته الخارجية الحسية القلقة المضطربة التي دلت على مدى انشغاله برعيته، وحرصه على جنوده، وحبه لهم، ورحمته بهم.

كما أبان عن عظمة عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تواضعه الواضح و«بساطته» التي جعلت هذا الجندي لا يعرفه من الرجل العامي وهو خليفة المسلمين.

---

(١) قصة حياة عمر، علي الطنطاوي، ص٣٣، ٣٤.

كما أبرز هذا التصوير ما يعتمل في صدر هذا الجندي من مخاوف وهلع وترقب لوقوع العقاب فأمسك لسانه عن الاعتذار ولم يطاوعه على الكلام.

كما جسدت هذه الصورة رفق عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسعة صدره في العفو عن أصحاب الأعذار، بما ينم عن ورع جم وخلق كريم.

وبذلك يتضح دور الخيال في تكوين الصورة التاريخية عند الطنطاوي وتوجهه الإسلامي فيه، ذلك التوجه الذي لا يجنح به بعيدا عن الحقيقة، وإنما يستخدمه بمقدار ما يحقق المقصود من بيان الانفعالات، وإظهار العواطف، وتوضيح الأبعاد والمسافات الوجدانية والسلوكية في الأحداث، والتي تدرك من خلال تراكيب النصوص وسياقها.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الطنطاوي قد استخدم الخيال في تراجمه وسيلة إسلامية أسهمت في عرض الأخبار بعد تنسيقها وترابطها عرضا أدبيا، جسد المعاني وأبرز القيم في توازن لا يخفي صدق الحقيقة التاريخية ولا يغفل جمال الصورة الأدبية.

فالخبر حين نقرؤه في كتب التاريخ نمر عليه مرورًا عابرًا، لا نلتفت إلى ما فيه من عظمة، ولا ما يحتويه من جمال، ولا ما يدل عليه من بطولة، حتى إذا ما تعامل معه كاتب يقظ بخياله الخصب كالطنطاوي ملأه عظمة، فأبصرنا ما فيه من قيم، ورأينا ما يحتويه من بطولة، وتبينا دور الخيال والوجدان الإسلامي في إحياء الشعور وتنبيه النفس إلى العظمة والقيم، والجمال والإبداع.

يقول الطنطاوي مصورًا حدث الهجرة النبوية:

«نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك، بين الإصلاح والجمود، بين محمد وقريش، وبذلت قريش مالها، وقدمت دنياها في شيء واحد: هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا.

قال محمد: افتحوا لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء، فأنصر الضعيف، وأنجد المظلوم وأعيد للبشرية كرامتها، وللعقل سلطانه.

قالوا: لا!.

قال: افسحوا لرسالتي لتنطلق في الزمان، فإنها ليست لبلد واحد، ولا ليوم واحد.

قالوا: لا، ولكن تعال نملكك إن شئت علينا، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيد هذا البلد كله.

وسخر التاريخ من قريش... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض، وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز: كنوز المال، وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية النائمة بين جبلين وراء رمال الصحراء.

وانطلقوا يؤذونه ويتوعدونه لعل الترهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب. ورموا في طريقه الشوك وهو ماش، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورموه في الطائف بالحجارة، وأسالوا دمه وهزئوا به، وسلطوا عليه سفهاءهم.

فلـم يثر هذا كلـه غضبه، ولكن أثار إشفاقـه.. إشفاق الكبير على الأطفـال المؤذيـن، والعاقل علـى المجانين، وكان جوابـه: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»[١].

فهـذه هي الفنية فـي معالجة التاريخ، والبراعة فـي تناوله بخيال يحرك الحـدث، ويصب فيه الحيـاة، فيبدو ماثلاً أمامنـا نشاهده في حركته وسيره بأبعاده ودروسه، ونتائجه ومزاياه؛ حيث نقلنا الطنطاوي علـى جناح الخيال إلى مكة؛ لنشاهد عن قـرب الحرب القائمة هناك؛ لأنهـا ليست حربـا عابرة كالتي كانت تقوم بيـن الحين والآخر، بل هـي حرب عظيمة بين التوحيد والشرك، بين الصلاح والجمود، بين محمد ﷺ وقريش، معركـة بيـن الحق والباطـل، استخدم فيها أهـل الباطل سلاحيـن عظيميـن لم يخطئا أبـدا: سـلاح الترغيب بالمـال والملك والسلطان، وسلاح الترهيب بالإيذاء والتسفيه والرمي بالحجارة.

ومـع ذلـك فشلت محاولات قريشـ في ثني النبـي ﷺ عن دعوته، واحتـارت قريش في ثبات النبي ﷺ وحـق لها أن تحتار؛ لأنها ما فهمت طبيعة دعوته، ولا غاية رسالته، ولا نبل هدفه إلا متأخرًا بعدما انتشرت دعوته في الآفاق، واجتاحت أطراف العالم تبدد ظلامه، وتقوّم ميزانه، وترفع أركانه بعدما قد هوت تحت أقدام الموحدين.

حينها أدركت قريش سفهها، وأبصرت حمقها، فسخرت من نفسها قبل أن يسخر منها التاريخ الذي ضحك من جهالتها وقسوتها بقدر ما تعجب

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ١/ ١٥، ١٦.

من حلم محمد ﷺ وصفحه حين قابل إساءتها بالإحسان، وإيذاءها بالدعاء لهم والشفقة عليهم ملتمسا لهم العذر «بأنهم لا يعلمون».

وقد اختار الطنطاوي لبعث صورته التاريخية ألفاظا مثيرة للخيال، وعبارات موحية ومؤثرة أسهمت في اكتمال أبعاد الصورة وتعميق الإحساس بها.

يقول: «وبذلت قريش قوتها، وبذلت قريش مالها، وقدمت دنياها كلها في شيء واحد! هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا»[١].

فهذه العبارات تعكس في وضوح الحالة النفسية لقريش، من الرغبة العمياء التي تدفعها للسعي الحثيث في منع هذه الدعوة، كما توحي بمدى الخوف المسيطر على نفوسها، وشدة الفزع والقلق من انتشار هذه الدعوة ونجاحها.

كما أبانت عن سفاهة قريش ونظرتها الضيقة في محاربة الخير والهدى.

وقد جسدت هذه الصورة قيما إسلامية عظيمة، تمثلت في اندحار أهل الباطل وضعفهم إذا ثبت أهل الحق، وأظهرت عظمة النبي ﷺ في إخلاصه لله وثباته على دعوته وإعراضه عن زينة الدنيا وشهوات الحياة، كما أبانت عن جانب هام من أخلاق الداعية ممثلا عمليا في رفق النبي ﷺ وعفوه وإصراره وصبره.

---

(١) رجال من التاريخ. علي الطنطاوي ١/ ١٥.

كمـا كشفت هذه الصورة عن طبيعة المعارك بين أهل الحق وأهل الباطل، وأسباب الانتصار، وأساليب الإغراء..

كمـا يبـدو دور الخيال الإسلامـي الفاعل في تعليـلات الطنطاوي واستلهاماتـه مـن معطيات الأحـداث ما يتلاءم مـع الشخصية ويضيء الحـدث، كاستنباطـه للأسباب التـي دعت النبي ﷺ إلـى الهجرة بعد أصحابـه مختفيا عن أعيـن المشركين بما يتوافق مـع شخصيته ﷺ، وينبئ عن كمال حكمته وعظمته، قال:

«... تأخـر محمد كما يتأخـر الربان الشريف علـى ظهر الباخرة الميؤوس منها، فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعا، وكما يتأخر الراعي الأمين عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله.

تأخر يحمي أتباعه، ويستقبل بصدره الخطر»[١].

هـذا عن سبب تأخر النبي ﷺ في هجرته، أما عن سبب اختفائه، فيقول:

«وهاجـر مختفيا مـع صفيه وخليلـه شيخ المسلمين أبـي بكر، لم يختف من ضعف ولا جبن، ولكنه كان كالقائد المسافر؛ ليدير المعركة الكبرى، فهل يظهر نفسه ويقف على الطريق ليحارب فصيلة لحقت به، فيظفر عليها ويعطل المعركة الكبرى؟

(١) رجال من التاريخ، علي الطنطاوي ١/١٧.

إنهـا تنتظر محمدا معـارك أكبر، تنتظره بـدر، والفتح، وهوازن، والقادسيـة، واليرموك، وجبـل طارق، ومعارك الفتـح الإسلامي، التي امتدت من بعد.. سلسلة مظفرة خيّرة، نثرت شهداء الحق في كل أرض، ونصبت راية العدل على كل جبل، وأضاءت بالإسلام القلوب والبلاد في كل مـكان، وتنتظره المعركة مع الجهل والفقر والظلم والفسوق، وسائر الأوضار الخلقية التي جاء ليطهر المجتمع البشري من آثارها»[١].

فهذه التعليلات نقلت إلينا ـ عبر الخيال المصور ـ إحساس الطنطاوي العميق ووجهته الإسلامية الصادقـة في تناول التاريخ ودلالات أحداثه بما يتناسب مع شخصياته، ويتلاءم مع أخلاقها وتاريخها الثابت.

---

(١) السابق ١/ ٣١.

المبحث الرابع

خيال الطنطاوي في مقالاته

الخيال في مقالات الطنطاوي:

يلاحظ أن خيال الطنطاوي في مقالاته خيال مطلق الحركة والنشاط، وهو في انطلاقه هذا ملتزم بقيم الإسلام ومساره، حيث يتكئ فيه على أصول دينية، ويصدر عن ثقافة إسلامية تعصمه من شطحات الخيال المبهمة، وسقطات الفكر والأهواء المضللة.

فالخيال في مقالات الطنطاوي وسيلة إسلامية، يدفع بها النفوس للتعرف على أسرار الكون والنفس والحياة، دون تمويه أو تلفيق.

يقول الطنطاوي من مقال «إلى السلاح يا عرب»: «... ألا يكون أحدكم مرخى الأعصاب، خامل الجسد، قد خدره النعاس حتى ما يقدر أن يفتح عينيه، فيعدو عليه عاد، أو يطرقه لص، أو يحقره إنسان فيشعل الغضب في دمه نارا، أو يشد من أعصابه أوتارا، فيثب يريد أن يقتحم الجدار أو يخوض النار!؟

ألا يكون أحدكم تعبان كسلان يجر قدميه من الونى جراً، يظن أنه سيسقط من كلاله على الأرض، فيلحقه عدو فاجر أو يطارده وحش

كاسـر، فـإذا هو ينطلق انطلاقـة القذيفة من فم المدفـع، ويعدو عدو الغزال المروع!؟

هـذه - يـا أيها النـاس - القـوة المدخرة فـي أعصـاب الإنسان يظهرهـا الأمل، ويبديها الغضب، ويبعثها الخوف. وفي الأمم قوة كهذه القـوة، وما الأمـة إلا أفراد الأمة، أنـا وأنت وهم وهن! أفـلا تحس إذا غضبـت أو فرحـت أو جزعت أن نبضك يسـرع، وقلبك يخفق، ووجهك يصفر ويحمر، وجسمك كله يتبدل ويتغير!؟ فكذلك الأمم.. تكون الأمة نائمـة آمنـة قد غلب عليها الخمـول، وشملها الارتخاء، فمـا هي إلا أن يبعـث الله لها القائد العبقري يصرخ فيها ينذرهـا خطراً، أو يحذرها عـدواً، أو يعدها نصـراً مؤزراً.. حتى تثب كما يثـب الجندي المستريح إلى سلاحه، فتعمل العجائـب، وتصنع المعجزات، وتدع التاريخ حائراً من فعلها مشدوها...»[١].

فهـذه صورة كليـة أبرزت الطاقـة الكامنة في النفـس الإنسانية، ومثيراتها الخارجية، التي تحولها إلى طاقة هائلة، لو وجدت من يحسن توجيهها، لصنع بها العجائب وأتى بما يدهش التاريخ.

هـذا المعنى نقله إلينا عبر الخيال المصـور، حيث حاول في هذه الصور حمل المتلقي علـى مشاركته إحساسه، بجعله يستحضر معه ما يشعـر به في نفسه من صـور مثلها له بأبعادهـا الشكلية والحركية من خـلال ألفـاظ موحية وعبارات مصورة، لا تكـون إلا من وحي الموهبة،

---

(١) هتاف المجد. علي الطنطاوي، ص٨٧.

وإلهام الطبع، حتى ليخيل إلينا أن الألفاظ والعبارات استحالت مشهداً حياً لشخص واني الجسم، منكمش الهيئة، أنهكه التعب وبلغ به الإعياء والكسل، ما جعلنا نشفق عليه حتى إذا اطمأننا لتلك الصورة رأيناه مرة واحدة، وفجأة يعدو مسرعاً في خفة وفزع وهمة ونشاط، وكأنه شخص آخر، فما الذي أثار هذه القوة من مكمنها وبعث هذا النشاط فيه!؟ إنه داعي الخوف أو الغضب من شخص أو عدو أو حريق.

فهذه الصورة استهدف بها الطنطاوي تعرّف الإنسان على نفسه، وتنبيهه إلى قدرته الكامنة التي لو استطاع بعثها لحقق بها ما يريد.

ويلاحظ - أيضاً - سيطرة التوجه الإسلامي على خيال الطنطاوي، من خلال ألفاظه وصوره التي استقاها واستمدها من القرآن الكريم وثقافته الإسلامية وبيئته العربية.

يقول في مقاله «نهر دمشق» مصوراً عواطفه تجاه هذا النهر الذي امتلأت نفسه بعظمته:

«بردى» سطر من الحكمة الإلهية، خطته يد الله على صفحة هذا الكون؛ ليقرأ فيه الناس ببصائرهم لا بأبصارهم فلسفة الحياة والموت، وروعة الماضي والمستقبل، واختصت به الأمة العربية، فجمعت فيه تاريخها الجليل ببلاغة علوية متفجرة.

والله الذي جعل الآية المعجزة في القرآن هو الذي جعلها في الأكوان. والله الذي أعجز ملوك القول، وأمراء البلاغة، بسور وكلمات وحروف، هو الذي أعجز قادة العقل، وأئمة الفلسفة، بسور من بحار وأنهار وكهوف.

وما «بردى» إلا سورة من قرآن الكون، وليس إعجازه في أنه يجري، ولكـن إعجـازه في أنـه ينطـق، وأن في كل شبـر منه تاريـخ حقبة من العصـور، وتحت كل شبر أنقاض أمة من الأمـم، أمة ولدت في حِجره، ورضعـت من لبانه، وحبت بين يديه، ثـم قويت واشتدت، وبنت فأعلت، وفتحـت فأوغلت، ثم دخلها الغرور، وحسبت أنها شاركت الله في ملكه، فظلمـت وعتت واسـتكبـرت، فبعث الله عليها نسمـة واحدة من وادي العـدم فإذا هذه العظمة وهذا الجبـروت ذكرى ضئيلة في نفس بردى، وأنقاضـ هينـة في أعماقـه، وصفحـة أو صفحتان في كتـاب التاريخ، وإذا بأمـة أخـرى تخلفها في أرضهـا، وترثها مالها، ثم يكـون سـبيلُها سـبيلَها!

ولقـد قـام الفينيقيـون علـى أنقاضـ الحثييـن، والكنعانيون بعد الفينيقييـن، والفرس بعد الكنعانيين، واليونان بعد الفارسيين، والروم بعد اليونانيين، والغساسنة بعد الرومانيين، والمسلمون بعد الغسّانيين. ثـم قام العباسيـون على أثر الأموييـن- ثم قام صـلاح الدين، ثم جاء التـرك بعد السلجوقيين- ثم جاء فيصل بن الحسين، ثم جاءت جيوش الفرنسيين!.

هكـذا يدور الفلك في السماء، ويـدور السلطان في الأرض، فينشأ من القبر الحياة، ويغطي على الحياة القبر، والسلسة لا تنتهي، والناس لا يعتبـرون، وبـردى يبتسـم ساخـرا من غـرور الإنسـان، ضاحكا من جهالتـه، يحسب نفسه شيئا، فيصارع الكـون، ويتطاول بعقله إلى الله،

وما هو من الكون إلا ذرة من الرمل ضائعة في الصحراء، وما عمره إلا ثانية واحدة من عمر «بردى ...»[١].

بهذا الجمال في التصوير، والسلاسة في التعبير ينقل إلينا الطنطاوي أحاسيسه ومشاعره الفياضة المتولدة عن رؤيته لهذا النهر العظيم الذي رأى قدرة الله فيه، ولفتنا إلى عظمة الله في إيجاده، مستلهما من تاريخه الدروس والعبر التي توافق تصوره الإسلامي عن قوة الخالق وعظمته، وضعف الإنسان وغروره.

وقد أضفت هذه الألفاظ القرآنية والمعاني الإسلامية على صوره جمالا وجلالاً، وألبستها ثوبا إيمانيا رقراقا، دل على مدى استجابة الطنطاوي في وجدانه، وتأثره في تصويره وخياله بالإسلام، وثقافته العظيمة وكتابه المعجز.

ويلاحظ أن الطنطاوي قد وظف الخيال في مقالاته وسيلة إسلامية كاشفة عما في النفوس، وموصلة إلى الغرض المقصود، بتعبير عفيف له إيحاء دقيق، يحقق الغاية منه في سمو وعفة.

فهو حين يكلم الفتاة عن الرجل ليكشف لها عن حقيقته، ويعرّيه من زخارفه، حتى لا تنخدع المرأة بكلامه أو سلوكه عن هدفه وغايته منها. يقول:

---

(١) دمشق... علي الطنطاوي، ص٢٧، ٢٨.

«... إي والله! أحلف لك مرة ثانية لا تصدقي ما يقوله لك بعض الرجال من أنهم لا يرون في البنت إلا خلقها وأدبها، وأنهم يكلمونها كلام الرفيق، ويودونها ود الصديق!. كذب والله! ولو سمعتِ أحاديث الشباب في خلوتهم لسمعت مهولاً مرعباً، وما يبسم لك الشباب بسمة، ولا يلين لك كلمة، ولا يقدم لك خدمة إلا وهي عنده تمهيد لما يريد، أو هي على الأقل إيهام لنفسه أنها تمهيد...»[١].

فهذه العبارات (لسمعت مهولا مرعبا) و(تمهيد لما يريد) بما تثيره في الخيال، وتحركه في الأذهان تسهم في كشف حقيقة نفس الشاب تجاه الفتاة، وتوضح غايته منها، ورغبته فيها بأسلوب عفيف مثير يؤدي المقصود، ويفي بالغرض دون إسفاف أو تدن؛ لتحذر بذلك الفتاة؛ ولتنتبه لما يمكن أن تقع فيه، وقد تكشفت لها الحقيقة.

وتبدو إسلامية الخيال في مقالات الطنطاوي بجعله وسيلة فنية للتعرف على الأبعاد الحسية والعلاقات النفسية التي تكتمل بها الصورة المعنوية أو المجردة؛ لتبدو في إطارها الإسلامي الذي يريد به حمل النفس على كمال الإحساس بقبح القبيح وحسن الحسن. يقول الطنطاوي في وصف شاب مخنث:

«كان شاباً متأنثاً قد أصيب بمرض التجمل.. فلم يكن يجيء إلى المدرسة إلا متزيناً مستعداً استعداد عروس ليوم زفافه، قد صفف

(١) من مقالة «يا ابنتي» صور وخواطر، ص١٥٠.

شعره ودهنه وعطره (ولبده)[١] و(عقربه)[٢] على صدغيه، وجمل وجهه، وصقله، وصنع به ما لست أدري!

وكان إذا نظر غض الطرف من الحياء، ودانى بين جفونه، وإذا تكلم تكلم بصوت حالم لين كأن ألفاظه تقول شيئاً، ولهجته ونبراته تقول شيئاً آخر! تقول: إن رجولة صاحبي رجولة مزورة!

وإذا مشى تثنى وتخلع وتكسر، وماج جسمه موجاناً، وذهب كل عضو منه في ناحية، كأن جسمه متفكك قد تقطعت أوصاله، وفصمت عراه، وانحلت لوالبه...»[٣].

فهذه الألفاظ بدلالاتها وإيحاءاتها نقلت إلينا صورة كاملة، وإحساساً واضحاً بتأنث هذا الشاب وتخنثه القبيح المنفِّر.

هذا الإحساس البغيض المتولد من وحي الصورة يتغير إلى النقيض إذا تغير الوصف والقصد. يقول الطنطاوي:

«... ومر شهران، ثم رأيت في مكانه طالبا جديداً من الطلاب الذين يتدربون على الجندية يلبس الثوب العسكري وعلى وجهه طابع الرجولة: له شاربان كاملان، وأثر اللحية ظاهر على خديه، والقوة والصرامة باديتان في عينيه وملامحه، وكان قوي النظرات صعاقاً،

---

(١) لبد شعره أزلقه بشيء لزج أو صمغ حتى صار كاللبد (لسان العرب ج ٥، ص٣٩٨٥، ط دار المعارف).

(٢) عقرب: شيء معقرب: معوج (السابق، ص٣٠٣٩).

(٣) بغداد مشاهدات وذكريات. علي الطنطاوي ص٩٤، ٩٥.

جهير الصوت، ذكيا مقبلا على الدرس، فطناً ألمعياً، وكان سريع الحركة، جم النشاط، إذا دعوته أقبل يسير بخطى موزونة، يطأ الأرض وطأً شديداً، وقد نصب قامته، ورفع رأسه، فإذا قام بين يدي قرع رجلاً برجل، ثم رفع يده بالسلام لا كما يرفعها مثلي أو مثلك، بل كما يرفع يده الجندي بالسيف يستله من قرابه! وإذا كلمته أجاب بجرأة وأدب، وكنت أراه في ساحة المدرسة، فأراه على اجتهاده، وإقباله على العلم، قوياً نشيطاً يصارع الطلاب ويباطحهم، فإذا تمكن منهم وعلا عليهم، عفا عنهم، وأبقى عليهم، فكنت أعجب من قوته ونبله، وعلمه وفضله، وأكبر فيه هذه الصفات.

ثم إنني أحببت أن أشجعه وأضرب منه للطلاب مثلاً، فتكلمت وأثنيت، وقلت: كم بين هذا وذاك من فرق!؟

فصاح الطلاب: ومن هذا ومن ذاك؟ إنهما شخص واحد!

قلت: ويحكم! فأي معجزة هذه التي بدلته شخصاً آخر، وأنشأته إنشاء جديدا؟

قالوا: يا أستاذ... إنه تدرب على الفتوّة...[1].

فالطنطاوي بقدر ما قبح طريقة الشاب وسلوكه في صورته الأولى ونفرنا منها، حببه إلينا في صورته الثانية، وقد تغيرت طريقة حياته،

---

(١) بغداد..مشاهدات وذكريات، علي الطنطاوي، ص٩٤، ٩٥.

واستقام سلوكه وخلقه بعد ما تدرب على الفتوة! حيث قد رسمت هذه الألفاظ المثيرة، والعبارات الموحية لوحة كاملة ضخمة، حركت الخيال لرصدها كاملة بأبعادها، وحركت الوجدان للإحساس بها، والانفعال بمعطياتها على نحو ما يريد الكاتب.

وقد رأينا بوضوح كيف وظّف الطنطاوي التصوير والتخييل هنا وسيلة قوية في كشف مزايا «الفتوة» وما أكسبته للشباب من صفات وخصال عظيمة، بما يوضح اتجاهه في تمجيد الفضائل وإبرازها، وتشويه الرذائل وتضخيمها بما يلفت الانتباه إليها وينفّر منها.

ويقول الطنطاوي مصوراً شقاء الفقير في مصر، ومعاناته في الحياة، ليعطّف القلوب عليه ويشعر الأغنياء به، من مقالة «تسعة قروش»:

«.. يحلق مثل (الناس) ولكنه يقعد على الأرض على رصيف الشارع، وبيده مرآة مكسورة يرى فيها وجهه، والصابون القذر يغطيه، وموسى الحلاق المغلولة تجري فيه، والدم ينبثق من نواحيه، ثم تمر على هذا الوجه البشري ممسحة لا ترضونها أنتم والله لمسح أحذيتكم!.

ويركبون مثلما يركب الناس ولكن على «عربات الكارّو» العشرة على متر مربع من الخشب، محمولين على دولابين من الحديد، يسحبه حيوان هزيل، والعربة ترتج بهم، فترقص معدهم وتزلزل أمعاءهم، ثم لا تصل بهم إلى نهاية الميل الواحد إلا بعد ساعة، ولهم قهوات.. ولكن قهواتهم اصطبلات فيها ركائز تسمى مناضد.

أمامهـم عيـدان تدعى كراسـي، ولهم مطاعم، ولكـن مطاعمهم يقدم فيها المرض في طباق قذرة...»[١].

فهـذه الصـورة أبـرزت المعنـى الذهني المجـرد لشقـاء الفقير ومعاناتـه فـي صـورة حسية واضحـة، جسدهـا الخيال فبـدت للعين، وأدركهـا الحسـ وانفعل بها الوجـدان، وتألم بهـا الإحساس اليقظ في تقصيره في حق الفقير.

وقد استقى الطنطاوي عناصر صورته من الواقع المحسوس الذي أضفـى عليها من أحاسيسه ومشاعـره وانفعالاته ما جعلها حية نابضة تشعرنا بالمعاناة والقشعريرة، والامتعاض والاستياء من تلك الحال.

فـإذا قـال الطنطـاوي مخاطبا الأغنيـاء بعد ذلـك: «فتداركوهم قبـل أن يكفـروا بالإنسـان فينقلبـوا حربـاً عليـه، حربـاً ليـس معها أمـان، أشـعروهـم أنه لا يزال فـي الدنيا فضل وعدل ونبـل، لِيَجُدّ كل واحـد منكم على من هو دونه، لا بالمال وحـده، بل بالعاطفة والتواضع والإنسانيـة...»[٢].. وجـد استجابة أو قبولاً لـدى أولئك الأغنياء الذين تفاوتـت بينهم وبين الفقراء في مصر مسافـات طاغية، تنذر بالخطر والخـوف الشديـد الـذي استشعره الطنطـاوي بحسـه، وأراد أن ينقله إلـى الأغنيـاء لعله يجد آذانـا مصغية، فلما صمّـت الآذان وقع ما كان يحذره.

---

(١) صور وخواطر. علي الطنطاوي، ص٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

فقـد كتب هذه المقالـة سنة ١٩٤٨م، أي قبل قيـام الثورة، فكأنها كانت قراءة للواقع واستشرافا للمستقبل.

وقـد تعانقت هذه الصور الجزئية في ترابط وتسلسل؛ لترسم هذه اللوحة التي تقطر شقاء وتنزف ألما.

فكلمـة «يقعـد علـى الأرض» و«علـى رصيف الشـارع» تشيـر إلى الاستكانـة والمهانـة التـي يعيش فيها. وكلمـة «وبيده مـرآة مكسورة»، تعميق لهذا الشعور المستكين؛ ليرى فيها ماذا؟ «وجهه والصابون القذر يغطيه» صورة مستبشعة لتغطية الصابون القذر لوجهه وما توحيه كلمة «قـذر» من سوئه واختلاطه بمـا أفسده، ولكن ما الحال إذا كان صابون الفقير قذراً، وقد صنع الصابون لإزالة القذارة! وكلمة «وموسى الحلاق المغلولـة تجري فيه» تجسيد لحركة تلك الموسـى الرديئة في جريانها في هذا الصابون القذر!.

وكلمة «الدم ينبثق من نواحيه» تبعث في النفس صورة الدم وحمرته وخروجه مندفعاً من جنبات الوجه، وكأنه جزار يسلخ ذبيحته.

وكلمـة «ثم مرّ على الوجه البشـري ممسحة لا ترضونها أنتم والله لمسـح أحذيتكم» تطلق الذهن ليتصـور ويستحضر ما يشاء من بشاعة وقـذارة هذه الممسحة التي يأنف الغني مـن أن تكون ممسحة لحذائه، وقد جعلها الفقير ممسحة لوجهه؛ لفقره وقلة حيلته.

وكلمة «البشري» تثير في النفس الشفقة والألم لهذا الفقير! إذ هو ممـن كرم الله.! وهكـذا توحي كل كلمة بما يعمق هـذا الشعور بالمذلة والمهانة ويصور هذا الألم بالمعاناة والاستكانة.

وقـد تكاتفت كل كلمـة بدلالتها وإيحائها فـي تشكيل هذه الصورة الكليـة الباكية المؤلمـة، ورسم ملامحهـا التي تنطق بالألـم وتعتصر بالمرارة وتجسد شدّة المعاناة.

«القعـود على الأرض، وعلى الرصيف، المرآة المكسورة، الصابون القـذر، الموسى المغلولة، الـدم المنبثق من الوجـه، الممسحة التي لا ترتضي لمسـح الأحذية، العربة «الكارّو»، جلوس العشرة على متر من الخشـب، الحيوان الهزيـل، ترقيص المعـد وزلزلة الأمعـاء، قهواتهم اصطبلات، كراسيهم عيدان، أطباقهم القذرة يقدم فيها المرض!.

فهـذه الكلمات مجسدة لأجـواء المهانة، ناطقـة بالمرارة، تعكس عاطفـة الطنطـاوي الإسلامية فـي استعطافه للقلـوب، وإثارته لنوازع الشفقـة والإحسان إلى هؤلاء الفقـراء، سوى أن كلمة «ترقص المعدة» فيهـا من الدلال مـا لا يتناسب مع أجـواء شقاء الفقيـر ومعاناته التي قصد نقلها إلينا وإثارتها فينا!.

ولعلـه قصد ترفضـ معدهم أي تحطمهـا وتفرقهـا؛ إذ إن رفض الشيء: ما تحطم منه وتفرق»[١]، وهذا المعنى يتناسب مع هذه الأجواء ويتوافق مع السياق، ولعل الكلمة صحفت عن هذا الأصل.

ومن تلك الصور القريبة المستمدة من الواقع والتي أسهم الخيال فيهـا بدوره الإسلامي في تقبيح القبيح وتجميـل الحسن وإبرازه، قوله في إحدى مقالاته:

---

(١) لسان العرب لابن منظور ج٣، ص١٦٨٩، دار المعارف.

«ذلـك ليعلم طلاب الأدب أن الذي يخـرج من القلب هو الذي يقع فـي القلب، وأن مـن يمتلكه المعنى الذي يكتب فيه، هـو الذي يملك به الذيـن يقرؤونه، أما الذي ينحـت الألفاظ من أعماق القاموس بالمعول ليكومهـا على الـورق بالمجرفة، فهـو عامل في إصـلاح الطرق، وليس صائغا لجواهر الكلام...»(١).

هاتـان صورتـان: الأولى لصـدق الأديـب وأثر صدقـه. والأخرى لاصطنـاع الأدب وعاقبته. وقد برع الطنطاوي في أن يبرز هذه المعاني المجـردة في لوحة فنية جسدت المعنى وعمقـت إحساسنا به، فلمسنا مواطن الجمال والقبح فيه.

وقـد تعانقـت الصـورة الأدبيـة بأبعادهـا الحسيـة مـع الصورة المجازية بأبعادها التخيلية، فبدا المعنى واضحا في الأذهان، مستقرا في الوجدان.

فكلمـة يخـرج مـن القلب... يقـع في القلـب، تجسـد الحركة في ترددهـا بين سهولة الخروج وقوة الوقـوع.. كما تبرز القوة من الصوت المستفـاد من مدلـول «كلمة يقع» التي تقـرع الأذن بجرسها القوي قبل مدلولهـا الذهني؛ ولـذا فتعبيره بلفظة «يقع» أدل فـي أداء المعنى على تمكن الشيء وكمال التصاقه.

وكلمـة: «وأن من يمتلكه المعنى الـذي يكتب فيه هو الذي يملك به

(١) من مقالة كتاب تعزية، صور وخواطر، ص٢٧٤.

الذيـن يقرؤونــه».. تصوير ذو أبعــاد شعورية وتخييليــة منحت المعنى طرافة ووضوحا وثراءً جسد فيه المعنى - المجرد - سيداً مالكا مسيطراً. والكاتــب الذي يستهويه هــذا المعنى ويؤمن به عبــد مطيع له لا يخرج عليه، ولذلك إن أراد منه شيئاً أخذه من وجهه الذي يرضيه ويعليه، فلا تجد له اعتداء عليه أو خرقا له أو تفلتا من نظامه.

هــذا المدلــول التخييلي المجســد للمعنى بدا في جمــال ووضوح؛ ليبيــن صلة الأديب الموهوب بمعناه الذي جعله مالكا له مسيطرا عليه؛ لإيمانه به.

فــإذا كانت هــذه هي علاقة الكاتب بمعناه مــن التجميل والتعظيم وحســن التأتي، لم يبخل عليه بدلالتــه، بل يمنحه من مكامنه ما يمتلك به قراءه.

فهذه الصورة بمدلولهــا الحسي والإيحائي جسدت المعنى للأدب الحقيقــي الجميــل الــذي لا يخرج إلا عــن إيمان صــادق، ووجدان حي متأثر؛ ليمتلك بعد ذلك القلوب.

وبمقابلــة هذه الصورة للأدب الحق، يرســم لنا الطنطاوي صورة أخــرى منفّرة للأدب الزائف، معتمدا على مدلول الكلمات وإيحائها في تصوير ثقله وسخافته.

فكلمة «ينحت» تعطي بمدلولها الذهني إحساساً بصعوبة هذا العمل ومشقتــه، كما توحي بصوت النحت المؤلــم للسمع باحتكاكه وضجيجه المستمر وصيغــة المضارع تدل على الاستمــرار. وبإسناد «النحت إلى

الألفاظ» يتحرّك الخيـال؛ ليجسد مدى مشقة ما يعانيه فاقد الموهبة، ومدعي الأدب من صعوبة وتعسر في صياغة الألفاظ وتأليفها، وما يكون لهذه الصياغة المجهدة من وقع سيئ، يؤلم الأذن ويكره السمع.

فـإذا كان هذا النحت من «الأعماق» دل على عظم المشقة والعناء في التأليف، لما تشكله لفظة الأعماق من البعد والاستقصاء.

وكـون هذا النحت للألفـاظ «بالمعول» الـذي لا يرتبط في الذهن إلا بالهـدم والتكسيـر، عمّـق الإحساس والشعور بصلابـة وجمود هذه «الصياغة» التي تحطم وتهدم الأذواق بجمودها وثقلها.

وكلمة «ليكومها» تدل بجرسها وحروفها وشكلها وحركتها على التداخل والاختلاط، قبل أن تدل بمدلولها الذهني على فقد التناسق والنظام.

فـإذا كان هـذا التكويم كتابة علـى «الأوراق» جسّد مـا كانت عليه الكلمات والألفاظ من تفكك وتنافر واختلاط...

فـإذا كان هذا التكويم «بالمجرفة» التـي استعارها «للقلم» بقرينة علـى «الأوراق» والمجرفة ترتبط في الذهن بجرف القمامة والأوساخ.. دل هـذا على ما تكـون عليه تلـك الصياغة حينئذ في كونهـا من قبيل مـا يجرف من قمامة وأوساخ، وحينها لا يسمـى هذا أديباً ولكن يسمى عاملا «لإصلاح الطرق».

فهـذه صورة متنامية أسهمـت كل كلمة فيها في تجسيد ثقل الأدب المصطنـع، وخطـورة أدعيـاء الأدب فـي تشويه صورتـه، التي تحطم الأذواق وتهدم الفكر.

وعلى ذلك يمكن القول: إن الطنطاوي في صوره لا ينقل عن الواقع فحسب، بل يضفي على صوره من أحاسيسه، ويخلع عليها من خواطره ومشاعره المفعمة بقيم الإسلام ما يبث فيها الحركة والحياة والطرافة والجدة.

كما يتضح من ذلك قدرة الطنطاوي الفائقة على تصوير المعاني الذهنية والعواطف النفسية، وإبرازها في صور حسية حية، تجلي المعاني المستورة وتكشف الخبايا المجهولة في صور آسرة تستهوي القلب، وتمتلك النفس، بما يبثه فيها من إحساس صادق وشعور حي.

وتصوير الطنطاوي وخياله ـ كما رأينا ـ وسيلة لإبراز تصوره الإسلامي ونقله، وتعميق الإحساس به؛ حتى أيقنا بذلك أن الخيال من الوسائل المهمة التي يعتمد عليها الداعية والأديب في توصيل أفكاره ومشاعره وعواطفه وتثبيتها في الأذهان؛ إذ إن تصوير المعاني الذهنية والخواطر النفسية في صور حسية يجعلها أكثر وضوحا، وأعمق تأثيرا، وأقوى حجة في تثبيت المعنى «لأنها حينئذ تخاطب الحس والوجدان وتصل إلى النفس من منافذ شتى: من الحواس، ومن الوجدان المنفعل بالأضواء والأصداء، ويكون الذهن منفذا واحدا من منافذها الكثيرة إلى النفس لا منفذها المفرد الوحيد. ولهذه الطريقة فضلها ـ ولا شك ـ في أداء الدعوة لكل عقيدة...»[١].

---

(١) النقد الأدبي أصوله ومناهجه. سيد قطب، ص١٣١.

وقد وظف الطنطاوي هذه الموهبة التصويرية واستفاد من طاقاتها التأثيرية في تحريك الوجدان، وتوجيه العواطف، لاستحباب الحسن وتجميل الفضائل والقيم والحث عليها، وتبغيض الرذائل بعرضها في صور كريهة منفّرة بارزة تلفت الانتباه وتنبه الإحساس.

وبهذا أتفق مع ما ذهب إليه الأستاذ محمد سعيد المولوي: في أن الطنطاوي ـ رحمه الله ـ قد استفاد من كل المناهج المتبعة في تكوين الصورة الفنية، والأدبية، والنفسية، والرمزية، دون اعتماد أو التزام بأي منها، حيث كان يهدف بصوره التأثير في المتلقي، ونقل أحاسيسه ومشاعره إليه، متوسلا إلى ذلك بكل طاقات الصورة من حركة، وتلوين، وتشخيص، وتجسيم، ممتزج بعواطفه ومشاعره بالقدر الذي يتناسب مع الفكرة، ويتلاءم مع تحقيق الهدف، مما أضفى على صوره جمالا وبهاءً، وأكسبها تأثيرا ونفاذاً..[١].

---

(١) الأدب الإسلامي «الصورة الأدبية الفنية في أدب علي الطنطاوي»، ص٤٥– ٤٨.

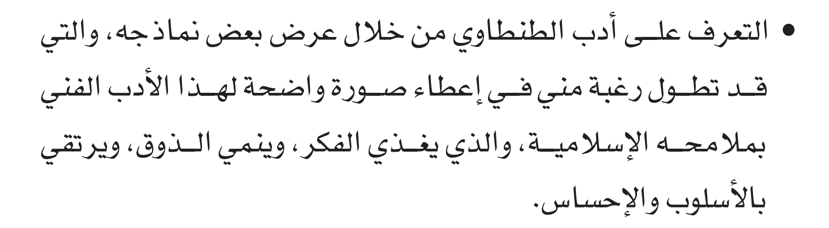
الخاتمة

لقد تبين مما سبق أن الطنطاوي قد عاش حياة طويلة خصبة، تنقل فيها بين حدائـق الأدب، وتجارب الحياة، فامتزجتا في نفسه، وأفرزتا أدبـا خاصاً، مزجـه بحكمته، وحـلاه بموهبته؛ لنرى فيـه متعة الأدب وجمال الحياة؛ حيث كان يقوده في ذلك، فكر واع، واطلاع واسع، وحس يقـظ، وقلم بصيـر، استوعب ثقافـة الماضي وجملهـا بثقافة العصر، حتى سرت في أدبه روح جديدة من ينابيع متصلة، جمعت بين الأصالة والمعاصـرة في تناغم جميل وامتداد رائع، نطل من نافذته على قضايا الماضي؛ لنستضيء بها في الحاضر والمستقبل.

ولعـل هذا البحث - بعد هـذه الجولات في أدب الطنطاوي - يكون قد كشـف عن ملامح الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي، وحقق النتائج التي استهدفها وهي:

- التعـرف علـى شخصية ذالكم الكاتب العظيـم في سلوكه القويم، وعوامـل بنائه، وتكوينـه الفكري والأدبي، وذلك مـن خلال التعرف على ظروف نشأته، وما كان يدور في مجتمعه وبيئته.

- كشـف العلاقـة بيـن الأدب والديـن، وفضح افتعـال الخصومـة بينهما، وصلاحية ترادف مصطلح «الأدب الديني» لمصطلح «الأدب الإسلامي».



- التعرف علــى أدب الطنطاوي من خلال عرض بعض نماذجه، والتي قــد تطــول رغبة مني فــي إعطاء صــورة واضحة لهــذا الأدب الفني بملامحــه الإسلاميــة، والذي يغــذي الفكر، وينمي الــذوق، ويرتقي بالأسلوب والإحساس.

- تلمس المظاهر الإسلامية لأدب الطنطاوي في ميادينه المختلفة، من خــلال التعرف على سيره في موضوعاته وأفكاره، وأسلوبه ووجدانه، وخياله الإسلامي الوثاب.

- وقــد تبين مــن هذا البحــث، أن الطنطاوي كان مثــالاً للأديب الإسلامي الحــق، الذي يسخر أدبه، وفكره، ومواهبه لإيقــاظ المجتمع وإنقاذه من انحرافاته، العقدية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية.. حيث كان أديبا داعية، تفاعل مع مجتمعه، وعرض لأزماته وقضاياه حلولا إسلاميــة حقيقية وواقعية في صور فنية مؤثرة؛ ليأخذ بيده نحو النهوض والارتقاء، ويقفز به إلى الريادة والسعادة في ظل الإسلام.

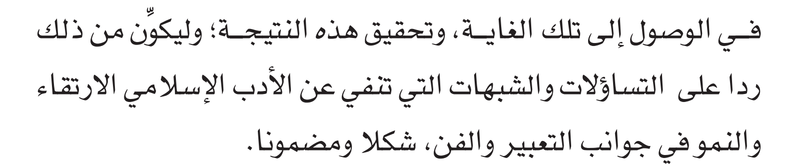
- وأن الطنطــاوي كان مــن أوائل مــن دعا إلى عرضــ الإسلام عرضا سهــلا ميسرا، والتعريف به تعريفا موجــزا، يُسهّل العلم به على من يجهلــه، والإحاطة بجوانبــه وقضاياه، وكان أول مــن نقل الجمعيات الأهليــة إلى دمشق، وعمل على إقامتهــا، وكان من أبرز من جاهدوا الاحتلال قولا وعملا.

- كان الطنطــاوي فــي أدبه مصورا ومتأملا، أحســن استغلال موهبته التصويرية الفائقة التي عكســت صدق عاطفته، وقوة انفعاله، ورقة

إحساسه، وعمق إدراكه للمحسوسات والمعنويات في إبراز جمال الأشياء وقبحها وفق المنهج الإسلامي القويم الذي يرفع من شأن القيمة ويُجمّلها، ويُقبح الرذيلة ويُمقّتها؛ سعيا لرفع المجتمع إلى المثل الإسلامي الأعلى بعيدا عن الواقع الأدنى.

- تبين من هذا البحث إدراك الطنطاوي للإسلام على حقيقته الشاملة وانفعاله به، ومن ثم حاول تقديمه في صور فنية رائقة، بما وهب من طبيعة فنية، ونفس ذكية قوية استوعبت إيحاءات الإسلام وعطاءاته الضخمة في عالم الفن والتأثير البناء، فانطلق منه بشحنات إيمانية ضخمة، وطاقات إبداعية فائقة، أضفت على المعاني روحا جديدة، وألبست الأفكار أثوابا قشيبة، أججت المشاعر، وأيقظت العواطف، وغزت القلوب، وامتزجت بالنفوس، فكان الطنطاوي لذلك مثالا رائعا للأديب المسلم الذي يستطيع أن يخترق نياط القلوب، ويقتحم أسوار النفوس؛ ليجد له مكانا لا يشغله غيره؛ إذ يخاطب العقل ويحاور القلب بوعي تام لما تتطلبه النفوس من وسائل الإقناع والتأثير؛ ليقتلع منها ما يريد ويغرس فيها ما يحب.

- يلاحظ في أدب الطنطاوي سريان الروح الإسلامية، وغزارة التوجيهات واللمحات الإيمانية؛ حتى لنراها بارزة في ألفاظه، وصوره، وأفكاره، ومعالجته الواعية بما يدور حوله، وما يستحدث في فلكه من نظم وأفكار، فيضفي ذلك على أدبه حركة وحياة، تخطو بنا خطوات واسعة نحو بناء القيم، وتصحيح الفكر، وتقويم السلوك والإحساس بالجمال، حيث كان يقدم في كل ذلك النموذج الأمثل، والشكل الأنسب



فــي الوصول إلى تلك الغايــة، وتحقيق هذه النتيجــة؛ وليكوِّن من ذلك ردا على التساؤلات والشبهات التي تنفي عن الأدب الإسلامي الارتقاء والنمو في جوانب التعبير والفن، شكلا ومضمونا.

- واتضح من خلال البحث ثبات الطنطاوي في التزامه المنهج الإسلامي المتكامــل في أسلوبه، وألفاظه، في خياله، ووجدانه، في اتزان عواطفه واعتدال رؤيته..؛ حيث كان ذا نفس قوية ثابتة لم تنصهر إلا في قالبها الإسلامي، فلم يكن يوما ردءاً لذوي النفوس اللينة التي تقبل الانصهار في كل قالب يدر عليها نفعا أو يدفع عنها ضررا! فأقنعنا بحقيقة انتساب الأدب إلى الإسلام وصحة المصطلح الحديث (الأدب الإسلامي).

- اتضحت براعة الطنطاوي الأسلوبية، وموهبته الأدبية؛ إذ نراه ذا قدرة مواتيــة، وأسلوب مطــاوع، ما إن يوجه اهتمامه إلــى شيء ـ مهما كان ضئيــلا خفيا ـ حتى يخرج لنا منه برؤية شاملة، لها تأثير في الحياة؛ ليمتع بذلك القارئ، ويلذ السامع ويرتقي بذوقه وفكره وسلوكه.

- اتضحت مرونة أسلوب الطنطاوي، ومطاوعته له في تلوينه الأسلوب، ومراعاتــه بــه لمستــوى المتلقين، فمرة يعلــو به إلى القــوة والمتانة والعمــق والرصانــة ليناســب الخاصة، ومــرة يميل به نحــو السهولة والوضوح والقرب ليناسب العامة.

- أحســن الطنطــاوي في أدبه توظيــف معارفه الثقافيــة، وتجاربه في الحياة، وطاقاته الإيمانية والنفسية في إبراز جمال الإسلام، وكمال منهجه، وعظمة رجاله، وثراء نتاجه، وعطاء تاريخه.

- ومن أهم ما يلفت الانتباه في أدب الطنطاوي، صدقه وقربه وحرصه على قارئه، فهو ينقل عن نفسه، ويقيد خواطره، ويظهر مكنون فكره بموهبة قادرة، تجعله واضحا قريبا صادقا، كأنه يحدثك ويحاورك، لا حجـاب بينك وبينه حتى تكاد تـرى صورته في أدبه، وتلمس هيئته في قوله، مما يقودك إلى حبه ويغريك بتتبع قوله، حتى لا تفضل عليه أحدا، وتحار في سر جمال أسلوبه وشدة أسره، متسائلاً: هل هو في سهولـة العبارة، أم في لطف الإشارة، أم فـي اختيار الكلمة وارتفاع المعنــى، أم في دقة الفكـرة وجمال العرض، أم فـي صدق العاطفة وانفعـال الوجدان، أم في قربه مـن النفس وبعده عن التعالي والكبر والتكلـف؟!... وعند التأمل يبـدو السر في جمال أسلوبه وشدة أسره في اشتماله على تلك الخصائص كلها.

- نجـح الطنطاوي ـ بما قدمه في أدبه من فكر متزن وموضوعات حية ـ أن يرينـا دور الأدب الإسلامي في تصحيح المفاهيم، وإصلاح خلل الحيـاة، وأن يرينـا بأسلوبه العذب؛ جمال العربيـة ولذتها وكفايتها فـي تحقيق المطلوب، وأن ينقل إلينا أحاسيسه الإسلامية وانفعالاته القوية فيما تناوله من خلال وجدانه الصادق وشعوره اليقظ،

- نقـل إلينـا الطنطـاوي مشاهده وخواطـره بأبعادهـا وملامحها في نفسه، من خلال خياله الإسلامي، وذوقه الإنساني الذي يبرز الشيء علـى حقيقته دون زيف أو خداع؛ ليحقـق الغاية المنشودة من الأدب الإسلامي في علاقته بالنفس والكون والحياة.

- ودل هذا البحث على أن اتجاه الطنطاوي وسيره الإسلامي في أدبه كان استجابة لمشاعره الصادقة ونفسه الممتلئة بعظمة الإسلام، وإحساسه العميق بقيمه ورجاله، وكان تلبية لحاجة مجتمعه إلى تدعيم القيم وبنائها، وتنمية الوعي الإسلامي وارتقائه، ليتسنى له الصمود والثبات في مواجهة الهجمات الشرسة، والمتغيرات التي زلزلت كيان الأمة الإسلامية ونالت منها منذ بدايات القرن الماضي وحتى اليوم.

توصيات البحث

أوصـي بالاهتمـام بـالأدب الإسلامـي وتشجيعه بشتـى الوسائل، ودراستـه للتعرف على ملامحه وخصائصه التـي نأمل أن تقود الأدباء والمبدعيـن إلى تواصل هذا الاتجاه وامتداده، والتي لا يكون إلا بوجوده والتشبع به والتمثل له، حيث ضاعت كثير من المواهب لغياب هذا الأدب، وطمس اتجاهه، وانغماسها في الغث المطروح والسير في ركابه.

تشجيـع دراسة الأدب الإسلامي وبخاصة النثر الفني لدوره القوي، ومنهجه القويم فـي توجيه الجماهير، وإمتاعهم وتثقيفهم وفق المنهج الإسلامي الذي يرتقي بالأذواق والعواطف والأفكار.

وإنـي لأهيـب برجـال الإعـلام والتعليم الذيـن- أشادوا بـكل تافه وصفقـوا لكل ناعـق، وفتحوا الباب لـكل لاجئ- أن يعيـدوا النظر فيما ينفـع وما يضر؛ ليجعلـوا الإسلام ميزانهم، ورجالـه أركانهم، ليرفعوا أهل العلـم والأدب الحقيقي الذين ترتفع بهم الأذواق والأفكار وتتحقق بهم الغايات والأهداف؛ وليطمسوا أهل الأدب الزائف الذي يزيف على الناس الحقائق بإفساد القيم وتحريك الغرائز وإثارة الشبهات.

ولما كان الإسلام يفرض علـى أتباعه تقدير الكفاءات والاستفادة بالقـدرات البشرية الهائلة، ومنحهـا ما تستحق من الإجلال والتكريم،

فإني أقترح على الهيئات الإسلامية والوسائل الإعلامية والتعليمية أن تهتم بالإفادة من تراث الطنطاوي الزاخر: خطابة، ومقالة، وقصة، وتراجماً.

وأرى أن تقوم لجنة متخصصة بترجمة ما يمكن من تراث الطنطاوي وأمثاله إلى اللغات الأجنبية السائدة؛ ليكون في تناول المسلمين غير الناطقين بالعربية والمهتمين بالدراسات الإسلامية، لما لذلك من عظيم الأثر وكبير الفائدة إن شاء اللّٰه.

وأوصي القائمين على شؤون التربية والتعليم بضرورة الالتفات إلى كتب الطنطاوي وأمثاله.. التربوية والعقدية والتاريخية... والاستفادة بما رسمه فيها من صحة المنهج، وجمال العرض، وعذوبة الأسلوب، وإبراز الحقائق، ومناقشة الأفكار.

أن تُدرَج مختارات من أدب الطنطاوي للدراسة والنقد ضمن مناهج الأدب والنقد في المعاهد والمدارس والجامعات.

أن ينال الأدب الإسلامي الاهتمام الذي يتناسب مع مكانته ومنزلته وحاجة الأمة إليه، وخاصة في تلك الفترة التي تمادى فيها أعداء الإسلام في طغيانهم وعبثهم واتهامهم للإسلام ورجاله بالجمود والقصور؛ ليتسنى التصدي لباطلهم ومجابهة انحرافهم، بما يعيد الحق إلى نصابه، ويدفع الباطل إلى أصحابه.

أن تقوم الهيئات الإسلامية والمؤسسات الدعوية ـ كالأزهر، والأوقاف، ووزارة الثقافة... ـ بدعم المطبوعات والأعمال الإسلامية ـ

المسموعة والمرئية والمقروءة ـ للطنطاوي وأمثاله؛ لتصبح في متناول الجميع.

أن تفتح نوافذ جديدة لنشر الأدب الإسلامي، وإبراز رجاله عبر الوسائل المختلفة ـ الراد، والرائي، والصحف، والمجلات، والإنترنت ـ التي تواكب تطورات العصر، وحاجة المجتمع المسلم إليها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

المراجع

- القرآن الكريم.

١. أبو بكر الصديق - علي الطنطاوي.دار المنارة - جدة - ط٤. ١٩٩٤م..

٢. أثر الإسلام في الشعر الحديث في سورية - محمد عادل الهاشمي. دار المنارة - الأردن، ط١. ١٩٨٦م.

٣. أحمد بن عرفان الشهيد - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق ط٢ - ١٩٧٩م.

٤. أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر - علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي - دار المنارة - جدة - ط١١. ١٩٩٩م.

٥. بغداد.. مشاهدات وذكريات - علي الطنطاوي - دار المنارة - جدة - ط٢. ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٦. بين الأدب والصحافة - فاروق خورشيد - دار الفكر العربي - ١٩٧٢م.

٧. بين الأدب والنقد - د/ محمد أحمد رجب البيومي - المطبعة الفنية - ط١. ١٩٩٧م.

٨. تذكرة الدعاة - البهي الخولي - دار التراث - القاهرة ط ٨. ١٩٨٧م.

٩. تاريخ بغداد - أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي - دار الكتب العلمية. بيروت (بدون).

١٠. تعريف عام بدين الإسلام - علي الطنطاوي - دار البشير - طنطا - مصر، ط٣ - ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

١١. جابر عثرات الكرام - علي الطنطاوي - دار الفكر - دمشق، ط٣ - ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٢. دراسات في البيان القرآني من الوجهة الأدبية ـ د/عبد القادر رزق الطويل ـ دار البيان ـ القاهرة ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

١٣. دراسات في النص الشعري ـ عبده بدوي ـ دار قباء ـ القاهرة (بدون)

١٤. دمشق صور من جمالها.. وعبر من نضالها ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة، ط٣ ـ ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

١٥. ذكريات علي الطنطاوي ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة ـ ط١ـ ١٩٨٩م

١٦. رجال من التاريخ ـ علي الطنطاوي ـ دار البشير، طنطا، مصر ـ ط١ ١٩٩٨م.

١٧. سنن أبي داود ـ الإمام سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ـ تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الفكر (بدون).

١٨. سنن ابن ماجة ـ للإمام/ عبد الله بن يزيد القزويني: ابن ماجة ـ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الحديث. بيروت ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

١٩. صحيح البخاري ـ الجامع الصحيح المختصر ـ للإمام محمد بن إسماعيل البخاري ـ تحقيق د/ مصطفى ديب البغا ـ دار ابن كثير، ط٣ ـ ١٤٠٧هـ.

٢٠. صحيح مسلم بشرح النووي ـ دار الحديث ـ ط٣ ـ ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

٢١. صور وخواطر ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة. جدة ـ ط٤ ـ ١٩٩٨م

٢٢. صور من الشرق في إندونيسيا ـ علي الطنطاوي، ط١ ـ ١٩٩٢م.

٢٣. عبد الرحمن بن عوف ـ علي الطنطاوي ـ دار الفكر، دمشق- بيروت، ط٢ـ ١٩٧٩م.

٢٤. عبد الله بن المبارك ـ علي الطنطاوي ـ دار الفكر ـ دمشق ـ بيروت، ط٢ـ ١٩٧٩م.

٢٥. عرس الشهداء ـ علي الطنطاوي ـ تقديم وتعليق محمد عبد الله الخطيب ـ دار المنارة الحديثة، مصر ـ ط١ ـ ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

٢٦. علم البديع دراسة تاريخية وفنية - د/ بسيوني عبد الفتاح بسيوني - مطبعة السعادة - ط١. ١٩٨٧م.

٢٧. علي الطنطاوي أديب الفقهاء وفقيه الأدباء - مجاهد مأمون ديرانية - دار القلم، دمشق - ط١ - ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٢٨. فتح الباري بشرح صحيح البخاري - للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - المكتبة السلفية (بدون).

٢٩. فكر ومباحث - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٣. ١٩٩٠م

٣٠. فصول إسلامية - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٤. ١٩٩٠م.

٣١. فن الخطابة - د/ أحمد محمد الحوفي - دار نهضة مصر - ط١. ١٩٩٦م.

٣٢. فن المقال في الأدب العربي المعاصر - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - ط٢. ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

٣٣ - في الأدب الإسلامي المعاصر - «دراسة وتطبيق» محمد حسن بريغش - مكتبة المنار، الأردن - ط٢. ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٤. في محيط النقد الأدبي - د/ إبراهيم علي أبو خشب - (بدون).

٣٥. في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - ط١١ - ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٣٦. في النقد الأدبي الإسلامي - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - مطبعة الشناوي - ١٩٩٣م.

٣٧. في سبيل الإصلاح - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٣ - ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٣٨. قصص من التاريخ - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط٦ - ١٩٩٦م.

٣٩. قصص من الحياة - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط١. ١٩٩٠م

٤٠ - قصة حياة عمر - علي الطنطاوي - دار المنارة، جدة - ط١. ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٤١. قيم حضارية في القرآن الكريم ـ توفيق محمد سبع ـ دار المنار، القاهرة (بدون).

٤٢. لسان العرب ـ جمال الدين بن منظور ـ دار الفكر ـ بيروت، ط١ـ ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٤٣. الأدب الإسلامي قضية وبناء ـ د/ سعد أبو الرضا ـ عالم المعرفة ـ جدة، ط١ـ ١٩٨٣م.

٤٤. الأديب السوري علي الطنطاوي ـ د/ عبد الحميد حامد شعبان ـ دار الأرقم ـ مصر، ط١ـ ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٤٥. الأحداث العربية في تاريخها الحديث ـ د/ طه شرف ـ شركة توزيع الجمهورية (بدون).

٤٦. الأسلوب،د/أحمد الشايب ـ مكتبة النهضة المصرية، ط٨ ـ ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٤٧. الإصابة في تمييز الصحابة ـ الإمام ابن حجر العسقلاني ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار الجيل ـ بيروت ط١ ـ ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

٤٨. الإسلام في الأدب العربي العاصر ـ د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين (بدون).

٤٩. الإسلامية والمذاهب الأدبية ـ نجيب الكيلاني ـ مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣ ـ ١٩٨٣م.

٥٠. الإمام النووي ـ علي الطنطاوي ـ دار الفكر. دمشق- بيروت، ط٢ ـ ١٩٧٩م.

٥١. البيان والتبيين ـ لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت ـ (بدون).

٥٢. التاجر والقائد ـ علي الطنطاوي ـ دار الفكر دمشق- بيروت ـ ط٣ ـ ١٤١٠هـ ١٩٨١م.

٥٣. التصويـر البياني.. دراسة تحليليـة في مسائل البيان. د/ محمد موسى. دار التضامن، القاهرة. ط٢ . ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

٥٤. العقيدة الدينية وأهميتها في حياة الإنسان. د/ محمود حمدي زقزوق. هدية مجلة الأزهر لشهر رجب ١٤١٥هـ.

٥٥. الغـزو الثقافـي يمتد فـي فراغنا. محمـد الغزالي. مؤسسـة الشرق، عمان. الأردن ط٢ . ١٩٨٥م.

٥٦. الفاخـر. لأبي طالب المفضل بن سلمة. تحقيق عبد العليم الطحاوي. الهيئة المصرية العامة (بدون).

٥٧. الفنـون الأدبية وأعلامها فـي النهضة العربية الحديثة. أنيس المقدسي. دار العلم للملايين، بيروت.

٥٨. القصـة القصيرة.. دراسة ومختارات. د/ الطاهر أحمد مكي. دار المعارف بالقاهرة، ط٥ . ١٩٨٨م.

٥٩. القاضي شريك. علي الطنطاوي. دار الفكر. دمشق- بيروت، ط٢. ١٩٧٩م.

٦٠. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ابن الأثير. المكتبة العصرية. بيروت ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.

٦١. المجـرم ومدير الشرطة. علـي الطنطاوي. دار الفكر. دمشق- بيروت، ط٣ . ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

٦٢. المستدرك على الصحيحين. للإمام محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري . تحقيق محمد عبد القادر عطا . دار الكتب العلمية. ط١ . ١٤١١هـ

٦٣. المصطلحات الأدبية الحديثة. د/ محمد عناني. الشركة المصرية العالمية للنشر، ط٢ . ١٩٩٧م.

٦٤. المعجـم الأوسط. الإمام أبـو القاسم سليمان بن أحمـد الطبراني. تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. دار الحرمين. ١٤١٥هـ.

٦٥. المقال وتطوره في الأدب العربي المعاصر - د/ السيد مرسي أبو ذكرى - دار المعارف ١٩٨٢م.

٦٦. المنجد في اللغة والأعلام - فوزي المعلوف - ط٣٤. ١٩٩٤م.

٦٧. المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره - د/ محمد رشاد خليل - دار المنار القاهرة، ط١ - ١٤٠٤هـ، ١٩٤٨م.

٦٨. النقد الأدبي أصوله ومناهجه - سيد قطب - دار الشروق - ط٧ - ١٩٩٣م.

٦٩. النقد الأدبي الحديث - د/ محمد غنيمي هلال - دار نهضة مصر ١٩٩٦م.

٧٠. الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد - د/ أحمد بسام ساعي - دار المنارة، جدة - ط١. ١٤٠٥هـ.

٧١. مدخل إسلامي لدراسة الأدب العربي المعاصر - د/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين - مطبعة السعادة ط١. ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

٧٢. مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني - دار التراث العربي ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٧٣. مخارج الحروف وصفاتها - أبو الإصبع السماتي - تحقيق د/ محمد يعقوب تركستاني - ط٢. ١٤٢٠هـ ١٩٩١م.

٧٤. معجم الأعلام - بسام عبد الوهاب الجابي - دار الجفان والجابي، ط١ - ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٧٥. معجم مصطلحات الأدب - مجدي وهبة - مكتبة لبنان (بدون).

٧٦. مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي - د/ مصطفى عليان - دار المنارة، جدة - ط١. ١٩٨٥م.

٧٧. مقدمة في النقد الأدبي - د/ علي جواد الطاهر - المكتبة العالمية، بغداد، ط٨ - ١٩٨٣م.

٧٨ ـ مقـالات فـي كلمات ـ علي الطنطـاوي ـ ج١ ـ دار المنارة، جدة ـ ط٢ـ ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

٧٩ ـ مقـالات فـي كلمات ـ علـي الطنطاوي ـ جـ٢ـ جمع وترتيـب ـ مجاهد مأمون ديرانية ـ ط١ ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٨٠ ـ مع الناس ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة ـ ط٣ـ ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

٨١ ـ من حديث النفس ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة ـ ط٣ ـ ١٩٩٨م.

٨٢ ـ من نفحات الحرم ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة ـ ط٣ـ ١٩٩٧م.

٨٣ ـ من هنا نعلم ـ محمد الغزالي ـ دار الكتب الإسلامية ـ ط٥.

٨٤ ـ منهج العقاد في دراسة الشخصيات الإسلامية ـ علي خالد السداني ـ المكتبة العصرية ـ ط١ ـ ١٩٨٩م.

٨٥ ـ موسوعـة التاريخ الإسلامي ـ د/ أحمد شلبي ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ط٣ ١٩٧٧م.

٨٦ ـ نحـو نظرية للأدب الإسلامـي ـ د/ محمد أحمد حمدون ـ إصدارات المنهل، جدة ط١ ـ ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.

٨٧ ـ هتاف المجد ـ علي الطنطاوي ـ دار المنارة، جدة ـ ط٣ ـ ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

٨٨ ـ هكـذا رباني جـدي علي الطنطاوي ـ عابدة المؤيد العظم ـ دار المنارة، جدة ـ ط١ـ ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٨٩ ـ وزارة بعنقـود عنـب ـ علـي الطنطـاوي ـ دار الفكـر، دمشـق – بيـروت ط٣ ـ ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.

المجلات والصحف

١. مجلة الأدب الإسلامي ـ ع ـ ٣٤، ٣٥ـ ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٢. مجلة الرسالة، ع ـ ٧٤٢ ـ السنة ١٥ ـ ذي القعدة ١٣٦٦هـ، ديسمبر ١٩٤٧م.

٣. مجلة الفتح عام ١٢ (٥٨٩١) الخميس ١٦ ذي الحجة ١٣٥٦هـ.

٤. مجلة الصحوة الإسلامية ـ الهند ـ ع ـ ٣٦ السنة ١٣ محرم ١٤٢١هـ، إبريل ٢٠٠٠م.

٥. المجلة العربية ـ ع ـ ٢٦٧ ـ السنة ٢٤ ـ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ، أغسطس١٩٩٩م.

٦. مجلة المنهل ـ ع ـ ٥٦١ ـ رجب ١٤٢٠ هـ، أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٩م.

٧. مجلة المشكاة ع ـ ١١ السنة ٥٣ ـ ذو الحجة محرم صفر ١٤٠٩ ـ ١٤١٠هـ

٨. مجلة فجر الإسلام ـ ع ـ ٢١رجب شعبان.

٩. مجلة هاجر أم المسلمين ـ ع ـ ٥٠ السنة ١٥ ـ جمادى الأولى ١٤٢٠هـ، أغسطس ١٩٩٩ م.

١٠. صحيفة الشعب المصرية ع ـ ٢ يوليو ١٩٩٩م.

منشورات رابطة الأدب
الإسلامي العالمية

١- من الشعر الإسلامي الحديث، لشعراء الرابطة.

٢- نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي.

٣- ديوان «رياحين الجنة» عمر بهاء الدين الأميري.

٤- دليل مكتبة الأدب الإسلامي في العصر الحديث، د. عبدالباسط بدر.

٥- النص الأدبي للأطفال، د. سعد أبو الرضا.

٦- ديوان «البوسنة والهرسك»، مختارات من شعراء الرابطة.

٧- لن أموت سدى «رواية»، الكاتبة جهاد الرجبي.

٨- ديوان «يا إلهي»، محمد التهامي.

٩- يوم الكرة الأرضية «مجموعة قصصية» د. عودة الله القيسي.

١٠- ديوان «مدائن الفجر» د. صابر عبدالدايم.

١١- العائدة «رواية»، سلام أحمد إدريسو.

١٢- محكمة الأبرياء «مسرحية شعرية» د. غازي مختار طليمات.

١٣- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني، د. حلمي القاعود.

١٤- ديوان «حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري» د. جابر قميحة.

١٥- ديوان «في ظلال الرضا»، أحمد محمود مبارك.

١٦- في النقد التطبيقي، د. عماد الدين خليل.

١٧- الشيخ أبو الحسن الندوي، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

١٨- القضية الفلسطينية في الشعر الإسلامي المعاصر، حليمة الحمد.

١٩- د. محمد مصطفى هدارة، دراسات وبحوث، مجموعة من الكتاب.

٢٠- معسكر الأرامل «رواية مترجمة عن الأفغانية» تأليف مرال معروف، ترجمة د. ماجدة مخلوف.

٢١- قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم «دراسة أدبية»، محمد رشدي عبيد.

٢٢- قصص من الأدب الإسلامي «القصص الفائزة في المسابقة الأدبية الأولى للرابطة».

٢٣- أدب المرأة .. دراسات نقدية من بحوث الملتقى الدولي الأول للأديبات الإسلاميات.

٢٤- الآمال صارت آلامًا، رواية من الأدب التركي، تأليف د. نور الله كنج، ترجمة د. عوني لطفي أوغلو.

٢٥- نحو كوكب الحرية - رواية من الأدب الفارسي، تأليف محمود حكيمي، ترجمة عثمان أيزدبناه.

٢٦- مملكة النحل - رواية من الأدب التركي - تأليف علي نار، ترجمة كمال أحمد خوجه.

٢٧- أقباس - ديوان شعر - طاهر العتباني.

٢٨- الشخصية الإسلامية في الرواية المصرية الحديثة - د. كمال سعد خليفة.

٢٩ - ديوان «عقد الروح»، نبيلة الخطيب.

٣٠- المفسدون في الأرض - مجموعة قصصية - فاطمة محمد شنون.

٣١- فوهة الجرح - مجموعة قصصية - سكينة قدور.

٣٢- الأرض الجريحة - مجموعة قصصية - صورية إبراهيم مروشي.

٣٣- نوبة قلبية - قصص قصيرة من الأدب الأردي - ترجمة: د.سمير عبدالحميد إبراهيم.

٣٤- مخيم يا وطن - رواية - دعد رشراش الناصر.

٣٥- ديوان: «شدو الغرباء»، أسامة كامل الخريبي.

٣٦- ديوان: «إسراء.. لوادٍ غير ذي زرع»، محمود محمد كلزي.

٣٧- نحو منهج إسلامي للرواية.

٣٨- الشاعر والمفكر الإسلامي: محمد إقبال.

٣٩- مسرحيات إسلامية قصيرة.

٤٠- الكُنتي - مجموعة قصصية - د.عبدالرزاق حسين.

٤١- ديوان: «ياطائر الأيك» - أماني حاتم بسيسو.

٤٢- شعـراء مـن الأدب التركي - ثلاثة وثلاثون شاعرًا مختـارًا - د.عوني عمر لطفي أوغلو.

٤٣- الاتجاه الإسلامي في أدب الطنطاوي - وفا علي وفا.

صدر في سلسلة أدب الأطفال

١- غرد يا شبل الإسلام - شعر - محمود مفلح.

٢- قصص من التاريخ الإسلامي - أبو الحسن الندوي.

٣- تغريد البلابل - شعر - يحيى الحاج يحيى.

٤- مذكرات فيل مغرور - د. حسين علي محمد.

٥- أشجار الشارع أخواتي - شعر - أحمد فضل شبلول.

٦- أشهر الرحلات إلى جزيرة العرب - فوزي خضر.

٧- باقة ياسمين - قصص للأديب التركي علي نار - ترجمة شمس الدين درمش.

٨- أغنية للغيمة البعيدة - شعر - أحمد زرزور.

٩- مغامرات عصفور - قصص - عبدالجواد الحمزاوي.

١٠- شيماء - قصص - حسن الغشتول.

١١- مدينة الرحمة - مسرحية - محمود عبدالله محمد.

١٢- بيض من ذهب - مسرحية - لطفي عبدالمعطي مطاوع.

١٣- سجين الهاء والواو - مسرحية - محمد عبدالحافظ ناصف.

● تطلب من رابطة الأدب الإسلامي العالمية:

المملكة العربية السعودية: الرياض ١١٥٣٤- ص.ب ٥٥٤٤٦

هاتف: ٤٦٣٤٣٨٨-٤٦٢٧٤٨٢ فاكس: ٤٦٤٩٧٠٦

web page adress: www. Adabislami.org

E-mail: info@adabislami.org